كتاب الجمهورية

أوهام الحب

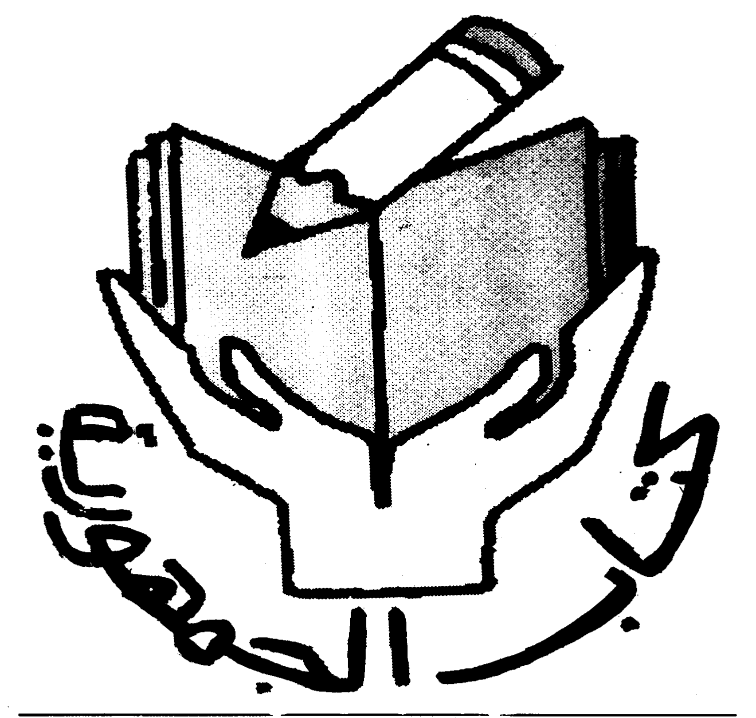
دراسة في عواطف الأنثى

الدكتور محمد الجوادى

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الجمهورية
يصدر عن دار التحرير للطبع والنشر

رئيس مجلس الادارة ورئيس التحرير
سمير رجب
رئيس التحرير : د. فتحى عبد الفتاح



المراسلات: ٢٤ شارع زكريا احمد - القاهرة
ت: ٥٧٨١٨١٧
٥٧٨٣٣٣٣
فاكس: ٥٧٨١٧١٧

اشراف فني : **مصطفى كامل**

فاتحة

كانت الجمهورية أسبق المؤسسات الصحفية التى اصدرت كتابا شهريا يعتبر حتى اليوم أحد الملامح البارزة للإصدارات الثقافية..

واليوم وبعد عدة سنوات من الانقطاع، ومع النهضة الحقيقية والجديدة للمؤسسة، يعود كتاب الجمهورية ليصدر من جديد وليصبح انجازا متميزا يواصل تراث الدار فى اصدار كل ماهو عصرى ومتميز.

وكتاب الجمهورية الجديد يشتبك مع قضايا العصر مصريا وعربيا وعالميا ويعنى بالمستجدات فى حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية ويقدم كل ماهو جديد ومثير للدهشة والفضول ومحاولة تاصيله وتفسيره والتركيز على كل ماهو جوهرى وأصيل.

يشارك فى الكتاب نخبة ممتازة ومختارة من كبار الكتاب.

د. فتحى عبدالفتاح

إهداء

حين كان هذا الكتاب فى مرحلة التجارب المطبعية أهديته بإعزاز إلى مَنْ تقبلت الإهداء باعتزاز . وحين يصدر هذا الكتاب فلربما لا ترحب بقبوله على الرغم من أننى لم أسحب الإهداء، وبالتالى فإن من حقها أن يظل الإهداء لها وأن يكتفى بحروفها الأولى بديلا عن اسمها الكامل ، وهى وحدها التى تعرفه، كما أنها وحدها التى تملكه.

إلى الفاضلة ا . ا . ا.

تحية لذكرى

أيام خالية لن تعود

وأنفاس حانية لن تجود

وآراء واهية لن تقود

وآلام ثاوية لن تسود

وآلاء شافية لن تفوت

وأمانٍ غالية لن تموت

ليست هذه الانطباعات قصصا قصيرة ولا طويلة، ولا هى بالأقصوصات، وإنما هى أقرب الصور الأدبية إلى ما نسميه فى العلوم البيولوجية بالقطاعات الطولية أو العرضية من النسيج الحى وإلى ما نسميه فى فنون التصوير بالمسقط، أو بما نسميه فى التصوير الضوئى بالبوز، أو ما نسميه فى الصورة الصحفية باللقطة اللحظية.

هذه إذن صور متباينة لشخصيات متباينة فى لحظات متباينة، ويزيد من عمق التباين فى هذه الصور أنها كتبت بنفسيات متباينة وبمشاعر متباينة وفى ظروف متباينة، ومع هذا فإننى لا أحسب أن هذا التباين (السداسى) سوف يكون هو الطابع المميز لهذا الكتاب، وإنما سيجمع بين كل سطوره شعورٌ مسيطرٌ باكتشاف الحقيقة، ولا أقول باكتشاف الوهم، ذلك أنى أومن بأن التجربة كفيلة دائما بالوصول إلى الحقيقة متى احترمناها فى كل لحظاتها، ومتى خضناها بروح منصفة بعيدة عن الرغبة فى إيذاء الآخرين أو خداعهم، وأومن كذلك بأن خوض التجربة فى إطار غير هذا الإطار أو بروح غير هذه الروح هو الذى يقود

بنا إلى أن تتخلف لنا فى نهاية التجربة أوهام تتراكم مع أوهام كثيرة يقود إليها العبث، لكن المشاعر الصادقة لا تنتهى إلا باكتشاف الحقيقة.

وبودى الآن أن أقول إن التجارب قد قادتنى إلى اكتشاف الحقيقة لا الوهم، بودى أن أعود لأقول إن الحقيقة التى تكشفت لى كانت أن التجربة لم تحظ من الحب إلا بأوهامه، ومن هنا جاء اسم هذا الكتاب «أوهام الحب». ولهذا فإنى أستطيع أن أقول باطمئنان إن «الحقيقة» كانت نتيجة طبيعية للتجربة، أما «الوهم» فكان الطابع المسيطر على آمال الحب.

❑❑❑

ليست أوهام الحب التى يتحدث عنها هذا الكتاب إلا حقائق موجودة وقائمة ومؤثرة وذات حق علينا فى معاملتها معاملة الأشياء والموجودات والمحسوسات، وعندى أن الحديث عن الحب لا يستقيم بدون الحديث عن أوهامه وأباطيله، كما أن الحديث عن الوجود لا يكتمل إلا بالحديث عن العدم، بل وربما بالحديث عن اللاوجود كذلك؟.

هل أريد أن أقول إن للحب حقائق كما أن له أوهاما.. ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر ذلك؟

بودى الآن أن أنتقل إلى جمهور القراء لأسأل نفسى: ولماذا لا تحدثنا عن حقائق الحب كما تحدثنا عن أوهامه؟. وبمقدورى أن أقول لنفسى ولقرائى جميعا: إن هذا الكتاب ليس إلا عن حقائق الحب.. حتى وإن طغت عليها أوهام الحب.

❑❑❑

ومما يؤسف له أن الحقيقة التى لا مراء فيها أن أوهام الحب قد طغت على حقائقه فى زمننا هذا الذى نعيشه، وبلغ من طغيانها أنها قد انتصرت حتى فى عنوان هذا الكتاب.

❑❑❑

ومما ينبغى أن أعترف به أيضاً فى صدق وحب أنى لم أكن على الإطلاق من الذين يشغلون الوقت بأية علاقة ولا فى أية علاقة، وإنما كنت فى واقع الأمر حفيا بالخبرة النفسية فى كل لحظة من اللحظات التى مرت بى أو علىّ فى أية تجربة خضتها، ولهذا فإنى أكاد لا أعدو الحقيقة إذا قلت إن فى هذا الكتاب كثيرا من خلاياى، ودمى، ولولا أن الحكيم العليم منّ علينا بتجديد الدم والخلايا لكان هذا الكتاب قطعة من نفسى نفسها بكل ما فيها.

ولست أزعم أن تسجيل هذه المشاعر كان بالأمر السهل أو اليسير، وربما لم يكن بالجهد المحبب إلى النفس، ولا الباعث لها على السعادة، ولست أستطيع من ناحية أخرى أن أتجاوز فأقول إنى وجدت نفسى مدفوعاً إلى تسجيل التجارب لينتفع بها الآخرون.. وفيما بين هذا وذاك فإننى أظن أننى ألقيت عن عاتقى عبئا لم يكن يثقل هذا الكاهل وهو على العاتق بقدر ما يثقله وهو على السطور، كما أنه يسعدنى وهو على هيئة سطور بأكثر مما كان يسعدنى وهو حبيس الصدور!.

محمد الجوادى

أستاذ م القلب بكلية الطب

٢٧ شارع الدقى ت ٣٣٨٣٣٨٨

أنا من ضيع فى الأوهام عمره ... نسى التاريخ أو أنسى ذكره
غير يوم لم يعد يذكر غيره ... يوم أن قابلته أول مره

* * *

قد قصدناه على غير اتفاق ... فنظرنا وابتسمنا للتلاقى
التقت عينى به أول مرة ... فعرفت الحب من أول نظرة

* * *

قلت والنشوة تسرى فى لسانى ... هاجت الذكرى فأين الهرمان
أين وادى السحر صداح المعانى ... أين ماء النيل أين الضفتان

* * *

آه لو كنت معى نختال عبره ... بشراع تسبح الأنجم إثره
حيث يروى الموج فى أرخم نبرة ... حلم ليل من ليالى ..كليوباترة

---

* هذه الأبيات للشاعر على محمود طه من قصيدته « الجندول » لم ترد بهذا الترتيب حين نظمها شاعرنا العبقرى ، ولكنها بالترتيب الذى بين أيدينا تلخص قصة حياة صاحب هذا الكتاب مع الأوهام، وليس فيها من إضافة تغير الوزن أو القافية ، أما النقاط التى فى الشطر الأخير من البيت الأخير فإنها ترمز إلى موقف شخصى بحت ، وكأنها رسالة مشفرة ، وليس على القارئ أن يتعب نفسه فى المراد بها .

لهذه الرسالة قصة غريبة، فهى التجربة الشعورية الوحيدة فى هذا الكتاب التى لم أمر بها مباشرة، إنما هى تجربة صديق مقرب جداً إلى نفسى، وقد قرأ كتابى «أوراق القلب» مرات عديدة، وراقته فكرة رسائل الافتراق العشر التى تمثل الجزء الخامس من ذلك الكتاب الذى نشرته دار الشروق فى ١٩٩٤، وقد طلب إلىّ بحكم المحبة والصداقة أن أكتب له رسالة إلى حبيبته على نمط هذه الرسائل التى فى «أوراق القلب» .. وكان صاحبى جاهزا بعنوان الرسالة وهو العنوان الذى تحمله هذه الرسالة، ويحمل الصفة البارزة فى حبيبته، وقد حاولت أن أثنيه عن هذا العنوان بالذات دون أن أفصح له عن السبب، ولكن تصميمه كان حاسماً، وكان تشخيصه واضحاً لا لبس فيه ولاغموض، بل ربما حسدته على هذا التشخيص.

وفى إحدى المرات سألنى عن الصفة التى يمكن أن تحل محل «الهشة» فى وصف حبيبته، ويبدو أن سؤاله كان مفاجئاً مع أن الحكمة كانت تقتضينى أن أتوقع منه مثل هذا السؤال منذ أن تحفظت على العنوان فى أول مرة، ومع هذا

فقد لجأت إلى اللغة الانجليزية لأقول له إننى أقترح عليه الوصف الذى تعبر عنه كلمة Brittle بديلاً عن الوصف الذى تعبر عنه كلمة Fragile ، وإذا بصديقى - وله كل الحق - يثور علىّ ثورة عارمة ؛ لأنه يعتقد أن حبيبته و إن كانت قابلة للكسر أو القصف إلا أنها لم تنكسر أبداً .. وقد عذرت صاحبى فى ثورته ووعدته أن أضمِّن هذا المعنى الجديد فى الرسالة، وكنا قد انتهينا من صياغة معظمها، بعد إقراره،وكانت نقاشاتنا حول كل فقرة تستغرق وقتا طويلا، وظننت أن مثل هذا الاعتذار كان كفيلا بأن يريح ضميرى تجاه هذه الحيرة من جانبى فى موافقة صديقى على إضفاء هذه الصفة بالذات على حبيبته، ولكننى لم أنم ليلتها .. وفى الصباح كنت أنا الذى توجهت إلى صديقى على غير موعد وعلى غير عادتنا، فهو دائماً وأبدا مشغول ومنظم، وهو الذى كان يأتينى فى كل الأحوال، وبدأت له مقدمة طويلة أثبت بها لنفسى ما يعرفه عنى من الشجاعة الأدبية .. وبعد وقت غير قصير قاطعنى بالسؤال عن جدوى هذه المقدمة الطويلة، فطلبت منه أن يسامحنى مقدماً، ووعدنى بذلك بدون تردد، وعندئذ اعترفت له بأنى كنت أدخر هذه الصفة لمعشوقتى أنا حين أكتب قصتنا، ولهذا فإنى كنت بكل الوسائل أريده أن يترك هذه الصفة دون استعمال حتى تكون لى أنا ولمعشوقتى حين يتاح لى أن أكتب رواية حبنا الخالد (أو ربما الفاشل) .

* * *

وفى الحق فقد تأثر صديقى كثيرا، ووعدنى أنه سوف يجد الحل .... وبعد ثلاثة أيام لم أذق فيها طعم النوم فوجئت به وهو يقول إنه سامحنى، وإنه فى ذات الوقت قد ازداد اعتزازاً بى وقد وجدنى أوثره على نفسى وأكتب قصته ورسالته قبل أن أكتب قصتى ورسالتى فضلا عن أن أكتم مشاعرى طوال هذه

المدة تجاه الصفة التى أختارها، ثم إنه يفكر فىّ وفى معشوقتى إذا حدث وتسرب إليها خطابه إلى حبيبته ذات يوم وهو بأسلوبى الذى لن تخطئه ... وفى نهاية حديثه أخرج لى ورقة مطوية من جيبه، ودعانى إلى قراءتها فاذا بها تحوى إقراراً مكتوبا منه يوافق فيه بكل سرور على أن أنشر فى أى كتاب قادم من كتبى أو فى الطبعة الجديدة من «أوراق القلب» مسودة رسالته إلى فتاته «الهشة» بعد أن أحذف كل ما يشير إلى اسمها ووظيفتها ومكانتها فى المجتمع وأن أشير ـ وهذا هو الأهم ـ إلى أن هذه القصة ليست لى وإنما لآخر ... ومن العجيب أنه لم يكن يهمه أن يكون هو هذا الآخر أو ألا يكون .. وقد قال لى إنه يكفيه أن تقرأ حبيبته رسالته بين دفتى كتاب من كتب صديقه الذى كانت تشاركه الإعجاب به .. وكانت هذه أول مرة يخبرنى فيها صديقى أن حبيبته تعرفنى! فاذا به هو الذى كان يعاملها معاملة الحريم فى العصر العثمانى لايعترف اليوم بأنها تعرفنى فحسب ولكنها ـ لحسن الحظ ـ كما يقول الآن قد قرأت كل حرف كتبته فى الكتب والمجلات والصحف.

* * *

وأردف صاحبى يقول إننى أعرف أنك لن تستفيد فى علاقتك بمعشوقتك شيئاً من نشر هذه الرسالة بل، ربما شكّت فى أنك تقيم علاقة مع غيرها فى ذات الوقت، وربما تغضب حين تجدك تضفى بعض صفاتها على غيرها، وربما تظن أيضاً أنك تقصدها، وتعرض بها بما ليس فيها من صفات أو حتى بما فيها من صفات لاتريد للناس أن يعرفوها عنها، وكان تقديره أن معشوقتى معروفة للناس لأن الشعراء من أمثالى (وكان يضفى علىَّ هذه الصفة التى ليس لى منها نصيب) ليس لهم سر، بينما هو شأن الفرسان لايذاع لهم سر، وأردف صاحبى يقول : لهذا كله فإننى قد كتبت لك هذا الإقرار ليكون شفيعك فى

مواجهة معشوقتك .. ولم يكن صاحبى يعرف طبيعة مواجهاتى مع معشوقتى، مع أنه هو وحبيبته يعرفانها حق المعرفة، ولكنهما لايعرفان أنها هى معشوقتى ، ومن حسن حظى أن معشوقتى لاتعرف أبداً أنهما يعرفانها بصفتها معشوقتى وإن كانا يعرفانها بصفتها هى، ومن حسن حظى أيضا أنها لاتعرف حتى الآن كل هذا !

* * *

وطيلة الأيام القليلة السابقة على نشر هذا الكتاب كنت فى حيرة : هل أضحى بهذه الرسالة الرائعة التى تفوق كل مافى كتابى هذا بما فيها من مشاعر وصور وتشبيهات وأخيلة، كنت أنا عاجزاً عن الإتيان بها من دون تجربة صاحبى مع حبيبته ! هل أنشرها على أنها من إبداعى مع أنها ليست كذلك؟! وإذا حدث ونشرتها ماذا تقول عنى؟! وماذا تقول لى معشوقتى التى مازلت أناديها بأنها هى الهشة؟

ولأن كلمة واحدة قد تكون كفيلة بإنقاذ حياة أو ضياعها، ولأن كلمة واحدة قد تكون كفيلة بإنقاذ أمة أو دمارها فقد ظللت متردداً ... متردداً ... متردداً .

وأخيرا جداً وجدتنى أكتب هذا الإيضاح .. ومازال الإقرار معى .. وقد بقى أن أذكر شيئين ربما سأل عنهما القارئ : فإذا كان للقارئ أن يسأل عن الوقت الذى استغرقته كتابة هذه الرسالة .. فإننى أجيبه بكل الصدق أنها استغرقت خمسة شهور بالتمام والكمال ما بين أخذ ورد وشد وجذب وتعديل وترتيب حتى أصبحت على الصورة التى سوف يراها الآن، أما الأمر الثانى فهو أن صديقى ألح علىَّ فى أن أنتقى له من ديوان الشعر العربى الكبير بعض الأبيات التى تعبر عن حاله، ولم أجد فى هذا المقام خيراً من أبيات الشاعر العربى «ديك الجن»، وقد أعجب بها صاحبى أيما إعجاب، بل إنه تمادى حتى

جرحنى بأن قال إنه لو كان يعرف بوجود مثل هذه الأبيات منذ البداية ما كلف نفسه مشقة مراجعة وتنقيح وتعديل نص الرسالة الذى كتبته على مدى هذه الشهور الخمسة، ولو أنه عرف (ديك الجن) لكان قد اكتفى بهذه الأبيات ... وعلى الرغم من أنى مجروح من هذا الرأى الذى يراه صاحبى وأرويه أنا بهذا القدر من الثقة بالنفس فإننى على كل الأحوال مازلت الفائز؛ لأننى على أقل تقدير أعرف أبياتا لـ(ديك الجن) لم يكن يعرفها هو ولأننى أيضا قد أجدت صياغة رسالة صاحبى على النحو التالى :

نص الرسالة

(١)

فى لحظات كثيرة أتصورك يامعشوقتى دوناً عن كل البشر أشبه ما تكونين باللبن الحليب ... ولم لا ؟ ودمك كله مثل اللبن قد يتعكر بذرة واحدة من التراب الذى خلق منه البشر، وقد يتخثر بنقطة واحدة من الميكروبات التى يحملها البشر، وقد يتجلط فى أسرع وقت تزداد عليه حرارة الحياة التى يحياها البشر ، وهو لهذا لابد له من وعاء يحفظه من كل ما يحيط به، وأنت كذلك لابد لك من ظروف مثالية حتى تظلى فى صورتك العليا.

وأنت يامعشوقتى كاللّبن الحليب غذاء كامل بوسع الذين يعرفونك أن يكتفوا بك عن كل شىء فأنت طعامهم وشرابهم فى الصباح والمساء، فيك الحلاوة فلا يحتاجون المسكرات، كما أنك بما تصورين من آفاق السعادة الحقيقية لا تجعلينهم يحتاجون المسْكرات، وفيك الماء النقى فلا يصيبهم الظمأ

بعد تناولك، وفيك المناعة بكل صورها فأنت تحمينهم من كل صور الأمراض، بل إن مناعتك تمتد فى الزمان.. ولاتقف عند ليل أو نهار.

وأنت يامعشوقتى كاللبن الحليب لايمكن الاستغناء عنك أبدا... لا فى الشتاء.. ولا فى الصيف... لا فى أول الحياة كلها: لافى الطفولة، ولا فى اليفوعة، ولا فى الشباب، ولا فى الشيخوخة، ولا فى آخر الحياة.

وأنت كاللبن الحليب لايلبث إلا أن يفور فى لحظة واحدة من لحظات الغليان، ولكنه يتميز عن الماء الذى منه البشر حتى فى غليانه وفورانه، فهو يرغى ويزبد إلى الأعلى فقط، ويذهب هذا الغليان ببعض منه، ولايفعل مثل البحر الذى يرغى ويزبد فى كل اتجاه، والذى يرغى ويزبد ثم يعود إلى طبيعته لم ينقص منه شيء.

(٢)

أنت يامعشوقتى تبحثين عن مواصفات بعينها فى شريك حياتك... تريدين منه أن يكون مثلك، وأنت نادرة الوجود، ولهذا سوف يستحيل عليك أن تجديه، لأنك لن تجدى مثلك أبداً، ثم ماذا تفعلين بمثلك وأنت نفسك موجودة، هل تظنين أنك تسعدين حين يتكرر طرازك النادر، هل يتحمل الكون شمسين أو قمرين؟!.. وماذا يفعل الكون بشمسين أو قمرين ؟! إن وجودك وحده كاف، وفى غيابك لايكون للأقمار الأخرى معنى ولا وجود، ولا يكون للشموس الأخرى معنى ولا أثر.

أنت يامعشوقتى تظنين نفسك غير قادرة على التعامل مع مَنْ يختلفون عنك

فى بعض طباعك، وأنا أعجب بهذا وأعجب منه لأسباب كثيرة، أعجب بهذا لأنه دليل بكارة مشاعرك وبراءة أحساسيك، وأعجب من هذا مرة أخرى لأنى لم أكن أتوقع أن أجد صاحبة هذا الخلق فى زمننا هذا، وأعجب من هذا مرة ثالثة ؛ لأننى لا أستطيع أن أتصورك فى صورة غير هذه التى أعجب بها، وقد حباك الله بكل القدرات التى وزع على خلقه أقداراً متفاوتة منها.

(٣)

ولهذا كله، ولغير هذا فإننى لا أستطيع يامعشوقتى أن أنكر أننى أعيش معك بوجدانى منذ عرفتك، ومع أن الاعتراف هو إحدى وسائل الإثبات على الإنسان فى حالات لايتمناها لنفسه فإن للإنسان السوى أن يفخر باعترافه فى أحوال نادرة .. ومن حسن حظى معك أننى فخور باعترافى أكثر من مرة، فإننى فخور بأن أعترف أننى أعيشك وأعيش معك بوجدانى منذ عرفتك، ومرة ثانية فإننى فخور بأننى حين أعيش معك بوجدانى فإننى أعيش مع نفسى الماضية التى كانت لى فى مرحلة هائنة ومبكرة من حياتى، والتى أتمنى أن تعود إلىَّ، أو أن تستبقيك لى على الصورة التى أنت عليها من براءة النفس، وطهارة القصد، وصفاء الضمير، وأن تستبقينى أيضا لك ـ إذا أردت ـ بأضعاف ذلك القدر من الإيمان بك، والامتنان لك، والسعادة معك.

إننى أعرف يامعشوقتى أن أمثالك فى عصرنا نوادر، أعرف هذا عن يقين شديد، لأنى كنت كمثلك، ولأننى لم يسعدنى الحظ أن أصادف مثلك قبل أن أصادفك .. ومع أنى كما ترينى أوضح لك كثيراً من الصور والأمثلة الكفيلة بأن تجعلك تستوعبين الحياة والأحياء، فاننى مع هذا أتمنى لك أن تظلى على ما

أنت عليه من قصور فى فهم الشر والأشرار حتى لو كلفنى هذا البقاء بعض نفسى، وحتى لو كلفنى الإبقاء بعض رضائك عنى الذين تريدينه بكرمك كاملا... ولكننى ـ لعجزى ـ لا أستطيع أن أطلبه كذلك !! .

(٤)

إننى أقدر يامعشوقتى بكل حب كل ما تعيشين فيه من قيم سامقة، وأقدر فى ذات الوقت مالا تظنيننى أعلمه عن كل ما تعانين من الحياة ومن البشر ، وأقدر أيضا كل ما تطمحين إليه فى خضم ما تسعين وتبذلين من جهود .. ولكننى فى حقيقة الأمر أقدر أكثر من هذا كله الروح التى تختفى خلف كل ما يتبدى من سلوكك، وهكذا فإننى أدرك عن حق كيف تعيشين القيم السامقة بفطرة نقية يفوق أثرها كل ترتيب، وكل تعويد، وكل تأقلم، وكل تهذيب، وأدرك أيضاً عن إيمان كيف أنك تتقبلين معاناة البشر بما جبلت عليه النفس السوية من صبر على المعاناة وتقبل لها .. وأدرك أيضا كيف أنك لاتطلبين من الحياة شيئا لم تبذلى من أجله ما يفوقه من جهد، وكيف أنك لاتأخذين مما تعطيه لك الحياة إلا ما تعتقدين أنك تستحقينه، مع أنك تستحقين كل ما فى الحياة من حياة وسعادة ورفاهية ونعيم وثراء.

لهذا كله فإننى يامعشوقتى كنت ـ بكل ما كان يمكننى وبكل مالم يكن يمكننى ـ أقدر كل ما يصدر منك من تعبير راق عن مشاعر سامية، وكنت على الدوام أتلقى الجرعات التى تتيحينها من تعبيرك بما ينبغى لهذه الجرعات النفيسة من التقدير اللائق بجوهرها ومخبرها ومظهرها وملمسها وجرسها وشذاها.. وكنت ومازلت أرى أن كل الصفات الجميلة التى تنفرد بها تعبيراتك

وهمساتك ولمساتك وسكناتك وسكتاتك وانفعالاتك وإيماءاتك وانطباعاتك لاتزال تتأبى على الوصف الدقيق؛ لأن كل صفاتك الجميلة لم تتح من قبل أبداً لمن أجادوا الوصف أو حاولوه .. ولا أخفى عليك أنى كنت بعد كل لقاء بك أحاول أن أستعين بكل ما أملك من ثقافة وخبرة على أن أجد سبيلا إلى الوصف الدقيق لهذا الذى يصدر عنك، وأننى مع هذا كنت أجد نفسى عاجزاً عن أن أحيط به أو ألم بأطرافه، ومع أننى كنت أشعر بالأسى لهذا العجز الذريع فإننى كنت أحمد الله وأسجد له شكرا على النعمة التى لم يكن قلمى وحده قادراً على شكرها، ولا أظن كذلك أن جسدى كله بسجودى لله كان قادراً على الوفاء بشكره سبحانه وتعالى على هذه النعمة التى أنعم علىّ بها فى وقت من الأوقات .. والتى يبدو لك اليوم أن نعيمى بها كان مؤقتا لأنى لم أؤد له سبحانه وتعالى حق الشكر الواجب عليها ولا اللائق بها.

(٥)

أنت يامعشوقتى تخافين مسئوليات الارتباط وتقولين دائما لنفسك ولغير نفسك إنك لم تتصورى أن تكونى مسئولة عن نفسك قبل اليوم، فكيف بك بعد هذا العمر الطويل تكونين مسئولة عن الآخرين؟!... وسوف تسارعين إلى أن تقولى إنك لم تصرحى لى بهذا.. نعم يا معشوقتى لم تصرحى ولم تلمحى، وما أظنك كنت بحاجة إلى التصريح أو التلميح، ولا أظننى كنت بحاجة إلى التصريح أو التلميح لأفهم هذا، ولا أظنك كنت تظنيننى بحاجة إلى التصريح أو التلميح، بل لا أظننى أظنك كنت تظنيننى... ذلك أن عويناتك وبصيرتك وسلوكك وآراءك وهمساتك ولمساتك ولفتاتك كانت تنطق بهذا منذ أول يوم وحتى آخر لقاء.

ولقد كـان بودى أن أقنعك بما أنـا مقتنع به طـوال حياتى من أن الكـفء منا يكون فى موضـع القيادة أكثر راحة منـه فى موضع التبعيـة، وأن الإنسان الذى يعـتمد علـيه يجـد فى المسئولية عـن الآخرين راحة تـفوق راحتـه حين يلـقى بمسئولية نـفسه على الآخرين، وكنت أود أن أؤكد لك هذه المعانى وأن أقنعك بها مرة بعد أخرى، ولـكننى بعد تأمل لحياتك الماضيـة وجدت أن إقناعك بمثل هذه الفكرة لن يتحقق إذا لم يرتبط بتجربة شخصية متكررة تعيشينها وتكررين معايشتها فى كل يوم.. وكنت واثقاً أنـنى لو استطعت أن أمكنك من أخذ زمام المسئولية عن نفسك وعن الآخرين ولو بعد شهور معدودة فسوف يتغير فهمك وتقديرك للمسئـولية من نقيض إلى نقيض، وعندئذ فقـط يمكن لك أن تحكمى على قدراتك فيما مضى وفيما هو آت.

وبودى أن أعترف لك أننى كنت أتوجس أننى سـأكون الضحية طيلة الفترة التى سيستغرقها منك تنامى إحساسك بالمسئولية وقدرتك على القيادة، ولكنى كنت كما تقولين أحاول أن أكون بعيـد النظر وواسع الأفق، وكأننى كنت كما كنت تسـتنطقيننـى حين كنت، أسألك : إذ ما جـدوى أن نبدأ حياتنا بـقدم على الأرض، وقدم على الفرس الجامح ؟.

(٦)

ولقد كنـت يامعشوقتـى قريبا جداً منك طـيلة الفترة التـى كنت تنميـن فيها مهاراتك القيادية وتعمقين ما يستتبع هذا من روح المسئولية، ومن فضـل الله أنى ظلـلـت قـريبا جـداً دون أن تشعـرى بهـذا القرب أو أن تحـسيه، ولـربما كـانت سعادتى فى كل تلك اللحظات أضعـاف سعادتى الباكرة حين مررت بمثل هذه التجربة فى فترة مبكرة من حياتى.

وعلى الرغم من شوقى المتأجج يامعشوقتى إلى أن تخوضى التجربة بنجاح، فقد كنت على الدوام مدفوعا إلى الدعاء لك حتى تجتازى العقبات التى قد تعيدك إلى نقطة الصفر، والمصاعب التى قد تثنيك عن المضى فى الطريق، وفى جميع الأحوال فقد كنت متيقنا أنك بحمد لله سرت فى طريق لايمكن الرجوع عنه حتى وإن رجعت فيه بعض خطوات، كما كنت متيقنا أيضاً أن محصلة تجاربك فيه لن تتمثل فى النقطة التى وصلت إليها فحسب، ولكنها تتمثل فى نقطة متقدمة عن هذه النقطة بمقدار الخطوات التى قطعتيها خطأ فى الاتجاه المعاكس، كأننى أريد أن أقول لك إن رصيدك فى التجربة يوازى عدد الميلات التى قطعتيها حتى وإن لم تكونى قد وصلت إلا إلى مسافة أقل بحكم أنك سرت أكثر من مرة فى الاتجاه المعاكس أو الاتجاه المائل.

ولعلى يامعشوقتى لا أكذبك أبدا إذا قلت لك إننى متيقن أن رصيدنا من بناء الحب يخضع هو الآخر لنفس القاعدة، حتى إن كنت بحكم شفافيتك المفرطة ورهافتك المطلقة وهشاشتك البالغة تظنين أن ما تبدد فى عبث وخطأ قد انتقص من الرصيد الضخم لتجربتنا الثرية... ولكننى أكاد أتيقن وأجزم أنه زاد فى هذا الرصيد حتى لو لم تكونى قادرة على تصديقى.. ولا أظنك الآن غير قادرة.

(٧)

إننى أفتقدك يامعشوقتى، ولقد كنت أفتقدك فيما بين كل لقاءين بأصعب مما تتصورين وبأشق مما تتخيلين، ولسوف تعجبين منى اليوم وأنا أعترف لك بأن افتقادى لك رغم هذه الفترة الطويلة التى حرمتنى منك فيها لم يؤجج فىَّ

مشاعر جديدة، سوف تدهشين من هذا الاعتراف، وسوف تعجبين لصدوره عنى بهذه السهولة، ولكننى أستطيع أن أدلك على السبب دون خوف أو وجل، ذلك أننى كنت بالفعل أصل إلى أقصى ما يمكن للشوق أن يصل إليه حين كنت أفتقدك على موعد بلقاء قادم، ولا أظننى اليوم أفتقدك بأكثر مما كنت أفتقدك من قبل لسبب غريب، وعجيب ولكنه حقيقى، وهو أننى كنت فى افتقادك الماضى قد وصلت إلى أقصى ما يمكن للشوق أن يصل بتباريحه بالعاشق إليه .. كنت أشتاق إليك بكل عمرى الماضى والآنى والآتى .. وليس فى وسعى اليوم وأنا أشتاق إليك على بعدك أن أزيد فى شوقى إلا أن أشتاق إليك بكل عمرك أنت الماضى والآنى والآتى .. ولا أظننى أملكه، ولا أظننى كذلك أعيش من دون أن أملكه، ولا أظننى أشتاق بدونه، ولا أظننى كذلك بدونه قادراً على أن أشتاق .

(٨)

سامحينى يا معشوقتى إذا أنا لم أوفك حقك فإننى أنا نفسى لا أوفيك حقك .. وسامحينى مرة ثانية إذا لم تكن نفسى كلها قادرة على أن توفيك حقك فإننى أنا نفسى لست إلا حظك .. وسامحينى مرة ثالثة إذا لم أكن أنا قد أصبحت بالفعل حظك لأننى لا أتمنى أكثر من أن أكون أنا بعض حظك.... وبعض حقك .

قُولى لطيفْكِ ينثنى	عن مضجعى عند المنامْ
عند الرقاد، عند الهجوعْ	عند الهجود، عند الوسنْ

* * *

فـعـسـى أنـام وتـنـطـفـى نـارٌ تـأجّـجُ فـى الـعـظـامْ
فى الـفـؤادْ، فـى الـضـلـوع فـى الـكـبـودْ، فـى الـبـدنْ

* * *

جـسـدٌ تـقـلبـه الأكـفُّ عـلـى فـراشٍ مـن سـقـامْ
مـن قـتـادْ ، مـن دمـوْع مـن وقـودْ ، مـن حـزنْ

* * *

أمـا أنـا فـكـمـا عـلـمـت فـهـلْ لِـوصْـلِـكِ مِـنْ دَوَامْ
مـن مـعـادْ ، مـن رجـوْع مـن وجـودْ ، مـن ثـمـن

(١)

كانت سمة المقامرة المحسوبة أبرز ما يجمعهما، فقد كان كلاهما مقامراً، ولكنهما كانا يغامران بالألف من أجل الألف الثانية لا من أجل المليون، وكانا يقامران بالمليون من أجل المليون الثانية لا من أجل المليار، وكانا يظنان نفسيهما قادرين على المضى إلى آخر حدود المقامرة ماداما قادرين عليها ومتحسبين لها، ولم يحدث أن أحداً منهما استشعر حرمة ولاخطراً فى هذه المقامرة، ولا استشعر رغبة فى زيادة حدودها عما ينبغى أن يكون.

ولكنهما مع هذا كانا مختلفين إلى أقصى حدود الاختلاف فيما يتعلق بروح المقامرة... فعلى حين كانت لا تعلن عن نيتها فى المقامرة إلا عندما يكون فى يدها ما تقامر به كان صاحبها يعلن عن عزمه على المقامرة متى توافر له ما يقامر به.. كان يقامر على أنه سيقامر،ولكنها كانت لا تقامر إلا حين تجد ما

تقامر بـه بالفعل، وعلى قدر مـا كانا مختلفيـن فى الروح التى يقامران بـها فقد كانا كذلك مخـتلفين فى نظرتيهما إلـى سلوكيهما فى هذه الناحـية، فقد كانت تظن أن خيـالها لا يصل إلى ما يـصل إليه خياله، ولكـنه كان يعتقد أنـها كانت أكثر تحرراً بخيالـها من أن تحصره فى إطارات من التوقعات، وكـان يلخص لها الفرق بين طـبيعتيهما فى قـوله إن احترامها للمـقامرة يفوق احترامه لهـا، بينما حبه للمقامرة يفوق حبها لها، وكـانت ترد بالقول إن العكس هو الصحيح وإن احترامه هو الذى يفـوق احترامها، وإن حبها هو الذى يفوق حـبه وكانت تعلل هذا بفكرة صائبة وهى أنه يستعد للحظـة ويوفيها حقها من قبل الحصول عليه، أما هى فإنها تدخر فى نفسها ما يليق باللحظة ولا تبذله إلا عندما تأتيها..

(٢)

وعلى هـذا النحو عاش هـذان العاشقان أحـلى فترات عمـريهما حيـن كانا معا.. وعاشـا أتعس لحظات عمريـهما حين قدر لهـما أن يفترقا، فلـم يكن فى وسعه أن يجد سلواه فى سواها، ولم يكـن فى وسعها أن تجد سلواها فى سواه، ومن المدهش أنهما كانا يعرفان فى نفسيهما طبيعة انتمائهما لبعضهما، ولكنهما كانا يعاندان، وكان عنادهما صورة طبق الأصل مـن نفسيهما، فقد كانت تعاند بالرفض المـتكرر والحاسم والقاطع والـبات، وكانت تتعدى الرفـض إلى ما هو بعده، وكانـت صديقاتها مـن ذوات الخبرة بالنفـس البشرية يجـدن فى كل هذا الرفـض دلالة علـى حب لايعـرفن له حـدوداً، وكان هذا الاكـتشاف يـغيظـها ويدفعها دفعاً إلى الارتماء فى أحضان الـرفض حتى ضاقت بها أحضان الرفض نفسه.

(٣)

أما هو فكان أكثر حبا للمقامرة ـ كما ذكرنا ـ وكان لايفتأ يردد لكل الذين يعرفونهما أنه لايستغنى عنها ولن يستغنى عنها، وأنه لا يعيش إلا ما دامت هى حية، وأنه يعشق كل ما فيها حتى الرفض، وأنه لن يرتبط بغيرها ما قدر له أن يعيش، وأنه يكفيه منها بعض ما منحته فيما مضى ليستبقى نفسه لها طول عمره الباقى، وعلى الرغم من أن نبرة الصدق كانت واضحة جداً فى كل ما ينطق به إلا أن أحداً ممن استمع إليه لم يفهم أن يعيش إنسان بمثل هذه المشاعر دون أن يبذل بعض الجهد فى سبيل تحقيقها، ولكنه كان ـ كما ذكرنا ـ يقامر، وكان يعترف لخلصائه أنه يقامر بحياته من أجلها مع أنه لايملك هذه الحياة بعد ما استحوذت عليها منه.

وكانوا يعجبون، ولم يكن هناك قدر من العجب يمكنه أن يصف عجبهم من هذا المتفانى فى الحب دون أن يبذل أى جهد فى أن يعبر لمعشوقته بفعل حقيقى ولو كان متهوراً عن بعض هذه الصبابة، ولم يكن لهم ليعجبوا لو أنهم فهموا ما ذكرناه من أنه كان يعلن عن عزمه على المقامرة حتى من قبل أن يتوافر له ما يقامر به !! ولكنه كان كما فهمت هى دون غيرها يحترم المقامرة ويستعد لها ويوفيها حقها حتى من قبل أن يتمكن من الحصول على ما سوف يقامر به.

(٤)

أما هى فكانت تقامر به وهو فى يدها، بينما تتظاهر للناس أجمعين أنها لا تقامر به ؛ لأنها رفضت أن يكون فى يدها، بينما كان من الواضح لكل ذى

بصيرة أنه فـى يدها وفى قلبها وفى كل نـقطة من دمها وفى كل خليـة باقية من أعصابها على الرغم من كل ما بذلت فى سبيله جهدها من إنكار ورفض.

وكان الذين أتيـح لهم أن يتعمقوا البحـث فى علاقتيهما لايجـدون أنفسهم أكثر من حائرين من أن يحدث كل هذا الذى يرونـه بأعينهم ويسمعونه بآذانهم على هـذا النحو الـغريب ، ولكـنهم فى خضـم هذه الحيرة كـانوا متأكـدين من شيء واحد فقط هو أنـها لم تخلق إلا له، وأنه لم يخلـق إلا لها، ومع هذا كان هؤلاء جمـيعاً يتطـلعون أن تمتـد بهم الحياة حـتى يروا نهايـة لهذا الذى حـسبه بعضهم عبثا، وحسبه الآخرون عذابا، وحسبـته هى شيئا يتأرجح بين التشويش والتشويق... أما هو فكان يرى فى كل ما حدث نوعـاً من التكفير عن سيئاتهما قبل أن يلتقيا.

(١)

كانت إذا أرادت تـذوب رقة ... فلا تنطق إلا هـمسا، ولا تتكلـم إلا بالحب ولا تتحدث إلا عن ولائها للعشق وانتمائها لحبيبها، وكانت تفعل هذا عن رغبة حقيقية فى أن تفـعله، ولكنها كانت فى أغلب الأحيان تـظن أن هذا لايليق بها فإذا بها تنهى نفسها عن أن تبدأ فيـه، وكانت إذا وصلت إلى مرحلة متقدمة من هذه الرقـة ترتفع حتى لا يـصبح من المتصـور إعادتها إلى طبـيعتها البـشرية إلا بجـهد جهـيد، وكان سلـوكها فـى هذه الأحوال أقـرب إلى التسـامى منـه إلى الذوبان، فهى تستحيل من الجمود إلى حالة لايمكن وصفها وكأنها ذلك الخيال الذى لايمكن وصفه إلا على سبيل التقريب بأنه الروح الطائرة الموحية العطرة .

ومع هذا فإنهـا فى حياتها اليومـية كانت لاتكف عن إظهـار أقصى درجات التعاظم، ولـم يكن تعاظمها غروراً أبداً على الرغم من أن كثيرين ظنوه كذلك، ولكنها كانت فيما بينها وبين نفسـها تعلم حق العلم أن هذه الدرجات المفتعلة

من التعاظم كانت بمثابة الصور المقلوبة لإحساس عميق ودفين ومتجدد بالدونية دون أن يكون لها ذنب فى هذه الدونية، ولكنها لم تكن فى حكمة أبى العلاء المعرى لتنجى نفسها من الاتهام.. وإنما كانت تلجأ إلى التعاظم فى كل ما يمس صورتها الاجتماعية، ولكنها نادراً ما كانت تلجأ إليه فيما يمس صورتها العقلية، فقد أنعم الله عليها بعقل متقدم عن أقرانه من العقول، وشاء جل جلاله أن يحرمها مما كانت تتوق إليه من سند اجتماعى يتوازى مع تفوقها العقلى، ولهذا فقد كانت تلجأ إلى هذا التعويض فيما هى محتاجة إليه فيه.

(٢)

وكانت تحرص فيما يتعلق بنفسها على إبداء روح التعاظم والافتخار بالتعاظم الذى حال بينها وبين انتهاز الفرصة للإثراء بقبول عروض عمل فى الخارج بالآلاف المؤلفة، وكان المستمع إليها يصحح لها أن العمل فى الخارج لايهيىء الإثراء ولكنه يهيىء اليسر فحسب، ولكن ثقافتها الاجتماعية كانت أضعف من أن تفرق لها بين الدرجتين .. وظلت على هذا الزعم يوما بعد يوم حتى جاءت لحظة وجدها فيها زملاؤها وقد قبلت عرضاً بآلاف لاتتعدى أصابع اليد الواحدة، ولم يكن أحد منهم ولا ممن هم أدنى كفاءة منها ليقبل هذا العرض، وحين استنكروا عليها هذا القبول اعتذرت بأنها تفعل هذا لمجرد تغيير الجو، ولكن جو العظمة الذى كانت فرضته حول نفسها لم يسمح لها أن تستمر فى القبول بعد كل هذا الاستنكار الظاهر الذى قابلها به زملاؤها .. ومع أنها كانت فى أمس الحاجة إلى هذا القدر الضئيل من المال فإنها حرمت الرزق الحاضر بسبب تضخم مزاعمها عن الرزق الماضى، وظلت صاحبتنا على هذا النحو مهابة الجانب أن يعرض عليها ما هو دون أوهامها .. ومع أن الجميع

كانوا قد أيقنوا أن كل ما ترويه وَهْمٌ، فإنهم كانوا يدركون أيضا أنه وَهْمٌ مقدس عند صاحبتهم وأنه ليس من حقهم الاقتراب من هذا الوهم.

(٣)

وكانت تزعم أن بداخلها كثيراً من المشاعر الكفيلة بغمر مَنْ يحبها، ولكنها فيما بدا لصاحبنا كانت تستحوذ لنفسها على كثير من المطالب الكفيلة بغمر مَنْ يحبها إلى درجة إغراقه فى الديون والمشكلات، ولم تكن فى واقع الأمر تريد من محبها إلا أن يكون أقوى من الخيال، ولم تكن فيما تصرح به تقبل أن يكون أقل من أن تجتمع فيه كل طموحاتها بحيث يكون فى الوقت ذاته عاشقاً مولَّهًا بها، وخادماً أمينا عليها، وسيداً مشرفا لنفسه ولها، ومَصْرِفاً لايكف عن طبع البنكنوت، وعصا سحرية تحيل لها أوهامها إلى حقائق، وأحلامها إلى أوامر، وكانت تقنعه بأنها تستحق كل ذلك وأكثر من ذلك، وأنها تستحق هذا لذاتها لا لصفاتها، ولم تكن لتعترف أن الصفات هى التى تقدم الذات إلى المحب، وإنما كانت على عقيدة راسخة بأن ذاتها تتجاوز كل الصفات، وأنها تستحق الحب والعشق والوله والهيام حتى ولو لم تتألق لها صفات تثير العشق والحب والوله والهيام ، وكانت تختزل هذه المعانى فى قولها لحبيبها إنه ينبغى أن يحبها لأنها هى فلانة وكفى ! فإذا حاول أن يطلب منها أن تتحلى بصفات يوصف بها اسمها قالت إن اسمها فى حد ذاته أكبر من كل صفة، ولم يكن حبيبها قادراً على أن يفهم كيف يكون الاسم أكبر من كل الصفات، أما هى فكانت تظهر دوما أنها متيقنة تمام اليقين من أن اسمها هى بالذات أكبر من كل شىء ذى قيمة فى كل هذا الكون .

وحاول صاحبنا أن يقنعها بأن تعبر عن نفسها بالمقارنة بعظيمات التاريخ، ولكنها كانت تعتقد أنها أعظم من هؤلاء جميعا، لأن لكل واحدة منهن عيباً استطاعت هى تجاوزه، فهى أعظم من كليوباترا التى وقعت فى حب الرجال بينما هى لم تقع، وهى أعظم من امرأة فرعون؛ لأن تلك الزوجة الصالحة تخلت عن نصرة زوجها ولم تستطع السيطرة عليه بأفكارها الجديدة، وهى أعظم من مريم البتول؛ لأنها لم تسمح للشائعات بأن تنال منها، فإذا قيل لها ومن أدراك ؟ هبت كالعاصفة الهوجاء التى لاتبقى ولاتذر!، وهى أعظم من جان دارك؛ لأنها تؤدى وظائف الرجال دون أن ترتدى أزياءهم، وهى أعظم من صوفيا لورين؛ لأنها جاءت إلى الدنيا من زواج شرعى، وهى أعظم من أنديرا غاندى؛ لأنها صنعت مجدها بنفسها ولم ترث أباها فيه، وهى أعظم من بنت الشاطئ التى قبلت على نفسها أن تكون زوجة ثانية، وهى أعظم من جيهان السادات التى قبلت أن تتزوج رجلاً مطلقاً .... وهكذا .. وهكذا .

ومع كل هذه المقارنات التى كانت تنتهى فى ظنها لصالحها فقد كانت عاجزة على الدوام على أن تواجه أى موقف دون اللجوء إلى أهلها أو زملائها، كانت تبرر هذا اللجوء بأنه سنة الحياة وأنه من دونه لن تصل إلى شىء، ومع هذا فقد كانت تلعن المحسوبية فى كل مرة تلجأ إليها فيها، لكنها كانت أيضاً تعتز بأنها استطاعت تدبير المحسوبية المناسبة لكل موقف قابلها فى الحياة، وكانت تعلق على هذا المعنى بأن كثرة المعارف مفيدة، ولكنها لم تحاول فى يوم من الأيام أن تكون هى نفسها بمثابة الملجأ أو الملاذ الذى ينقذ أياً من الآخرين، وتنامت فيها القدرة على الأخذ والأخذ المستمر حتى أصبحت تتصور العطاء نوعاً من العار فى بعض الأحيان، ونوعا من الغفلة فى أحيان أخرى ولم يكن

هذا الخُلق الذى أصبح بمثابة سمتها البارزة من صفاتها الأصيلة، ولكنه تنامى فيها بعدما رزقها الله ترتيباً متقدماً بين أترابها فى مرحلة الدراسة، وكانت قد احتالت من أجل الوصول إليه حتى كادت تبذل فى سبيله نفسها كلها، واحتالت من أجل الحفاظ عليه حتى بذلت من أجل ذلك أعصابها كلها.

وعلى الرغم من بقائها فى موقع متقدم فإنها لم تقدم لنفسها ولا لمجتمعها ولا للأجيال التالية عليها ما ينبغى أن تقدمه مَنْ هى فى مثل موقعها، وظلت على مدى سنوات فى نفس نقطة البداية المتقدمة والدنيا تموج بالحركة من حولها حتى سبقها كل من كانوا تالين لها، وهى لا تزال تعيش فى وهم أنها كانت قد سبقتهم فى البداية، ولهذا فهى السابقة على كل الأحوال ، وهكذا باتت تقنع نفسها يوما بعد يوم بما ليس بالحقيقة، وقد تناست أن الحياة حياة، ولكنها كانت تعتقد أن من حقها إيقاف الصورة بطريقة «الفريز» على نحو ما تفعل فى مشاهدة شرائط الفيديو بالريموت كنترول .

(٥)

وصفها واحد ممن رأوها لوهلة عابرة بقوله إن كل جزء من أجزاء وجهها جميل بمفرده ، ولكن وجهها كله ينقصه الجمال، كانت لها عيون ساحرة بعض الشىء، وأنف رومانى، وشفتان دقيقتان، ووجنتان ملتهبتان، وجبهة عريضة، ولكن تعبيرها بوجهها كان دائماً مشدوداً إلى المجهول، وكانت عيناها فى أغلب الأوقات قلقتين وفيما تبقى من الأوقات كانتا أقرب إلى ذبول الاسترخاء منهما إلى نعسة الحوالم، وكان أنفها مشتعلا كأنه يخرج الدخان باستمرار ولو أنه كان لغيرها ممن رزقن نعمة الرضا لكان أكثر الرموز تعبيراً من أرفع معانى العزة والكرامة، ولكنه كان عاجزاً عن أن يشى بهذا المعنى، وعاجزاً

أيضا عن ألا يشى بمعنى الغضب والانفعال ، وكانت شفتاها ملتويتين تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، مع أنهما كانتا بدون ذلك الجهد المبذول فى الالتواء أقرب إلى الدقة الرقيقة والرقة الدقيقة، ولكنها كانت للأسف الشديد تجهد نفسها فى تشويه صورة وجهها، وكانت أبشع صورها حين تنفخ شدقيها وتقلب شفتيها إلى الداخل تعبيراً عن الاشمئزاز، فى هذه اللحظة كانت تبدو فى أكثر الصور إثارة للاشمئزاز بينما هى تريد أن تعبر عن الاشمئزاز، وكانت تظن نفسها أكبر من الاشمئزاز فإذا بالاشمئزاز نفسه يحيلها إلى صورة مشوهة منه .

وكانت تحب أن تبدو واثقة من نفسها، ولكن عينيها كانتا قادرتين على الكشف عن خوفها حتى بدون أن تقصد أو تدرى، وفضلاً عن ذلك فإن أسنانها المصطكة كانت تحاول أن تحبس تعبيرات الخوف حتى لا تخرج من فمها، ولكن وجنتيها سريعتى التلون كانتا قادرتين على الكشف عن مكنون نفسها بوضوح، وحين كانت تعرف من محدثيها أنهم اكتشفوا ذلك منها لم تكن تجد حرجاً فى أن تعترف، ولكنها كانت تختلق سببا آخر لهذا الخوف على حين لم يكن يهمهم إلا أن يستحوذوا منها على الإقرار بأنها كانت خائفة فحسب !

(٦)

كانت تتعطش للرفاهية، ولكنها كانت تحاول بكل ما أوتيت من قدرة على الإنكار أن تنفى عن نفسها وقوعها أسيرة لهذا التعطش .. وكان إنكارها المستمر كفيلا بأن يعطيها صورة الزاهدة فى الرفاه، ولكن إنكارها الشديد كان ينهار تماماً فى اللحظة قبل الأخيرة حين تجد أن قرار حبيبها قد يتجه إلى إلغاء برنامج الرفاهية أو تأجيله، وفى تلك اللحظة بالذات ـ وقد تكررت كثيراً ـ

كانت تقول لنفسها بصوت خافت: ولكـن ربما لاتأتينى الفرصة لهذه المتعة مرة أخرى .. وكان حـبيبها بنـبل شديد ينحـاز إلى قرار الرفاهـية فى اللحظـة ذاتها بعدما كان قد قرر مـن باب الاستجابة لسياستها الأولى أن يـؤجل الرفاهية إلى حينٍ آخر .

(٧)

كان صاحبنا يعتقد أن أصعب أوقات حياتها حين تعيش بعاشق واحد، فقد كانت تهـوى تجميع العاشقـين حول قلبها، وعلـى الرغم من أنها كانـت تفعل ذلك فـى الخفاء ودون أن يـعلم بـعضهم عـن بعض شـيئاً إلا أن حـديثهـا كان يكشف لـلمجربين منـهم عن هذا السر الدفـين- بسهولة شديـدة (وللأسف فإن صاحبنـا لـم يكن من المجربـين) ، فقد كانت تسـأل الأول لماذا لـم يفعل بـحياته مثلما فعل الثانى، وكانت تسأل الثانى لماذا لم يفعل بحياته مثلما فعل الأول ... وهكذا ... وكـان من السهـل على الأذكيـاء ممن وقعوا فـى عشقهـا أن يحددوا «الآخر» الذى شاركهم نفس الحقبة الزمنية من تذكر الأسئلة التى وجهتها إليهم فى ذلك الوقـت المحدد، كذلك كان من السـهل على عشاقهـا طُوال الأمد من أمثال صـاحبنا اكتشـاف أنها أوقعت جديـداً فى عشقهـا عندما يجدون أسـئلة جديدة عـن سلوك جديد أو عـن نمط من الحياة جـديد .. وعلى الرغـم من هذا كلـه فقد كانـت تحتفظ بـذاكرة قوية تـعى كل الآراء الـتى يبديـها العشـاق فى بعضهم .. وحدث لعاشقها الأخير أنه أراد أن يغيظها فى أحد عشاقها العابرين بآراء كانت تـتناقض مع آراء أخرى له فى عـاشق سابق فاذا بها تواجـهه بآرائه السابقة، ومع أنه كـان من السهل عليه أن يجد المخرج من الـتناقض الذى دفعه إليه حبه لإثارتـها فإنه فضل أن يصدمها بقـوله إنه يتعمد التقلـيل من كل ما قد تحبه حتى تظل دائماً أقل مما تبتغى أن تصور نفسها فيه أمامه !

(٨)

وفى تلك اللحظة انهارت صاحبتنا تماماً وأقسمت أنها لاتحب غير ما يفعله هو .. ولاتكره إلا ما ينتقده هو .. ولم يكن صاحبنا من السذاجة أو الغفلة بحيث يظهر لها أنه صدق ما أقسمت عليه، ولكنه مع ذلك أكد لها أنه يعرف ذلك تماماً من أخلاقها النبيلة، وكانت النتيجة أنها ازدادت قلقاً؛ لأنها كانت تحب لنفسها أن تبذل الجهد فى إثارته فاذا به يُظهر لها وبدون أى مجهود أنه صدقها، وإذا به يظهر لها أنه هو الذى يبذل الجهد فى إثارتها، وحين عبرت له عن هذا المعنى فى اليوم التالى سألها: وهل تعتقدين أن الحب شىء غير ذلك؟ وراعه منها أنها أجابته بقولها: إنها كانت تعتقد أن هذا هو الكره بعينه .. ولكنه مع ذلك استطاع على عجل أن يهدئ من روعها بقبلة عميقة جداً خيل إليه فيها أنه قد بذل من روحه بعض عمره بينما صاحبته مستسلمة تمام الاستسلام على غير عهدها معه فى قبلاتها البروتوكولية الطائرة ولم تكن فى حقيقة الأمر قد سمحت لغيره حتى بالقبلات البروتوكولية الطائرة.

وأفاق صاحبنا على صاحبته وهى تقول له إنها لم تذق طعم الحياة قبل هذه القبلة! فإذا به يجيبها بأنه كان يظن أنها ستقول إنها لم تذق طعم الحب قبلها .. ولكنها قالت له بكل استسلام: وكيف يذوق طعم الحب مَنْ لم يذق طعم الحياة ؟ وساعتها فقط أحس صاحبنا أنه ظلمها كثيراً جداً دون أن يدرى أنه كان يظلمها حين ظنها متعددة العشاق بينما كانت كالوثنيين تظن الأصنام آلهة، وتعبد أكثر من صنم فى وقت واحد دون أن تعرف معنى الألوهية ولا معنى العبادة !! ولربما بدأت الآن، والآن فقط، تعرف معنى العبادة .. ومعنى الحب أيضاً .

(١)

لم يكن يجد فيها بعض ذاته فحسب، ولكنه كان يجد فيها كثيراً جداً من ذاته، وإن لم يجد فيها **بالطبع** كل ذاته . كان يجد فيها طموحاً لا حدود له لكنه يستند إلى **أساس من الجد والاجتهاد** ...

كانت رغبتها فى الاتساع بمعارفها لاتقف عند حد، وإن كانت تظن نفسها غير قادرة على هذا التوسع فى المعرفة والمعارف،وكانت فى رغبتها قريبة إلى حد بعيد من الصورة التى تكونت عنه هو فى أذهان من عرفوه، ولكنها كانت تختلف عنه فى أنها لم تكن تعرف فى نفسها هذه القدرة، ولم تكن أيضاً تظن نفسها بهذه الصورة، فقد كانت تحصر هذه الرغبة فى أن تتعرف على الطرق التى أمامها فحسب، وكانت تظن أن معرفتها بهذه الطرق كفيلة بأن تعرف بقية ما خلق الله من طرق وطرائق .. ولكن صاحبها كان يؤكد لها أن معرفة الطرق لاتبدأ أبداً من الجدول الضيق، وإلا ما وصلت إلى المحيط الواسع إلا بعد زمن طويل، ولكنها تبدأ بالإحاطة من علٍ بالمحيط الواسع ثم الخلاص منه إلى

البحار فالبحيرات والأنهار والجداول، وكانت تصدقه لبعض الوقت ولكنها كانت تشك فيما أقنعها به حين كانت تفاجأ بمعرفته بالأجزاء الدقيقة فى موضوعات كثيرة جداً رغم منهجه الذى يبدو كأنه يقتصر على الإحاطة بالكليات من كل شىء فحسب، وكان ينبئها بأن هذا لم يأت إلا من أنه استوعب الكل ليصل إلى الجزء، وكانت تظن أن التعمق فى الجزء سيبعدها عن الكل، ولكنه كان يؤكد لها أنها لو تعمقت فى أكثر من جزء فستكتشف الكل بكل سهولة، وحين كانت تفعل هذا وتصل إلى ما وصلت إليه كانت تبدى لنفسها الندم على أنها لم تسلك هذا السبيل من وقت بعيد.

(٢)

وكانت تبدى له الندم على أنه لا يأخذ من حياته بعض الوقت ليقلدها كما تفعل هى حين تقلده، كانت تأخذ عليه أنه لايجاملها بأن يسلك سبيلها فى بعض الأوقات حتى يكونا شيئاً واحداً، وعبثا حاول أن يثبت لها أنه مضى أحيانا فى نفس السبيل الذى مضت فيه، وعبثا حاولت أن تثبت له أنها لن تمضى دائماً فى السبيل الذى هو ماضٍ فيه، ومع هذا كله فقد كانا يمضيان فى نفس الطريق، وكانت تظن أنها لو ابتعدت عنه فلن تمضى فى طريقه، وقد فاتها أنها مهما ابتعدت فإنها فى نفس الطريق لأن طريقه (الذى هو طريقها أيضا) كان أوسع بكثير من أن يضيق عليها.

كانت تجيد الاستماع وتجيد المقاطعة وتجيد التعليق، ولكنها كانت تحاول أن تجعل سماعها انتقائيا بحيث تستمع لما تريد أن تستمع إليه، وتأبى أن تستمع إلى ما لا تريد .. وحين كانت تقاطعه فإنها لم تكن تستفسر عن شىء فاته أن

يرويه، وإنما كانت تعبر عن رغبتها فى ألا تستمع إلى ما بدأ فيه من حديث فرعى أو جديد، كأنها لاتريد أن تثبت على نفسها أنها استمعت إليه.

(٣)

أما تعليقاتها فكانت صادقة جداً فى التعبير عن كل ما فى النفس الشريفة من تطلع إلى المثل العليا، ولكنها على الرغم من ذلك كله كانت لا تزال حيرى تماما بين كنه الصواب وكنه الخطأ، ولم تكن حتى قابلته قد عرفت مغزى القيم الإنسانية الكبرى: الحب والخير والجمال، وكانت شأن بعض الفئات المنعزلة من الشعوب السالفة لا تؤمن إلا بالصواب، وشأن بعض الفلاسفة ضيقى الأفق لا تحتكم إلا للعقل، وكان يأخذ بيديها فى رفق لتفهم معنى الحق ومعنى الخير ومعنى الجمال، وكانت تتمتع بفكرة سريعة عن الجوانب المختلفة التى تتبدى بها كل قيمة من الثلاث فى حياتنا الدنيا، ولكنها لم تكن تدرى أن الحياة كلها ليست إلا صراعا من أجل إمكانية نجاح هذه القيم فى السيطرة على الحياة وعلى الأحياء، وكانت كثيرا ما تسأل عن الصواب والخطأ فى كثير من التصرفات فلا يجيبها معشوقها إلا بأن السؤال نفسه خارج عن الموضوع، وأن الأولى أن يكون السؤال عن قيمة أخرى .. ولم تزل به (ولا نقول لم يزل بها) حتى استطاعت أن تتشرب نظرته للحياة ، وهى نظرة الذين مَنَّ الله عليهم بالقدرة على السعادة بالحق وبالخير وبالجمال، ووصلت فى فترة قصيرة إلى السعادة بهذه السعادات الجديدة التى لم تكن قد عرفتها من قبل، وكانت لغرامها بهذه السعادة أكثر حرصاً منه على تدبر كل ما يقابلها فى ظلال فهمها الجديد.

(٤)

ولكنها على الـرغم من ذلك كانت تفاجأ بنفسها وقـد خضعت فى لحظات كثيرة لهواجس ووساوس تصور لها أنه لابد من الاحتكام إلى العقل .. وكانت فى تلك اللحظات أصدق مَـثَـل للذين لا يخطئون إلا حين يظنون أنهم وصلوا إلى الصواب فـيصيبهم الـشك وقد أوشكوا علـى اليقين، ولولا أن اللـه حباها عاطفة قوية ما أمكن علاجُها من هذه اللحظات القاسية، وكان فضل الله عليها عظـيما أن هـيأ لهـا موقفـا انتصـرت فيه نـفسهـا العلـيا علـى وساوس العـقل وهواجسه الدنيا، ويومـها قالت لنفسها بعد لحظة سعادة عـميقة: إنها أخطأت وعملت شـيئاً صوابا ... ولم يكـن عاشقها بعد ذلـك بقادر على أن يبعـد عنها وساوس العـقل المجرد إلا بأن يدعـوها إلى أن تخطئ وتـعمل شيئـاً صواباً ... وعند ذاك فقط كـانت تتحول إلى الطبيعـة الملائكية، وتنضو عن نفـسها أخطاء العقل الضيق لتفعل الصواب المطلق.

(١)

كان يبحث عنها منذ زمن بعيد، وكـان كلما وجدها أو خيل إليه أنه وجدها انتابته السعادة، ولكنه كان يفيق من سعادته ليجد أنه وجد السراب فحسبه ماء.. ولم يكن اكتـشافه للسراب يأخذ منـه إلا سويعات قليلة جدا، ولـهذا فإنه حين أفضى إلى نفسه أنه وجدها هذه المرة لم يكـن يبالغ، ولم يكن يخدع نفسه، فقد أقنعته نفسه هذه المرة أنها ما دامت قد تقبلتها طيلة كل هذه الأيام فإنها هى تلك التى يبحث عنها، ولكن نفسه الأخرى كـانت تسول له الشك وتدفعه إلى الريبة وتثير فـى وجه نفسه الأولى الاسـتفهامات والاستـنكارات والتعجـبات، ولكن نفسه الأولى تصمد أمام نـفسه الثانية، وتزعم أنها هى الأنا العليـا، فتتقبل نفسه الأخرى هـذا الزعم إلـى حين، وتنـبهه إلى أنـه مخدوع، أو قـد يكون كـذلك، فيقول لـها إذا كانت الصورة شـبيهة بالأصل إلـى الحد الذى يجعلـنى أنخدع طوال هذا الوقت فمرحبا بالانخداع، فتجيبه نفسه الأخرى أنه انقلب رأسا على

عقب، وأنه لا يجوز للذين يقفون على رءوسهم أن يصدروا أحكاما تتوقف عليها حيواتهم، فيسأل هو كيف أقف على رأسى؟ فتجيبه نفسه الأخرى التى يراها هو الآن أمارة بالسوء ألا ترى أنك تشبِّه الأصل بالصورة بدلا من أن تشبِّه الصورة بالأصل؟ ألم تنتبه إلى عبارتك السابقة!!! ويعود ليتذكر أنه قال إن تلك التى وجدها الآن لحما ودما هى الأقرب إلى الصورة التى رسمها من زمن بعيد وبحث عنها، ويتشابه الأمر عليه مرة بعد أخرى! ويقع صاحبنا فى حيرة شديدة أهو يبحث فى الواقع عن صورة فى الخيال؟ هل أصبح حقا يقف على رأسه كما تقول نفسه الأخرى؟ ولكنه لا يشعر بالدوار الآن!! هل كان يشعر به من قبل، نعم! أفكان وقوفه على قدميه داعيا إلى الدوار ثم أصبح وقوفه على رأسه سببا للاستقرار؟!.

هل تكون الحقيقة الغائبة عنا منذ زمن طويل أنه يجب علينا إذا أردنا الاستقرار أن نقف على رءوسنا، أهذا هذيان أم أنه عين العقل؟ أيكون الأمر شبيها بالاعتقاد القديم الذى ثبت أنه خطأ بينما الصواب أن الأرض تدور؟

هل لابد له من الوقوف على رأسه؟ أم إنه يمكن له أن يقف على قدميه ويصل أيضا إلى الصواب؟ هل الصواب أن يكون الأصل صورة طبق الأصل من الصورة؟ أم أن تكون الصورة صورة طبق الأصل من الأصل؟

(٢)

وكانت نفسه هى الأخرى تشفق عليه من هذا التفكير الذى قاده إلى الشرود فتبسط الأمر له وتقول إنه مادام الشىء طبق الأصل من شىء آخر فلا فرق بين

الأصل والصورة ... هل هذا حقيقى؟ يسأل نفسه، ولكنه لا يجد للصورة التى فى ذهنه نفس اللذة التى يجدها فى حديث محبوبته، وتجيبه نفسه الأخرى أن هذه اللذة التى يجدها فى حديث محبوبته لم توجد إلا بفضل الصورة التى فى ذهنه، وتؤكد له نفسه الأخرى وهو يصدقها أن اللذة التى يجدها ناشئة من فعل الصورة لا من فعل المحبوبة.

ولكنه يعود ليسأل نفسه ولكنى لم أكن أجد هذه اللذة من قبل، فتجيبه نفسه الأخرى لأنك كنت لا تزال تصفها، هل أحسست للطعام مذاقا قبل أن يكتمل طهيه؟ كذلك الأصل الذى وجدته لم يكن ليبعث فيك اللذة لو لم تكن قد انتهيت من رسم صورته فى ذهنك، وربما مرت بك أصول أخرى أكثر قدرة على إثارة غيرك، ولكنها لم تكن لتطابق الصورة الذهنية التى رسمتها؛ لأنه لم تكن هناك صورة ذهنية بعد، وإنما كان هناك مشروع، فلما اكتمل المشروع وجد نفسه فى الأصل الذى قابله.

(٣)

ولكنه لا يكاد يصدق، فهو سعيد جدا بما وجد، وحريص على ألا يفقد هذه السعادة بأى نوع من التفلسف، ولكن فتاته التى وجدها لا تفتأ تبعث فيه القدرة على التفلسف، وهو سعيد بتلك الشرارات التى يطلقها كيانها على عقله، وبتلك الشرارات التى يطلقها عقله على عقلها، وهى سعيدة بسعادته، وهو سعيد بسعادتها، ولكن سعادته تبدو كأنها تفوق سعادتها أضعافا مضاعفة، ولكنه يحس فى صوتها بسعادة تفوق تلك التى ينبئ عنها حديثها، ويحس

بخفقان قلبها من بُعد بأكثر مما يحس بخفقان قلبه، ويحس بها وهى تطير من أمامه رغم أنها تزعم له أنها مخلدة إلى الأرض!

ومع هذا فإنه مشفق عليها من حالة عدم التصديق التى تحب أن تتقمصها، فهى لا تتقمصها بوعيها، ولكنها تتخذ منها ثيابا مفصلة على قدر أعضائها، ودروعا واقية لصدرها الحنون، وقفازات تحمى أناملها من الإحساس، وقيودا تمنع يديها من الحركة فى اتجاه الحب، ولكنها تكاد تنزع عن نفسها دروعها كل يوم بأن تجدد هذه الدروع تماما كما يفعل الجلد البشرى بطبقته الحرشفية حين ينضوها بعد أن أُعدت أخرى تحل محلها، وهكذا كانت فتاته تجدد ظاهر نفسها أو هكذا تجدد دروعها.. ولكن نفسها الباطنة لا تزال تشتعل حتى تلهب صاحبنا من دون أن تلهب صاحبتها، كأنها عصارة المعدة التى تهضم الطعام ولا تهضم المعدة.

ومع هذا فإن المحب سعيد بأحوال محبوبته هذه، يزداد شوقه ويتجدد، يتعجل الوصول لكنه يسعد بالطريق، وتحدثه نفسه الأخرى أن النعيم قد يكون فى الطريق لا فى نهايته، وهو لا يصدق نفسه الأخرى لأنه يعتقد أن الطريق وسيلة لا غاية، ونفسه الأخرى لا تريد له أن يفصل بين الوسائل والغايات لأنها متأكدة من أنه سوف يعجز عن تحديد الفرق بينهما كما عجز عن تمييز الأصل من الصورة! أو بعد ما وجد أصل الصورة... وهو الصواب!!

(٤)

كانت ذكية إلى أبعد الحدود، وكانت قادرة على التعبير عن هذا الذكاء،

ولكن اللفظ كان يخونها في كلمة من كل عشرين، وكان يسعفها باللفظ الصواب؛ لأنه كان يستوعب حديثها جدا، وكان يستوعب ثقافتها بنفس القدر، وكان بالإضافة إلى هذا يمتلك ناصية اللغة الخاصة بعلومها، ولأنها كانت عظيمة فقد كانت متواضعة، ولأنها كانت متواضعة فإنها كانت تقر له بالصواب في تلقائية شديدة، وكان هذا الموقف المتكرر بينهما كفيلا بإذابة الصورة الشمعية التي كانت تحرص على تقديم نفسها فيها اعتزازا بنفسها وضنا بها على أي إنسان كائنا من كان.

كانت تنتقل من موضوع إلى موضوع، فتبدع في وصف الواقع وفي وصف المجاز، ولكنها كانت بحاجة إلى لمحاته الذكية التي تحيل المجاز واقعا، وتعيد صياغة المجاز، ولأنها كانت تبحث عن هذه اللمحات منذ زمن بعيد فإن عقليها الواعي وغير الواعي كانا يعبران في وقت واحد عن الإعجاب بالفكرة التي صدرت عن محبها في لمح البصر، ولكنها كانت تستدرك لتقول له إن إعجابها بأفكاره لا يعني أنها معجبة به، ولأنها كانت متواضعة بحكم عظمتها الحقيقية، فإنها لم تكن تجادل بهدف التحفظ أو الاعتراض على فكرة جيدة حين يبديها، حتى وإن كان الجدال سهلا عليها، كانت عظمتها التي تراكمت في داخلياتها كفيلة بأن تمنعها من الانصياع لغباء الغرور.. وهكذا كان الغباء يتوارى ليفسح المجال للذكاء الجميل.

كانت تأبى على صاحبها الاعتراف بأنها تحبه، وكان يحتال عليها في أن يعترف لها بأنه يحبها، ولكنها كانت مصممة على تعطيل مفتاح الاعتراف بالحب، بل كانت حريصة على نزع «الثرموستات» الذي ولدت به، ولكنها لم تكن تدري أن هناك «ثرموستات» ضخما و«ثرموستات» دقيقا، وأنها وإن كانت تستطيع نزع «الثرموستات» الدقيق الذي يقيس حرارة العاطفة حتى درجة

عشرة، فإنها لا تملك تعطيل الترموستات الأكبر الذى يقيس حرارة العاطفة حتى درجة مائة، وذهبت تسأل عن السبب فى عجزها عن تعطيل «الترموستات» الأكبر، وقيل لها إن شاشات العرض الخاصة به متعددة، وقيل لها إن هذه الشاشات يستحيل تعطيلها إلا فى حالة واحدة، هى الموت الأكبر.

(٥)

ولم يكن عنادها يسمح لها بأن تتخلى عن الحياة، لمجرد الرغبة فى التخلى عن الحب، لم يكن عنادها قد وصل إلى هذه الدرجة من الجنون؛ لأنه كان عنادا عاقلا، ولأنها كانت لاتزال أعقل العاقلات، مع أن بعض اللغات لا تعترف بوجود كلمة العاقلات من الأصل.

وذهبت إلى طبيب القلب، تسأله وسيلة لتثبيت سرعة القلب حتى لا تظهر نبضاته المسرعة ما تريد إخفاءه من علامات الحب، وتعجب الطبيب لقولها ولكنه كان واسع الأفق، فعز عليه أن تفكر من تملك جمالها ورشاقتها ومظهرها الجميل،وأسلوبها الراقى بهذا الأسلوب الساذج ، وسألها كيف تتصورين ياسيدتى أن يكون هذا بالإمكان؟ وقالت له فى هدوء شديد: إنى أريد جهازا كذلك الذى يسمونه «مثبت السرعة»، ويركبونه فى السيارات الفاخرة، حتى لا ترتكب مخالفات السرعة ويرصدها «الرادار».. عندئذ قال لها الطبيب: إن هذا ممكن يا سيدتى!!

واستبشرت وظنت أن الحياة يمكن أن تخضع لمنطقها الذى كانت تعتز به وتدافع عنه وتعتقد فيه.. ولكن الطبيب أردف يقول: بشرط أن نستأصل المنظم

الطبيعى الذى فى قلبك ثم نركب جهازا لتنظيم ضربات القلب من ذى السرعة الثابتة، وأخذت تستفسر حتى علمت أن هذا المنظم الصناعى يدار ببطارية كهربية يتم تبديلها كل عشر سنوات، وأن مخاطر تركيبه ليست بالشىء الذى يذكر، صحيح أن طبيبها أعلن لها فى صراحة ووضوح أنه لن يتولى إجراء مثل هذه العملية لها، لأنها غير أخلاقية فى نظره، ولكنها كانت تمنى نفسها بأن تجد مَنْ يقبل القيام بهذه العملية على نحو ما يجد الناس من الأطباء مَنْ يقوم بإجراء عمليات الإجهاض.

(٦)

ونامت ليلتها تقرأ فى كتيب صغير عن أنواع أجهزة تنظيم ضربات القلب، فوجدت أن من عيوب هذا الجهاز «مثبت السرعة»، إذا كان من ذوى السرعة الثابتة، أنه قد لا يلبى احتياجات المريض عند صعود السلالم مثلا، أو بذل الجهد، ووجدت أن هناك أنواعا من منظمات ضربات القلب قادرة على إتاحة الفرصة لتنظيم ضربات القلب سرعة وإبطاء.. وذهبت فى اليوم التالى إلى الطبيب، وهى فى غاية البشر والتهلل والسعادة، كأنها وجدت كنزا، ولشدّ ما كانت دهشتها حين أنبأها الطبيب وهو فى غاية النشوة بأن هذه الأنواع كفيلة بأن تظهر انفعالاتها وحبها كقلبها الذى أرادت نزع منظمه الطبيعى!!

وكان يوما من أشد أيامها إيلاما لعقلها، وإتعاسا لنفسيتها!! ووجدت أن منطقها قد أصيب بالضربة القاتلة من حيث لا تدرى، وباتت ليلتها تبكى ابنها الوحيد: وكان اسمه: منطق، كما لم تبك أم ابنا لها من قبل.

ولكنها كانت عنيدة، وسولت لها نفسها أن الشاشات الأخرى قد تكون أكثر قابلية للتحكم فى هذا القلب الذى لا علاج لصدق انفعاله، وأضاعت من عمرها أسابيع تتجادل فيها مع الأطباء على اختلاف تخصصاتهم، وهى تمنى نفسها بأنها سوف تقابل اختصاصيا قادرا على إيقاف انفعال الحاسة عندما تريد، ولكنها لم تجد حتى مَنْ يستسيغ مجرد الفكرة!.

(٧)

وقررت أن تدرس الطب بنفسها لعلها تستطيع أن تستخرج من نصوصه ما لم يصل إليه غيرها.. وكانت ثقتها بعقلها تساعدها على أن تمضى فى هذه الفكرة بنجاح، ولم لا.. ألم يكن العقاد ملما بكثير جدا من الأمراض وتشخيصها وعلاجها؟.

واجتهدت فى دراسة الطب بينها وبين نفسها، وكانت تضع لنفسها بمعاونة أصدقائها من أساتذة الطب برنامجا جميلا للقراءة والاستيعاب وتقييم النفس بالامتحانات، وكانت كل هذه الكتب بما فيها كتب تقييم النفس متاحة فى مدينتها الكبيرة وبأسعار معقولة!.

ودرست فى علوم التشريح كتبا كثيرة، وكان الأمر بالنسبة لها أشبه بمن عرفت باريس، ومع ذلك لاتعرف دقائق شوارعها ، أو بمن تعرف لندن، ولكنها لا تعرف ميادينها وأحياءها .. ثم درست علم وظائف الأعضاء، ووجدت نفسها تفهم للمرة الأولى كيف أن هذا العضو مصمم هكذا ليقوم بوظيفة ما.

وبلـغت فى دراسـتها لـعلم وظـائف الأعضـاء فرعا مـن هذا العـلم يتـناول «الجهاز العصـبى التلقائى»، وكانت تعـجب من هذه التسمية، ولكـنها بعد أول صفحتين مـن هذا الكتاب أغلقت هذا الـكتاب، وقد وصلت إلى الحقـيقة التى أفنت مـا مضى من عمـرها حتى تصـل إليها.. ولأنـها كانت متـواضعة، ولأن تواضعهـا كان فى إطار العظمـة، فإنها قامت إلى التـليفون لتقول لـلرجل الذى أحبها إنها لا تملك أن تنكر أنها تحبه!!.

(٨)

هكذا كان صاحبنا قد وصل إلى أن محبوبـته قد اقتنعت بالحب واعترفت به بعد جـدال عقلى اسـتمر سنـتين، ولكنـها لا تزال ترفـض أن يكون لهـذا الحب مدلول يخرج به من الـتجريد إلى التجسيد، فلم تكن تـرفض الارتباط فحسب، لكنها كانت ترفض الزواج والبيت الواحد، وكانت بالتالى ترفض اللقاء، كانت تعتقد أن الحـب لابد له لكى يبقى أن يـظل فكرة متجردة مجـردة، ولأنها كانت تحب الحب من قبل أن تقع فيه، فإنها كانت تريد لهذا الحب أن يظل كما هو فى ذهنـها، ولم يكـن الحب الذى فـى خيالهـا يتعـدى ذلك الذى فـى ذهنها، فـقد تصورته على نحـو ما فكرت فيه، وفكرت فيه على نحو مـا تصورته، ولم يكن عندهـا أدنى استعداد لأن تـتخيله فى صـورة غير صورته الـتى فى ذهنهـا والتى فرضتها على خيالها كذلك.

وكانـت تعتقـد أن استبـقاء العذريـة نوع من التـسامى الـذى لابد منه حـتى يكتمل الحب، وكان حبيبها يلجأ إلى حكمة شكسبير الخالدة فى أن الخلاص من العذرية هو الذى يخـلق عذريات جديدة، فى حين أن استبقاءهـا لا يـولّـد هذه

العذريات، ولم تكن تستطيع الرد على هذه الفكرة ولكنها لم تكن ترى نفسها ملزمة بها، فما الذى يضطرها دون غيرها أن تضحى؟ فإذا قيل لها إن كل بنات جنسها يضحين، أجابت سائلة عما يضطرها أن تضحى شأن غيرها وهن يُضحين؟ وهكذا كانت تتهرب بالمنطق وهى مدركة أنها تتهرب، وكانت تغالط وهى مدركة أنها تغالط، ولكنها كانت تفعل ذلك؛ لأنه خير عندها من أن تفعل الصواب فتقبل الزواج.

(٩)

كان صاحبنا يبحث عن مخرج يتيح له اقتحام حصن أفكارها الخاطئة عن الحب، وحدَّث نفسه أنه إذا كان قد فشل فى إقناعها بالمبدأ، فإنه قادر على أن يقنعها من خلال الاستثناء، وتصور نفسه ساعتها وقد فتح فى هذا الحصن ثغرة ينفذ منها الضوء الكفيل بتبديد ظلمات الإدراك الخاطئ الناشئ عن انعدام التصور.. ولكنه كان يجد نفسه أمام رغبة عارمة فى إبقاء كل شىء على ماهو عليه حتى ولو كان فى هذا الإبقاء تدمير للشىء نفسه.

ولكن القدر يحل للناس مشكلاتهم بحلول شائقة، كما تحل الطبيعة مشكلاتها بحلول رشيقة.. فها هى ذى المحبوبة تسأل نفسها ذات يوم بصوت عال عن سر هذا الاندفاع الذى تجده فى بنات جنسها نحو تجسيد العواطف المجردة على هذا النحو الذى لا تجده فى نفسها! ويلتقط المحب الخيط لينبئها بكل اليقين عن الفارق بين التليفونات المتصلة بالسنترالات القديمة، وتلك المتصلة بالسنترالات الإلكترونية.. وكيف يتناول الإنسان التليفون الإلكترونى فيجد ما نسميه بالحرارة متصلة كفيلة بأن تستقبل طلباته وتجيبه عليها (بالرفض أو الإيجاب) بمجرد الانتهاء من الطلب، على حين تتأبى عليه التليفونات

المتصلة بسنترالات قديمة الطراز فلا تتهيأ لقبول طلبه إلا بعد دقيقة، ولا تجيبه إلا بعد دقيقة أخرى، ولا تعود لتتهيأ للطلب الآخر إلا بعد وقت آخر.. وهكذا.

وكانت صاحبتنا تبحث عن نفسها فى هذه الصورة، وكان أكثر ما كان يزعجها أن تكون أقل حرارة من غيرها!! ولم تشأ أن تعبر عن ذلك حتى لا تفتح الباب أمام الآخر (مهما يكن) ليوجه لها مثل هذا الانتقاد القاسى، ولكنها كانت تتململ وهى تبحث عن نفسها فى هذه الصورة المكتملة التى ساقها لها حبيبها ليشخص لها موقفها من الحب!

(١٠)

وحين اطمأن صاحبنا «الشرير» ـ كما كانت تدلله ـ إلى أنها عجزت عن نقل الصورة من عالم المجاز إلى عالم الحقيقة، أخبرها وهو سعيد بأن مشكلتها تكمن فى «السنترال» نفسه، لا فى «آلة» التليفون، وأن عقلها هو ذلك السنترال، وأنه لابد من أن تدخل على شبكات الاتصال فى العقل بعض الميكانزمات الحديثة (بالنسبة لها) فى أداء وظيفته الاتصالية.

وهكذا بدا لصاحبتنا أن تقتنع بهذا الذى كانت تظنه حتى يومين فقط نوعا من الهراء الذى كانت تعترف بأنه قوى وجذاب ومنطقى، ولكنها لا تريد أن تتقبله على أنه أكثر من هراء!!

وحين لم يكن هناك بد أمام المحب إلا أن يقتحم هذه الثغرة التى توصل إليها بعد عناء شديد، فإنه كان يخشى أن تنغلق عليه الصخرة فيصبح هو الآخر أسيرا لهذا الحصن الذى يحاول اقتحامه!

وظل صاحبنا مترددا غاية التردد وهو يحاول إقناع نفسه بأن الثغرة التى تتيح

له الدخـول ستتيـح له الخروج بكـل تأكيد، ولـكنه كان يـخشى من قـوة المجال المغناطيسى داخل الحصن نفسه أن تجتذبه ليظل واقعا تحت تأثيرها أبد الآبدين.

وهكذا انتقلت المشكلة منها إليه! وأصبح بالفعل يخشى ما كان يدفعها إليه!

وأصبح يقدم رِجلا ويؤخر أخرى.

ولم يـفت هذا بالـطبع عـلى المحبوبـة التى كـانت من الـذكاء بحيـث تدرك طبيعتى الإقبال والانسحاب مهما تغلفتا بإطارات مغايرة.

(١١)

ولأول مرة بدأت صاحـبتنا تشجـع حبيبها علـى اقتحام الحصن.. ولـكنه من ناحية أخـرى كان قد انقلب خائـفا من الانطلاق فى هذا الاتجـاه، وهو الذى لم يعهد فى نفسه إلا الجسارة!

كان يريد منها وعدا بـألا تستأثر به، بينما هو يتمنى أن تـستأثر به، وكان يريد منها أن تـترك له الفرصة لـيعود، بينمـا العودة فى يقيـنه تمثل قمة الـفشل، وكان يريد من نفسه أن تتهيأ للدوران، بينما كانت نفسه لا تريد إلا الخط المستقيم.

وكان يريد أن يصل إلى السر الذى يحول محيط الدائرة إلى خط مستقيم من دون أن يقطع تـواصل الدائرة، وتوصل بعد بـحث وتفكير طويـلين إلى أن هذا هو المستحيل بعينه!

ولكنه وهو فى سبـيله إلى هذه النتيجة، أدرك أن كل محـيط لكل دائرة ليس إلا خطا مستقيما استحال برشاقة لـيصبح محيطا لدائرة.. وحين كان قد أوشك على الوصول إلى هذه الحقيقة كـان سعيه هو الآخر قد صاغ دائرة لا يدرى أين طرفاها!!

(١)

كانت سريعة الغضب، وكانت فى غضبها أقرب إلى الافتعال وأبعد عن الانفعال، فهى تسمح بالتجاوز ثم تلوم عليه، وتبدأ المزاح ثم لا تلبث أن تنصرف عنه، وتفجر النقاش ثم تنسحب منه، وهى فى كل هذه الأحوال غضبى، وغضبى بشدة، دون أن يكون هناك أدنى مبرر لهذا الغضب إلا الافتعال.

أما حين يكون الغضب مدعاة للتعبير عن الانفعال الحقيقى، فإن عقلها قادر على أن يسيطر على عواطفها بحيث تبدو قوية أمام ما من شأنه أن يستفزها أو أن يثيرها، أو أن يستدعى غضبها على أقل تقدير.

على هذا النحو كانت تغضب حين تريد، وكانت تمتنع عن الغضب حين يُراد لها أو بها أن تغضب وحين يُتوقع منها الغضب، لكنها كانت عندما تغضب سريعة فى التعبير عن هذه الرغبة، حادة فى التعبير عنها، مثابرة على التأكيد عليها، وبعد ذلك كله كانت صعبة الارتداد عن غضبتها.

وكانت فى غضبها نموذجا بارزا لغضب هادر لا يبقى ولا يذر، لا يلين ولا يرتد، لا يهادن ولا يتهادن، حتى إن الغضبة المضرية التى يحكون عنها كانت تتوارى أمام غضبها حتى لا تغضبها.

ولكن نفسها المتعقلة، كانت قادرة على أن توقف هذا الغضب عند لحظة معينة، فقد كانت المنطقية المسيطرة على هذه النفس بمثابة الصمام الذى يحميها من أن تصدق نفسها فى النهاية.

وعلى هذا النحو كانت تجد لحظة ما ينتهى عندها غضبها لتبدأ حالة الرضا والتراضى التى تتسع للناس وللأفكار والمعتقدات جميعا.

(٢)

ولم يكن غضبها ـ على الرغم من سرعته ـ كثير الحدوث، ولم يكن بالشىء النادر، ولكنه كان أقرب إلى ما يوصف فى اللغة الإنجليزية بأنه ليس بالشىء النادر، وكان شبيها بالزلزال، يأتى فى لحظة ما ولا يستمر طويلا حتى إن كانت له توابع، ولا يمكن التنبؤ به على وجه الدقة، ولكنه كفيل بأن يحمى الأرض نفسها من أن تنفجر كلها بفعل تزايد الطاقة فى داخلها، فهو ظاهرة صحية وإن بدت قاسية ومرة، وهو رحمة من الله وإن بدا عذابا، وهو قابل للتكرار، وإن كان غير قابل للتنبؤ الدقيق، وهو يتبدى فى صور شتى، وإن كان الطابع واحدا، وهو يحدث بالليل كما يحدث بالنهار، وهو يحيل الهدوء قلقا، ولكنه يترك للناس مساحة أكبر من الهدوء حين يطمئنون على كوكبهم الذى تخلص من شحنة زائدة كانت كفيلة بتفجير الكوكب نفسه ومن عليه وما عليه بالطبع.

هكذا كان غضبها أقرب إلى طبيعة الزلزال حيث الاهتزاز الشديد، وأبعد ما يكون عن غضب صويحباتها الذى كان كغضب البراكين تقذف الحمم الملتهبة من حين إلى آخر، أما غضبها فلم يكن فيه من حمم البراكين ولا حماقتها أى قدر، إنما هو طاقة زائدة تتبدى على هذا النحو الذى هو شديد، وهو رقيق فى الوقت ذاته، وهو كفيل بالتدمير، ولكنه لا يدمر أى شىء ولا كل شىء، وإنما يكتفى بتدمير ما لابد له من تدميره بحكم قوته وضعف الشىء!!

وكان فى هذه الخاصية من خاصيات غضبها سر من أسرار روعة ملحمة حياتها، فقد نجحت بهذا الغضب فى أن تتخلص طيلة حياتها من كثير من العشوائيات التى سمحت هى نفسها بوجودها فى الزمن الخطأ، وأن تختبر مدى صلابة كثير من المعانى التى كانت تود الاطمئنان إلى صواب حكمها عليها.

(٣)

ولكنها رغم ذلك كله تعانى من معالجة بعض آثار هذا الغضب على شعورها الرقيق، ولم تكن تنكر أنه يغير مزاجها بعض الشىء، وأنه يتعب أعصابها نوعا ما، وأنه يهد قواها البدنية إلى حدود متفاوتة، وأنه يقطع عليها فى كثير من الأحايين سباحتها فى ملكوت الله الواسع.

ولكنها كانت تؤمن بأن لكل علاج مضاعفاته الجانبية، بل كانت تؤمن أكثر من ذلك بأن العلاج لا يصل إلى غايته إلا إذا وصلت مضاعفاته الجانبية إلى غاياتها.

ولهذا السبب كانت حريصة كل الحرص على ألا تتنازل عن قدرتها على افتعال الغضب حتى مع نفسها، وحين وصلت نفسها إلى غاية ما تتمناه كل نفس من الصفاء والنقاء والهدوء والرضا والسلام، فإنها لم تشأ أن تفرط فى هذه القدرة.

وكان عقلها يحدثها بأن استبقاء القدرة على افتعال الغضب قد ينقص من قدر سعادتها بالصفاء والنقاء والهدوء والرضا والسلام، ولكن نفسها ـ وكانت لحسن حظها أذكى من عقلها ـ كانت تتأبى الانصياع لهذا العقل المتزن الراجح، وكانت توثر أن تحتفظ بهذه القدرة.

وحين دار الصراع ذات يوم بين نفسها وعقلها، واتهم عقلها نفسها بأنها تسعى إلى الاستسلام، غضبت نفسها غضبا شديدًا من هذا العقل الذى كانت تسميه بالحارس، وقالت له إنه يبدو أنه أصبح فى حاجة إلى الاستبدال!

ولم يكن بد أمام العقل إلا أن يستسلم هو ليفتدى نفسها التى كانت فى حاجة إلى الاستسلام.

ولكن نفسها أبت على هذا العقل أن يستسلم، لأنها كانت ترى أن الاستسلام من حقها هى لا من حقه هو.

وبعد صراع طويل قَبِلَ العقل أن يستسلم هو على ألا تستسلم النفس.. ولكن حنان النفس المؤمنة التقية النقية كان أقوى من أن يقبل الالتزام بهذا الوعد، خاصة بعد أن وجدت اليقين، وحينذاك اكتشفت أن عقلها لم يستسلم إلا لنفسها، وأن نفسها لم تستسلم إلا لعقلها، وأن صراعها لم يكن إلا نوعا من العناق القوى.

كان رأيه قد استـقر على أن يقاطعها أو أن يـفارقها على الأقل لفـترة طويلة، فقد كانت قد بلغت منتهى قدرتها على إصـابته باليأس منها، فهو يحادثها فيجد صدى تفكيره فى حـديثها، ويجد صدى حديثه فى تفكيـرها، ويجدها أقرب ما تكون إليه، وتقترب منه حتى لا يصبح بينهما إلا الاتحاد، لكنها فى نفس اللحظة التى يـبلغان فيـها الذروة، تفاجـئه بأن تبتعـد مرة واحدة، وليتـها كانت تتـباعد بالتدريج، إنما كانت تعمد إلى الفرار المتعجل.

وكان حائرا فى قـدرتها على هذا الفرار المـتعجل، ولكنه كان أكـثر حيرة فى بحثه عـن القوة التى تمكنـها من هذه القدرة عـلى هذا النحو، فقـد كانت قوة لا حدود لها، ولم يـكن يعنيه مدى هذه الحـدود، ولكنه كان فى غاية الـتعجب من غياب منبعـها عن ناظريه وفكره، فهو لا يـجد هذا المنبع الذى يزود حبيـبته بكل هذه القوة الـقادرة على أن تجعلـها تنسحب حين تـكون روحها قد أقبـلت على الحب، وحـين تكـون نفـسهـا قد اسـتسلـمت لـهذا الحـب، وكان يـبحـث فى الميتافيزيقيات فـلا يجد ما يمكن أن يكون سببا ، ثم يعود إلى الفـيزيقيات نفسها فلا يـجد أن بـإمكانـه أن يتـصور وجود هـذا المنبـع الخفـى الذى يسـيطـر هذه السيطرة، فيـتحول باتجاه المغناطيس إلـى الاتجاه المعاكس، فى اللحظة الـتى تبلغ فيها قوة الانجذاب مداها.

كان يجـدها حريصـة على الفرار إلـى «الفريجـيدير» العمـيق كلمـا قاربت الانصـهار، وكان يـعجب لهـذا «الفريـجيديـر» الذى يتـقبل ماهـو مقدم عـلى الانصهار بنفس التـرحاب الذى يتقبل به الأشياء المتجمدة، وكـان يصور لنفسه

أن «الفريجيدير» يقول له إنه لا يهمه من أيـن يبدأ، ولكنه قادر حتى على تجميد الغازات المتطايرة متى دخلت إلى مجاله وأقفلت على نفسها بابه!!

(٥)

على هذا الـنحو كان يفكر فى قـرار الابتعاد، وفى قرار الهـجران، وفى قرار المقاطعة، وفى قرار الإهمال، وفى قرار الفراق ، وفى قرار الجفاء.

كان يفـكر فى الابتعاد فـيفضل عليـه التباعد، لأنه كـان فى حاجة إلى قلـبها الدافئ حـتى ولو كان فى «الفـريجيدير»، كان فـى حاجة إلى هذا القـلب الذى يحب الحـب ويخشاه، والذى يـسعى إلى الحب فيـكتوى به، والذى يـهرب من الحب فيشتاق إليه.

وكان يفكر فى الـهجران فيفضل عليه الـتظاهر به، ويوحى إلى محبـوبته بأنه علـى وشك الهجـرة، فإذا ما أوشـكت على الـتصديق، عـاد إليهـا بتكذيـب ما أوشكت عـلى تصديقه، وهـكذا كان يبادلهـا تلك القسوة الـتى يمارسها عقـلها بقسوة يمارسها هو على عقلها.

ولكنه لا يكاد ينتصر حتى ينهزم، أو قل حتى يمكنها من هزيمته، ويمكّن نفسه من الانتصار عـليها بإظهار هذا الانهزام الـذى كانت تسعد به، بينـما هى تضع قدميها عـلى طريق الرضا.. وتمضى عـلى الطريق حتى إذا اقتـرب هو تباعدت، وإذا تباعد اقتربت، لكنهما لا يلتقيان.. ومع هذا فإنهما لا يفترقان.

وكان يفكر فى المقاطعة، وقد بات يظن أنها هى الوسيلة المثلى التى تفوق فى فاعلـيتها الابـتعاد والهـجران، فالمقـاطعة المشـروطة شبيـهة بالعـقد القائـم على

السلبية.. وهو أقوى من عقود القانـون المدنى؛ لأنه لا يحتاج إلى توقيع ولا إلى شهود، لكنه يستند إلى بيع الامتناع بثمن محدد هو الامتناع عن شىء آخر.

وكان يريدها أن تمتنع عن تعذيبه بتمنعها فى مقابل أن يمتنع عن عدم الامتناع عنها.. لكنـه مع هذا كان يفهم هذا المعنـى بعقله من دون أن يستسيـغه بقلبه، إذ كيف يمكن له أن يمتنع عن عدم الامتناع عنها، وهو الذى لا يستطيع الصبر على امتناعها عنه!!

وكان يقول لعقله إن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع يده اليسرى من أجل الحرص على التماثـل الظاهرى الذى قد يُظن أنه هو الجمال بـينما الجمال شىء آخر، ولكنه كان يعـود ليحدث نفسه بقول العرب القـدامى: إن الدواء قد يكون من نفس الداء.

(٦)

وهكذا قادته حيرته إلى أن يقرر لنفسه أنه لا الابتعاد مُجدٍ، ولا الهجران ولا حتى المقاطعة.

وها هو يفكر فى الإهمال.. كان يرى ضياءها فيتعمد إغماض عينيه.. وكان يسمع جرسها فيصم أذنيه، وكان عطرها يترامى إليه فيتنفس بفمه حتى لا يحرم نفسه مـن الهواء، وإن حرمها مـن العطر، ولكنه مـع هذا كله كان يحـس بطعم لذيذ فى لـسانه وهو يحادثهـا حتى لو كان الحديـث بالهاتف.. وكان يجـد قلبه يضطرب بين ضلوعـه وهى راضية عنه، وكان يجد قلبه وهو يـكاد يقفز من بين ضلوعه حين تريه الوجه الآخر.

وهكذا لم يـعد أمامه إلا الفراق.. ولكنـه لم يكن يؤمن بأن الـفراق ممكن إلا

بواسطة كبير مندوبى الإعلانات فى جريدة الأهرام.. فقد كان قد أيقن أنهما شىء دنيوى واحد، وأن ما يفرق بينهما هو شىء واحد فقط هو الروح التى لا يملكان من أمرها شيئا مهما أوتيا من العلم.. ولأنه أيقن أن الفراق مستحيل فإنه لجأ إلى الصعب وهو الافتراق.

وكان الافتراق يتكرر... ولكنه يعود.. يعود ليتكرر.

(٧)

ولم يكن أمامه بد من أن يلجأ إلى الجفاء، وكان يسأل المجربين كيف يكون، فكانوا يجيبونه بأنه قد يتحقق بمقابلة التقارب بالتباعد، والتلاقى بالاجتناب، فيجيبهم بأن هذا هو ما تفعله، ولكنه غاضب منه، وهو لا يريد أن يفعل شيئا يؤدى إلى غضبها، لأنه لا يريد لها أن تتألم كما يتألم، حتى لو كانت هى التى جعلته يتألم.. وكان أصحابه ينصحونه بأن يحاول أن يقابل الإحسان بالإساءة، والمعروف بالمنكر، والحسن بالقبيح، ولكنه كان يجد نفسه أعجز من أن تستطيع أن تفعل هذا بالحبيب ؛حتى لو لم يكن هناك من سبيل إلى استرجاعه إلا بهذا الطريق الذى أكد له أصحابه أنه الطريق السريع والمؤكد للوصول، لكنه لم يكن يتصور نفسه أبدا قادرا على أن يسلك هذا الطريق؛ لأنه لم يكن يجد فى نفسه القدرة على إيذاء محبوبته، ولا على التظاهر لها بالابتعاد عنها، ولا بالقدرة عليه.. وكان أصحابه يضحكون من عجزه، وهو الذى كان يظن نفسه قادرا على كل شىء.. وكان يضحك من غفلتهم، ولكنه كان لأول مرة يفهم معنى استغلق عليه طيلة سنوات حياته، حين كان يسمع كوكب الشرق وهى تشدو فتقول: حتى الجفا محروم منه.. وها هو نفسه محروم حتى من الجفا.

(١)

كان قد تعلم من فنانى البورتريه أن يبدأ برسم ملامح أولية للشخصية، وكان قد سمع فى مرحلة مبكرة من عميد هؤلاء الفنانين أنه لابد أن يتحدث حديثا طويلا إلى الشخصية قبل أن يتناول فرشاته ولوحته.. ولكنه اليوم بدأ يتشكك فى جدوى هذا الأسلوب.. فما كان أسهل الأمر لو أنه بدأ هذا البورتريه بطريقة تقليدية جدا ليصور الطبيعة الجميلة بدلا من أن يعانى فى تصوير هذه النفسية الفريدة.. كانت المقاييس المثلى للجمال متوافرة إلى النهاية فى صاحبتنا، لم يكن فيها أى ابتعاد ولو طفيفا عما يتمناه الرائى لناظريه وعما يتمناه الفنان للوحة التى يضمن بها الفوز على ملكات الجمال أنفسهن.. فقد كانت صاحبتنا قد بلغت من العظمة والجمال والرفعة والمكان، ذلك القدر الذى لا يسمح لها أن تتنازل لتخوض المقارنة أمام ملكات الجمال الأرضيات، كانت فى سمائها تتسامى، وفى رفعتها تتسامق، وفى علو كعبها تشرف على الدنيا فتشرق الدنيا حين تشرف هى عليها، ولهذا فلم يكن من الصعب على فنان متمرس أن

يصورها، لكن المشكلة كانت فى أن كـل صورة لها لم تكن قادرة على أن تحيط بها مهما بلغت مـن الدقة والتعبيرية والتصوير والتمثيـل والتقليد.. وهكذا كان فناننا يريد أن يتخلى عن الأسلوب التقـليدى ليضمن النجاح، فإذا به عاجز عن النجاح، ويعـود إلى الأسلوب التقليـدى؛ فيجده هو الآخر عاجزا عـن النجاح، ويستزيد مـن حديثها؛ فيجد نفسـه يبتعد تماما عن الأمل فـى النجاح..ولا شىء يوتر الفنان ويمزقه من داخله كعجزه حين تتوقف به القدرة عن التصوير إلى هذا الحد.

(٢)

كانـت صاحـبته فـتاة عالمـية بـالمقيـاسين المفـضلـين للعـالمية.. كـانت تجـيد الاختلاف، وكانت تبدع فى إبداع التكامل.. كانـت تمتلك فى فمها جهازا دقيقا جدا للـترجمة الفوريـة من كل اللغـات وإليها، ولـم يـصادف صاحبنا مـثل هذا الجهاز التلقائى السريع المنضبط المعبر.. كانت تجيد كل لغة من اللغات كأنها ابنة هذه اللغة.. وكانت تعبر عن كل حضارة من الحضارات كأنها من اللائى صنعن هذه الحـضارة فى المـاضى ومازلن يـصنعـنها فـى الحاضر.. بل إنـها كانـت فى حديثهـا تعبر بلغات مـختلفة عن الشـعوب المختلفة الـتى تتداول اللغة نـفسها، ففرنسيتها التـى تتحدث بها عن «بارى» مختلفة تماما عن تـلك التى تتحدث بها عن «جنـيف».. والفرنـسيتان «مخـتلفتـان» تماما عن فرنـسية الجابـون.. وهكذا كانت إنجـليزيتهـا فى حديثهـا عن «هوليـوود» غير تلك الـتى تتحدث بـها عن «كيب تاون» أو «لندن».

ولـم تكن لكنتها هى الصورة الحية الوحـيدة لإدراكها المعجز للفروق الدقيقة

بين الأنواع والطوائف والشعوب.. لكن ذوقها نفسه كان قادرا على أن يميز الاختلاف بين الدرجات المتقاربة وشبه المتطابقة من اللون الواحد على سبيل المثال. ومع أنه يستحيل على كبار المثقفين والفنانين أن يستوعبوا كل قدرتها المعجزة على الإحساس الدقيق، إلا أن فناننا استوعب منها ـ على سبيل المثال البسيط ـ أن هناك فروقا كبيرة بين الأحمر الذى فى العلم الفرنسى، وذلك الذى فى زى الحرس الملكى البريطانى، والذى فى «المارلبورو»، والذى على غلاف «النيوزويك»، وذلك الذى تكتب به كلمة «الكامى» على غلاف الصابون.. وذلك الذى فى خرطوشة الحبر الباركر.. ولك إذا تخيلت ما تدركه من درجات متطابقة بنفس اللون أن تتخيل ما كانت قادرة على إدراكه من درجات متفاوتة للون نفسه، وما تدركه مما قد ندركه نحن من ألوان مختلفة.

(٣)

وكما كانت قادرة على إدراك الفروق الدقيقة بين كل شيئين، فقد كان تفكيرها قادرا على التفريق الدقيق بين الشجاعة والإقدام، وبين الجسارة والجرأة، مع أن أحدا لا يستطيع أن يفرق بين كل زوجين من هذه الأزواج، ولكن حديثها كان قادرا على أن يفرق لك بين كل شيئين حتى إنك لتحس وأنت تستمع إليها بأنه ليس هناك فى اللغة شىء اسمه المترادفات، ولا فى الحياة أشياء اسمها المتشابهات، وإنما يقوم كل شىء بذاته، وصفاته، حتى لا يمكن أن يكون هناك من الشىء الواحد صورتان، وكانت صاحبتنا نفسها نموذجا مجسدا لهذه الفكرة، فلم يكن من الممكن أن تجد نسخة أخرى من صاحبتنا هذه على الإطلاق.

(٤)

كانت تجيد التواضع، ولأنها تمرست على إجادة هذا التواضع فى كل لحظات حياتها، فإنها أصبحت نموذجا حيا لهذا الخلق الرفيع، وعلى الرغم من أن إجادة التواضع مـن أصعب الطبائع علـى النفس البشرية، فـإنها كانت قد تطبـعت بها إلى النهـاية، وكانت فى تواضـعها الظاهر تسـتند إلى ثقة لا مـتناهية فى نـفسها وقدرتها، لكنها مع هذا كانت تجيد التعبير عن التواضع حتى ليظهر لمحدثها أنها تعانى من التواضع بـقدر ما هى سعيدة به، وأنها سعيدة به بـقدر ما كانت تعانى منه، فقد كان التواضع قد تحول فى نفسيتها إلى مكون أساسى تنطق به قسماتها وهمساتها ولمساتها ولمحاتها فى كل لقطة ولفتة وإيماءة.

ومع هذا التواضع اللانهائى فإنها كانت قادرة على أن تصوب للناس آراءهم الخاطئة، وأن تصحح لهم مفاهيمـهم الزائفة، ولم تكن تجد أدنى قدر من الحرج أو التحرج فى أن تواجه المخـطئ بما تراه يستحق التنبيه، وكانـت تفعل هذا حتى مع أكثر الناس غرورا وأكثرهم نفوذا عليها، ولم تكن تسمح لنفسها بأن تتخلى عن عقـيدتها فى الحـق من أجل إسعاد الآخـرين، أو إرضائهم، أو مـداراتهم.. وكانـت كلـماتهـا لهـؤلاء المخطئـين كفيـلة بـأن تردهم ـ ولـو إلى حـين ـ إلى الصواب والرشـد؛ لأنهم كانوا يقـــدرون مـــدى صـــدقها وإخلاصها لـلقيم السامية من صدق وجمال ويقين.

(٥)

وكانـت أكثر مـعاركها مـع النرجـسيين وأولـئك الذين يـودون لو أصبـحوا

نرجسيين، ولم يكن يعنيها فى قليل أو كثير أن تقلل من انتفاخ بالونات هؤلاء أو أن تنهى هذا الانتفاخ، لأنها كانت تؤمن بما هو أعمق من هذا، وهو أن وجود هؤلاء جزء من ناموس الكون الأعظم، وأن وظيفة أمثالها أن تحول كل ميولهم إلى ما فيه خير الناس حتى ولو أفادوا هم أنفسهم من هذا الخير، وكانت تصدر فى رؤيتها هذه عن إدراك ذكى لتاريخ الحياة الإنسانية وصراعات النفس فى صناعة التاريخ، وكانت قادرة بعد هذا على أن تعظم إفادة المجتمع من النرجسيين الذين يطفون على سطحه يوما بعد يوم، وذلك دون أن تدعى أنها قامت بهذا الدور، وكانت تقول لنفسها إنها ما دامت قد أجرت على أيدى هؤلاء الخير لبعض الناس؛ فإنهم لا يهمونها فى شىء، ولكنها كانت مع كل هذا التسامح الظاهر لا تفرط على الإطلاق فيما تراه حقا أو صوابا.. وهكذا كانت تعامل النرجسيين وأشباههم على أكثر من مستوى، فهى تتقبل وجودهم؛ لأن الحياة لابد أن تقدم لنا بعضا منهم، وهى تتسامح فى دلالهم إذا ما كان هذا التسامح يفيد البشرية، لكنها فى كل الأحوال حريصة على أن توقفهم عند حدهم إذا رأتهم يتمادون فى الخطأ أو الخطيئة.

(٦)

كان استعدادها للعطاء لا يتوقف عند حد، ولكنها لم تكن أبدا على استعداد لأن تخاطر بهذا العطاء فى زراعة الأرض الصخرية، وكانت تعرف جيدا أنها قد تنخدع فى بعض الناس أو بعض البشر، لكنها كانت تفضل أن تتألم بهذا الانخداع عن أن تتألم بسبب قبضها يدها أو نفسها عن العطاء، كانت تحب أن تصنع من غيرها المعجزات وأشباه المعجزات، وكانت تجد نفسها فيما صنعته أو بالأحرى فيمن صنعتهم، ولم يكن يهمها من قريب أو بعيد أن يراها الناس

عظيمة، لكنها كانت فى الوقت ذاته تسعد كل السعادة حين تجد الناس يهمسون بأنها صنعت العظماء، وكان هذا الخلق المتأصل فيها يقودها من حيث لم تكن تدرى إلى التعاسة، فقد كانت حريصة على أن يحافظ أصحاب المعجزات البشرية التى صنعتهم على عينها على العظمة التى شرّبتها لهم، وفاتها أن البشر دون المخلوقات الأخرى يحبون لأنفسهم الرذيلة، وهكذا كانوا ينتقصون من الصورة الجميلة التى اجتهدت وسعها حتى جعلتهم يظهرون فيها، وكانت تعجب ـ ولم يكن لها حق فى ذلك العجب ـ من أن ترى نجومها وهم ينجذبون إلى الأرض بينما هى قد أبعدتهم عن الأرض بجهد جهيد ، وجعلتهم يقتربون من سماء هذه الدنيا.

(٧)

كانت صديقاتها ينصحنها بأن تبدأ الحديث من بدايات أكثر تأثيرا، لكنها كانت تتأبى وتصمم على أن تبدأ الحديث من بدايات أكثر صدقا.. ومن العجيب أن المستمعين كانوا ينجذبون إلى حديثها بأكثر مما ينجذبون إلى حديث صويحباتها، وأنهم كانوا كذلك يعجبون بهذا الحديث بأكثر مما يعجبون بالأحاديث الأخرى.. كان إعلاؤها لقيمة الصدق يرتفع بها هى الأخرى إلى ذرا سامقة فى أفئدة الناس وعقولهم، ولم تكن تعجب من هذا، فقد نشأت فى بدايات حياتها على القيم الرفيعة كلها، ثم علمتها الأيام الدأب فى العمل والإخلاص للهدف، والصدق فى التعبير عنه، وعلمتها التجربة أن الدأب يغنيها عن الحظ، وأن الحظ الحقيقى هو فى القدرة على نشدان التوفيق.. وهكذا ظلت ترتفع من نجاح إلى آخر، ولم يكن يزعجها فى حياتها إلا ذلك الشعور بالحيرة الذى كان ينتابها حين تتلقى الإساءة ممن قدمت لهم المعروف، وكانت تبحث

عن الشعور بالندم على أنها قدمت المعروف فلا تجد نفسها قادرة على أن تندم، وإنما هى فى حيرة شديدة من أمرها، وكانت هذه الحيرة تعذبها بأكثر مما يعذبها نكران الجميل، ولم تكن بقادرة على أن تخاطر بقيمها وتتوقف عن إسداء المعروف، وفى الوقت ذاته فإنها أصبحت تتردد تجاه كل معروف تقدم عليه، وهى تخشى أن يعود عليها بالألم.. وكانت هذه الحيرة تمزقها وتبعدها عن الناس بعض الوقت، لكنها كانت ما تلبث أن تعود.

(٨)

كانت قد بدأت تؤمن بأن هناك نقيضين لا يجتمعان، هما الإنسانية والأنانية، وكانت تؤمن إيمانا صوفيًا غريبا بأن حرف السين الذى يفرق بين الكلمتين ليس إلا ذلك السين التى ترمز فى علوم الرياضيات للمجهول، وكانت تبنى فلسفتها على أن سين الإنسانية ينبغى أن تبقى للمجهول، وأنها إذا ترجمت إلى معلوم فإنها تصبح نوعا من أنواع الأنانية المستترة التى تقدم اليد اليمنى ما تنتظره باليد اليسرى.

وكانت تبنى وجهة نظرها فيمن تعرفهم من خلال هذا الإطار، فالذين يستحقون الحياة هم أولئك الذين يقدرون على أن يهبوا السعادة للآخرين، وأن يقدموا لهم ما يضفى على حيواتهم زهورا وثمارا، أما أولئك الذين يتمحورون حول أنفسهم فإنهم فى رأيها لم يكونوا أكثر من بقايا الإنسانية حين نفدت عموميتها وانحصرت فى أنانيتها.

كانت تجمع فى شخصيتها بين طبيعتين مختلفتين، ولم يكن أحد يتصور أن تجتمع هاتان الطبيعتان فى شخصية واحدة، ولكن كثيرين كانوا يتصورون أن هاتين الطبيعتين وجهان لعملة واحدة، فقد كانت صاحبتنا رقيقة إلى أبعد الحدود، وحادة الطبع إلى أبعد الحدود أيضا.

كانت تبدأ طقوس الحب بالرقة التى تتزايد فى تؤدة فتزداد الرقة رقة؛ لأن صاحبنا كان يشعر بالرقة فى كل لحظة، وكان يشعر بالرقة مرة ثانية وهو ينتقل معها من مرحلة إلى أخرى من مراحل التعبير عن العاطفة الصادقة المشبوبة، وكانت فى لمساتها ولفتاتها ولمحاتها وإحساسها وكلماتها ونظراتها وصوتها، تجيد التعبير عن الانفعال بالحب وعن صناعة الحب نفسه، كانت تتثنى بأدق عضلة من عضلات أصابعها على نحو ما تتثنى بكل كيانها، وكانت تتمنى بينما تجعل حبيبها يتمنى، وكانت تتفانى فى التعبير عن الحب حتى يتمنى الحب نفسه أن يتشبه بأدائها.. كانت ناعسة الطرف، ساهمة اللحظ كما يصفون، لكنها كانت فى اللحظة ذاتها تحتفظ بتورد وجنتيها وبريق عينيها.. كان دفء يديها كفيلا بالتهاب القلب، ولكنها كانت تدغدغ القلب نفسه بعباراتها الحالمة، فكان القلب يستريح لعباراتها، بينما هو يعانى من القفز فى غشائه وهى تتلمسه عن بعد بيديها الدافئتين.

كان صوتها كفيلا بأن يثير فى القلب الرغبة فى الذوبان من أجل الخلود، وفى التلاشى وهو يذوب من أجل الخلود،وكان صوتها يبعث كل المشاعر العميقة إلى التعبير القوى عن وجودها، وإلى التعبير الأقوى عن رغباتها فى إثبات وجودها، ثم عن التعبير الحى عن رغباتها فى التمتع بهذا الوجود نفسه.

ولكنها مع كل هـذا كانت قادرة فى اللحظة المناسبة علـى إيقاف كل المشاعر التى اكتسبتـها واحدة وراء أخرى، وجعلت منها هرما رائعا تـرتفع به إلى أعلى ما يستطيع إنسان أن يرتفع.

كانت قادرة فى لحظـة واحدة بفضل حدة غير مألوفة فى الـطبع أن تحيل كل هذا إلى سراب يتطاير فى سرعة الصوت؛ حتى لا يكاد أحد أن يحسه أو يلمسه أو يتذكر له وجودا أو مدى فى نفسه.

كانت قادرة عـلى أن تسحب البساط الـذى أقامت عليه كل هـذا البناء، وأن تطـويه فى لمح البـصر، فـإذا بهذا الهـرم المتنـامى من دفء المـشاعر والعـواطف والكلمات وقد تلاشى تماما.. ويظن حبيبـها أنه انهار فحسب، لكنه لا يجد أثرا لهـذا الهرم عـلى الإطلاق، وعنـد ذاك كان يدرك أن كـل الحب قد تـلاشى.... ويظل يتمنى لو كان قد انهار فحسب!!

على هذا النحو كـان صاحبنا يمنى نفسه يوما بعد آخـر أو حينا بعد آخر؛ لأن كل صدمـة من هاتيـك الصدمات كـانت قادرة علـى أن تصيبـه بالوجوم لـفترة طويلة يعود بـعدها ليعاود التمنى أن ينـجح فى أن يستبقى الهرم حيـا بعد بنائه، وكان يبذل جهده فى أن يتعرف على الأسباب الكفيلة بأن تحفظ له القدرة على أن يتحكم فى مشاعرها حين تصل هذه المشاعر إلى الذروة.

كان يظن أن الإرضاء هو أنسب السبل إلى التحكم فى هذه المشاعر.. ولكنه وجد الإرضـاء يسـرع بدفـعهـا إلى الـتدميـر، وفيـما بـعد عـرف أنهـا لا تحب الاستجابة بقدر ما تستعذب التطويع.

وكان يظن الـقسوة قادرة على أن تبرز مـا قد يكون فيها من وداعـة، فإذا بها

ترحب بالقسوة كما ترحب عيدان الكبريت بجدران صندوق الكبريت، وسرعان ما تتفاعل معها، ولكنه يكتشف أن الكبريت يفقد ذاته بعد أن يكون قد أدى وظيفة لحظية قد تكون ذات فائدة وقد لا تكون.

وكان يظن التجاهل ذا قدرة على أن يصرفها عن تكرار لعبتها، فإذا هي شأن الأطفال الأبرياء ترفع صوتها لإثبات وجودها، وتزيد التحطيم لتلفت الأنظار، وتكثر من الانفعال لتحقق لنفسها رضاها.

وكان يظن أن البعد عن لقياها لفترات طويلة كفيل بأن يخفف من حدة طبعها حين يعودان إلى اللقاء، ولكنه وجد أن هذا الاجتناب يثير فيها الرغبة والتعطش إلى تعويض ما حرمت منه لفترة طويلة.

(١١)

وأخيرا اهتدى إلى أنها قد تكون من أولئك الذين لا يسعدون إلا من تكرار التجربة في المدى القصير.. كالذين ينفرون من الأغنية الجديدة حين يسمعونها لأول مرة، ثم إذا هم يعجبون بها في اليوم التالي بعد أن يكونوا قد سمعوها خمس أو ست مرات.. وحين سمحت الظروف بأن تتيح لقاءهما على هذا النحو بعيدا عن الناس..كان يجدها تزداد في كل مرة اشتعالا.. وعلى قدر ما كانت رقتها تزداد وهي بسبيلها إلى الحب، فإن حدتها كانت تتضاعف حين تصل إلى الحب.. ولم يكن أمامه بعد سنتين من الحب إلا أن يخضع للتفسير الوحيد الكفيل بأن يحقق له الحب.. وأصبح هو الآخر أكثر منها حدة حين تصل به إلى ذروة الحب.. وأصبحا قطتين.. وقد عاشا خمس سنوات حتى الآن كما تعيش القطط!

(١)

ها هي ذي تشغل خياله بالليل والنهار، وهي واقفة على ساقها اليسرى وعلى نصف ساقها اليمنى، أو على سيف ساقها اليمنى كما يقولون، وقد تدلت خصلات شعرها الذهبي على جانبي وجهها كما تتدلى هذه الخصلات عن قصد بعدما تنتهي الفتاة الصغيرة من تحريكها إلى الجانبين.. وهي تتناول أطراف هذه الخصلات بأناملها، وتتحسسها كأنها تريد أن تستشعر بيديها ما تحمله الأجواء المعبقة المحببة من غزل في أطراف هذا الشعر.

كانت تدرك أن شعرها وهو جزء منها سينقل إلى وجدانها ما تحمله الأجواء، لكنها كانت تحب ليديها أن تتلمسا الإشارات التي بدأت في الوصول إلى أطرافها العليا متمثلة في هذه الخصلات.

كانت تشعر ـ ربما لأول مرة في حياتها ـ بنوع غريب من السعادة، بل إنه نوع آخر من السعادة.. بل إنه شيء آخر غير السعادة، لعله يفوق السعادة في تأثيرها

على روحها وقلبها ونفسها.. إنها تحس بأن قلبها قد بدأ يحاول أن يسرع بعض الشيء من دقاته.. بل إنها لتكاد تحس الآن بأن هذه الدقات تبدو أقوى من الدقات التى تعودت عليها من قلبها.. وهى تحس فى بدنها كله بإحساس غريب كأنه يتهيأ لشىء ما.

وهى لا تستطيع أن تحدد هذا الشىء، بل إنها عاجزة عن أن تحدد ما إذا كانت مقبلة على استرخاء أم مندفعة إلى تحفز، إنها تحس كما لو كانت تمر بموجات متعاقبة من الاسترخاء والتحفز، وساقاها اللتان لا تستعملهما بأكملهما فى وقوفها لا يتململان من هذا الوقوف الحائر الذى كان يدفعها إلى التململ بسرعة.

وهى تريد أن تتحرك إلى الأمام فى نفس اللحظة التى تعتقد أن عليها فيها أن تعود إلى الخلف، لكنها لن تعود إلى الخلف بوجهها، إنها ستعود بظهرها لتستبقى هذه الصورة التى أمام عينيها.

إنها خائفة.. لكنها مقبلة على هذا الخوف، وربما تكون واجمة، لكنها لا تريد هذا الوجوم أن ينقطع عنها، إنها تريد أن يستمر وأن يتواصل، ولكنها لا تدرى ماذا تكون فكرة الآخر عنها؟ إنها لاتزال حريصة على صورتها فى أعين الآخرين كما ينبغى أن تكون.

ولكن مَنْ قال بهذا الوجوب؟ إنها الحتمية القديمة التى ترسبت فى كيانها، هل تضحى بهذه الحتمية التى عودت نفسها عليها؟ هل تستطيع حقا أن تثبت لنفسها أنها قادرة على الاختيار؟ هل تستطيع حقا أن تقنع نفسها بالاستجابة للاختيار الذى سعت عمرها كله من أجل أن تجده فى لحظة واحدة؟ هل هذه هى اللحظة التى انتظرتها؟ وهل هذه هى اللحظة التى سمعت أنها تجىء ولا تتكرر؟.

ما أقسى الحيـاة!! هل بلغت قسوة الحياة أن تختزل حياتنا وتجربتنـا وخبرتنا كلهـا فى لحظة واحدة تكـون فاصلا بين الانطلاق إلـى السعادة وبين البـقاء فى القيود؟ وهـل تظل تعاستها بـالبقاء فى القيـود بنفس القدر الذى كانـت تشكو منه؟ أم إن هذه الـتعاسة سوف تـتضاعف لأنها ستـتذكر أن الفرصة قـد جاءتها وأنها هى التى رفضتها؟

أما كـان بوسع الفـرصة أن تعلـنها قبـل مقدمهـا حتى تكـون على استـعداد للقائها، ولنفترض أن الفرصة كانت أخـبرتها بأنها قادمة ماذا كان فى وسعها أن تفعل وهـى التى طالما تمنـتها؟ ألا تكون هذه الـفرصة رحيمة بـعض الشىء ولا تضـعها هـكذا بين فكـى الرحى؟ هـل قُدِّر علـيها الـشقاء حـتى عندمـا تأتيـها السعادة؟ وهل يمكن حقا ألا تأتى السعادة إلا فى هذه الصورة الفجائية!!.

(٢)

كانـت أكبر مشـكلاتهـا فى الحياة كـثرة المحبين ثـم كثرة الـعشاق ثم كـثرة المعجبين. بدأت حياتها فى بيت جدتـها التى كانت لا تفرط فيها على الإطلاق، وكانت تـعنى بهـا عناية أشـد مما تعنى أم بـطفلتـها، ولم يكـن فى حياة جـدتها غيرها، فقد توفـى الجد فى ريعان شبابه بعد أن أنجب ابنـا وابنة، وكرست الجدة حياتـها لتربيـة ولديها، وهـا هى ذى اليوم تضـاعف من سعادتـها وهى تتـلقف بيديـها الحانيـتين ابنة ابنـها، وهى تبذل كـل اهتمامـها وحنانهـا وحبها وثـروتها ودفئها فـى العناية بهذه الطـفلة المدللة التـى لم يكن لها أن تتوقـع كل هذا الحظ المتدفق.

وهذه هى خالـتها هى الأخرى تريد أن تسـتأثر بها لأنها لم تـرزق من الذرية غيـرها، نعم، فـقد كانت تـعتبر أن هـذه الطفـلة ابنتـها هى، وكانـت تستكـفى

بوجودها عن كل حاجة إلى الأبناء، وكانت تنازع الجدة فيها حتى إذا ما توفيت الجدة أصبحت خالتها تنظر إلى أمومتها لـلطفلة المحبوبة على أنها من البدهيات التى لا تستحق المناقشة ولا الجدال، وكانت تعطيها من حنانها وحبها واهتمامها ما لا يقل عما كانت أمها تعطى الفتاة.

وكان أبواها هما الآخران يتطلعان إليـها وهى التى تمثل الرباط المقدس الذى ربط بين حياتيهما بعدما ربط بينهما الحب القوى العاصف القادر الذى لم يترك للظروف فرصة فى أن تتغلب عليه، أو أن تقـف فى طريقه.. وهكذا أتيح لفتاتنا أن تنشأ بين أحضان مـتنافسة على حبها، ولم يكن لأحد أن يـشعر بما شعرت به من كل هذا الحب، ولكن أحدا غيرها لم يكن يستطيع أن يصمد أمام هذا الحب كله.

نعـم.. فقد كـان حب الجـدة ينتـقص من حـب الأم دون أن يدرى المحـبان، وهكذا كان حـب الخالة يتنازع هذين الحـبين، ولا يمكن القول بأن الغـيرة كانت تأكـل هذا الحب، ولـكن الحـب نفسـه هو الذى كـان يأكـل هذا الحب، ولـعل أصعب المشكلات ما يكون ناشئا عن الذات نـفسها؛ لأن المناعة ضد المشكلة فى هذه اللـحظة تتوارى لتـفسح المجال أمام الحـب لأن يأكل نفسه.. ولـولا أن الله سبحانه وتعالى لـطف بالطفلة اللطيفة ما كان فى وسـعها أن تعرف طعم الحب بعد هذا الحب المتصارع مع الحب.

(٣)

وكأن الحياة اختارت لها أن تتكرر تجربـتها مرة أخرى مع الجنس الآخر، فهى

حتى اليوم لا تستطيع أن تزعم أن بإمكانها أن تحصر أولئك الذين وقعوا فى غرامها فى سنيها الأولى من الحياة، وهى إذا تذكرت أحدهم فإنها لابد أن تتذكر واحدا آخر فى طريقه، وثالثا فى الطريق إليه، وهكذا لا تنتهى سلسلة العشاق الذين طرقوا أبواب قلبها فى مرحلة مبكرة، حين كانت قلوب أترابها لم تعرف بعد أن تتلقى هذا الطرق.

إنها لا تدرى من أمر نفسها شيئا.. وهى تنظر إلى الأفق القريب بعين ونصف تماما كما تقف على ساق ونصف، فهذه الخصلات المتدلية من شعرها الحريرى تغطى النصف الأيسر من عينها اليسرى.. وكأن هذا التكوين البديع يرمز بصورة مجسمة إلى حال قلبها فى هذه اللحظات الحاسمة.. إنها تتردد فى اتخاذ القرار، لكن قلبها يدفعها إلى الاستجابة وهى تدفعه إلى التحدى.. وتتسارع ضربات قلبها فتظنه بدأ يستجيب لرغبتها فى التحدى.

ولكن عقلها يقنعها فى بساطة شديدة بأن التحدى الذى تطلبه من قلبها لا يتطلب هذا التسارع، وإنما يكفيه السكون أو البقاء على الإيقاع نفسه، وإذن فإن هذا التسارع الذى بدأ يسيطر على قلبها ليس إلا رغبته فى الاستجابة... وهكذا فإن عقلها الذى كان من المفروض أن يقنع لها قلبها أصبح هو ضمير هذا القلب المتحدث برغبته فى الاستجابة.. ولكنها لا تريد.

إنها تستحضر أمام عينيها كثيرا من عذاباتها حين كانت لا تبخل بالعطاء... حين كانت تصنع الصورة الجميلة، وحين كانت تبقى بمثابة الصورة الجميلة، إنها لا تريد أن تكرر المأساة، إنها لا تريد أن تستجيب؛ لأن الاستجابة قادتها فى الماضى إلى عذابات أصبحت تعيش فيها الآن، ومن أدراها أنها لن تعود إلى نفس الآلام التى اجتاحتها حين أدركت أخيرا أنها كانت تعطى مَن لا يستحق؟

من أدراها أن هذه الآلام لن تعود لتعصف بها فى المرة القادمة؟ ومن أدراها

أنها ستكون قادرة فى المستقبل على أن تتحمل صدمة ثانية؟ ولماذا لا تحرم نفسها من السعادة المحتملة حتى تتجنب صدمة الشقاء المؤكدة؟ ولكن قلبها لا يوافقها على هذا التفكير.. لأنها تشعر اليوم بمشاعر لم تذق طعمها من قبل.

(٤)

ولم يكن صاحبها بقادر على أن يستنقذها من براثن الخوف والشك، ولكنه نجح على مدى ثلاثة شهور متصلة أن يزيح عنها بعض الكوابيس، وكان كلما أزاح كابوسا من كوابيس الرعب والخوف والقلق والجزع والرهبة والخشية والاضطراب والفزع ظن أنه قد أقترب بحبيبته إلي غايتهما المنشودة، كان يظن كلما اجتهد أنه قارب النهاية ؛لأنه لم يكن يتصور أن إنسانة واحدة تملك كل هذه الأقدار المتنامية من المشاعر التى تحول بينها وبين الاستقرار العاطفى.

كان يمضى الساعات الطويلة معها فى حوارات طويلة يثبت لها فيها ما يعجز غيره عن إثباته، بل ويطمئنها إلى الحياة بكل ما يملك من مقومات الإقناع اللغوى والعملى والفكرى، ويريها الأمثلة رأى العين، وكانت صاحبتنا أشد ما تكون اقتناعا وإيمانا ويقينا فى نهاية كل يوم، ولكنها تعود فى الصباح التالى لتبدأ من نقطة شك جديدة.

وظل صاحبنا يستعذب هذه المحاولات العقلية التى يبذلها كل يوم فى تحويل الشك إلى يقين، والخوف إلى أمن، والقلق إلى اطمئنان، والغضب إلى رضا، والوحشة إلى أنس، والرهبة إلى ثقة، وكان أكثر ما يسعده أن يجدها مستسلمة بين يديه فى نهاية كل يوم من أيامهما يبدآن الليالى بالأنس والأمن والاطمئنان

والرضا واليقين وينهلان من منابع الحب وروافد العطاء.. ثم يبدآن يومهما التالى ببقايا من كل هذه الإيجابيات إلى أن يتصاعد قلقها وجزعها ليبدأ هو دور الطبيب.

وكان صاحبنا يحب الطب، ويحب ممارسته، ولكنه لم يكن يحب الطب الروتينى الذى تتكرر فيه الممارسة على نحو يسير، وكان يظن الحب شيئا غير الطب، فإذا به يجد نفسه عاجزا عن أن يستمر فى هذه الممارسة العاطفية المتكررة، ومع أنه كان ينجح باستمرار، ومع أنه كان لا ينتهى من علاجها إلا بعناقها، ومع أنه لم يفشل أبدًا فى التغلب على كل ما أثارت من زوابع وعواصف.. مع كل هذا فإن السأم أدركه.. وكان بطبعه ملولا، بل لعله كان أكثر الناس مللاً، وأقلهم إملالا فى ذات الوقت.

وحين روى لى قصته لم أكن لأتعجب من نهايتها ولكنى كنت أتعجب لتأخر نهايتها حتى ذلك الوقت.

أما هى فمازالت تنتظر الفارس على الحصان الأبيض.

(١)

كان يجد نفسه مندفعا إلى لقائها رغماً عن نفسه، كان يحس فى وجوده معها بشىء هو أكبر من اللذة، وأكبر من الحب، وأكبر من الاكتمال، وأكبر من أن يجد نفسه.. كان يحس بشىء هو أكبر من ذلك كله، ولم يكن هذا الشىء تحليقا فى خيال، أو حلما من أحلام اليقظة.. ولكنه لم يكن أيضا شيئا أرضيا، إنما هو يرتفع معها وفى وجودها إلى طبقات أعلى من التى يعرفها، وإن لم تكن هذه الطبقات كتلك التى يتخيلها وقد تلاشى فيها أو توحد معها، فهو يظل فى هذه اللقاءات شيئا آخر ، وإن كان يظل أيضا شيئا آخر غير هذا الذى يعرفه من نفسه حين لا يكون معها، وكان يحاول أن يصل إلى سر هذا الشعور وكنهه، لكنه كان يجد نفسه عاجزا تماما عن أن يصل إلى هذا الكنه.

وكان يخشى أن يذهب تفكيره ببعض سعادته، لكنه مع هذا كان يمنى نفسه بأن تفكيره قد يقوده إلى الوصول، وأن الوصول قد يضاعف من سعادته، ولكنه

كان حائرا بين أن يخاطر بهذه السعادة.. وبين أن يظل هكذا مترددا فى حرصه على أن يبلغ منتهاها.. ولكنه كان يجد نفسه حيث يكون معها، ولهذا كان حريصا على هذا الوجود بأكثر من حرصه على نفسه، وأظنه وصل إلى الدرجة التى كان مستعدا فيها لأن يضحى بنفسه من أجل نفسه..

وهو عاجز عن أن يدرك كيف تكون التضحية، وبمن تكون، ولماذا تكون، ولمن تكون.. ولكنه كان قد أيقن من نفسه رغبتها الأكيدة فى هذه التضحية من أجل هذا الوجود، حتى لو كانت التضحية بالوجود نفسه، إلا أن تكون التضحية بالوجود معها.

(٢)

لا يمكن القول بأن حديثها وحده كان كافيا لأن يثير فيه كل هذه الأحاسيس والمشاعر، كما لا يمكن الاقتناع بأن وجودها الفيزيائى نفسه وحده كان كفيلا بأن يثير هذا الذى تثيره حين تتحدث، وحين كان يحلل حديثها كان يعجب من هذا الأثر الذى يتركه هذا الحديث.

وحين كان يتأمل لفتاتها كان يحار كيف استطاعت أن تصل إلى أن تجعل من لفتاتها البسيطة ألحانا فى سيمفونية متصلة، وأن تجعل من كل حركة من حركاتها صورة أخرى من صور الحياة التى تتجدد فى القلوب، وتجدد هذه القلوب فى كل جزء من كل جزء من كل دقيقة.

كان يحاول أن يستكنه هذه العواطف التى تهزه هزا وهو يرنو إليها أو وهى ترنو إليه، وكان يأمل أن يحقق بعض النجاح فى هذه المحاولات، ولكنه كان

عاجزا عن أن يصل إلى طبيعة هذا السر، وإن كان متأكدا من أنه يصل به إلى قمة النشوة والانتشاء.

وكان يكفيه أنه يسعد وهو يفكر في هذا الاستكناه بقدر ما لم يسعده أى تفكير من قبل.. وكان يعجب أن يكون التفكير نفسه نوعا من أنواع الانتشاء البالغ بينما هو جهد جهيد!

(٣)

كان حديثها - على سبيل المثال - ممتعا، وكان صوتها ممتعا، وكان إلقاؤها ممتعا، وكانت مشاعرها تجاه كل ما ترويه أكثر إمتاعا وإثارة.. كانت براءتها أكثر بياضا من أن تصبغها التجارب بأية درجة من درجات الرمادية.

وكان طهرها أقوى من أن تجرفه الدنيا فى تيارها المتلاطم برغبات البشر وأمانيهم المشروعة.. وكان قلبها مع هذا أقوى من أن يخضع تماما لهذا الطهر الجارف أو لهذه البراءة المطلقة، فقد كان قلبها أذكى من أن تفوته طبيعة البشرية.

وكانت روحها أقوى من أن تبقى مقيدة فى الجنة العلوية، وكانت هذه الروح قد تقلبت على مدى الزمان فى أكثر من جسد لتقود الفارس القوى الشجاع الجسور، ولتلتقى فى علياء الروح بشهداء القيم النبيلة، ولتبقى لفترات طويلة فى خيال أعظم الأدباء المحلقين.

وكانت نفسها قد خاضت أمواج الحياة فى مشارق الأرض ومغاربها.. فى الزمان القديم وفى العصر الحديث، وقد اكتسبت طواعية لا حدود لها على الاستجابة الرفيعة لكل الأجواء، والانتصار على كل الأهواء.

(٤)

كانت تعرف أن الهوى قدر.. ولكنها كانت قادرة أيضا على أن تصنع قدرها، وأن تجعل هذا القدر يصنعها حتى ليحار الرائى أيهما صنع الآخر وأيهما سبق الآخر فى الوجود.

كانت تجسيدا للذرى السامقة من القيم النبيلة النادرة، لكنها كانت أقوى من القيم ؛ لأنها كانت متجسدة فى وضوح بأكثر من وضوح القيم فى أطياف الأمانى التى تقيدها أبعاد الزمان أو المكان.. ولكنها فى وجودها الملموس والمحسوس والمسموع والمقروء والمتنفس والمرئى كانت أقوى من أن تحدها الحدود التى اعتادت حواسنا أن ترسم بها الإطار الخارجى للكيان.

كان قوامها يستعصى على الثياب التى تعجز عن الإحاطة به، وكذلك كان حديثها يستعصى على أن تحيط الأسماع بنهاياته التى تمتد كما يمتد صدى الشوكة الرنانة إلى ما لا نهاية، حتى لو حسبناه يتلاشى.

أما الإفهام فإنها كانت أكثر عجزا عن أن تحيط بكل ما تعنيه الألفاظ التى كانت تخرج فى تعاقب جميل وتصاعد لا يتناهى إلا إلى أسماع المحبين القادرين على أن يتلقوا إشعاعات حبها التى تشرق فى كل ذرة من ذرات صوتها المضىء بكل أنوار الحياتين الحية والغائبة.

(٥)

لم يكن يتاح له لقاؤها إلا أسبوعين من كل عام، وكان يظن أن قلة لقائهما

هى السبب فى هذا الشوق، ولكنه كان يرى نفسه أضعف من أن تستوعبها لأكثر من هذين الأسبوعين.

وكان حين يلقاها يزداد شوقا، وحين تغيب عنه يزداد صبرا، فإذا ما اقترب موعد اللقاء ازداد شوقه، وإذا ما اقترب موعد الفراق بدأت نفسه تعينه على الصبر عليه، وتمر الأعوام عامًا بعد عام فإذا هو راضٍ بهذه الفترة القليلة التى يلقاها فيها ،وإذا هو مطمئن إلى أنه سيظل يلقاها، لأنّ تعودهما على هذا اللقاء أصبح كالطبع المتأصل فيهما.

ومع أنه كان بطبعه يتحسب لما تأتى به الأيام فإنه ظل مطمئنا لها من دون أن يدرى لاطمئنانه سببا، كان على يقين أنها ستظل له طيلة حياته.. وكيف لا.. وهو لا يجد ذاته إلا فيها. بل ويجدها كذلك لا تجد ذاتها إلا فيه!

وقد سيطر عليه هذا الشعور بذوبانه فيها وبذوبانها فيه حتى أصبح لا يحسب حسابا للفراق إلى عام قادم، ويسأله المقربون منه عن هذا المنطق الغريب فيقول لهم بكل ثقة واطمئنان: هل تتصورونني أعيش بلا روح ومتى يحدث ذلك؟ فإذا قالوا له: إنه الموت.. أجابهم بكل يقين: كذلك غيابها عنى.. فإذا سئل: ولكنها تغيب عنك بالشهور؟ أجابهم بقول الحق جل فى علاه ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ويعقب على هذا بقوله: صدق الله العظيم، وكأنه ينهى المناقشة.

(١)

بدأت علاقتهما بسرعة رهيبة ؛حتى إنـهما تحركا بسيارته بعد دقائق من أول لقاء لهما، ولم ينته اللقاء إلا بعد أن شاركته الرأى فى أحد مشروعاته فى مجال الأعمال، فقد اصطحبها حيث ذهب للقاء أحد العملاء، وقبل أن يودعها كانا قد تناولا الغداء معا فى أحد المطاعم التى تعود على أن يتناول فيها بعض وجباته بمفرده، أو بصحبة ضيوفه من الرجال فقط، وهكذا حظيت صاحبتنا من طاقم المطعم باستقبال قد لا يمكن وصفه بأنه رائع، وقد لا يمكن وصفه بأنه دافئ.. ومع هذا فقد كان استقبالا خاصا.

وتضاعفت هناءتهما يوما بعد يوم، كان أكثر ما يشده إليها أنها صادقة فى التعبير عن مشاعرها، فهى عصبية إلى أقصى حدود العصبية إذا ما استثارها شىء تافه.. ولم يكن هذا بالطبع مما يسعده، لكنه كان يعطيه فكرة عن مدى الحب الذى يمكن أن يصدر عنها إذا ما تعلقت به، ويبدو أنه كان محقا جدا فى

هذا الرأى؛ فإنها سرعان ما ذابت فيه حبا، وكانت بعد فترة لا تقول له إنها تحبه إلا وأردفتها بأغنية تغنيها لأم كلثوم، فإذا كان مسرح لقائهما نصف مهيأ لأن ترقص على أنغامها تمايلت ما أتيح لها التمايل وتثنت ما أتيح لها التثنى.

وكانت ذات قدرة عالية على التعبير عن الحب، ولكنها فى الوقت ذاته كانت عديمة القدرة على الامتنان، فلم يحدث أن أدت واجب الشكر التقليدى الروتينى الذى يُؤدى بعد أية دعوة على غداء أو عشاء!! وكان هذا أبسط مثل على انعدام قدرتها على الامتنان، رغم قدرتها الخرافية على الحب.. وعلى صب كلمات الغرام فى أذن العاشق!

(٢)

وكان صاحبنا سعيدا جدا بهذا الحب، ولكنه كان قلقا إلى أبعد حدود القلق من طبيعة هذا الحب.. كان يعتقد أن الحب مرتبط تماما بالعطاء، وكان يجد صاحبته غير قادرة على العطاء؛ لأنها غير راغبة فيه، بل كانت تتعجب من هؤلاء المخلصين: لماذا يبذلون الإخلاص؟ وكانت ترى أن الصدقة حرام تقريبا؛ لأنها تأخذ من مال المعطى بدون مقابل منظور لها، وكانت تجزع - على سبيل المثال - لانخفاض فوائد البنوك، على الرغم من أن عقلها كان كفيلا بأن يفهم أن ذلك مؤشر رخاء أو استقرار على الأقل، مما يستدعى السعادة لا الجزع.

وعلى هذا النحو كانت صاحبتنا ترحب بالأخذ، ولكنها لم تكن راغبة فى العطاء، وكان صاحبنا يضع أمامها كل يوم اختبارا من الاختبارات الكافية بأن تلفت نظرها إلى أنه يدرك هذا الخُلق فيها، فكانت تجتاز الاختبار بما تعتبره هى

فى قرارة نفسها نجاحا، وبما يعتبره معظم الناس فشلا.. لكنها لم تكن تسائل نفسها: لماذا كان هذا الاختيار من الأصل؟ بل كانت تتمادى فتسرف فى إثبات الفشل.

وحدث ذات يوم أن عبر صاحبها عن خوفه عن أن سيارته قد تستدعى البقاء فى الصيانة الدورية لأبعد من موعد لقائهما، فسألها أن تحضر للقائه بسيارتها على سبيل الاحتياط رغم أنه لم يكن من عادته أن يلتقيا إلا بسيارته فى مواضع قريبة من مستقرها، ولم تحضر بالطبع.. وفى اليوم التالى أخبرت صاحبها بأنها قررت وضع السيارة فى الجراج لفترة طويلة لأن بعض أقاربها يطلبونها منها فى بعض الأحيان!!!.

(٣)

كانت لقاءاتهما تزداد اشتعالا، وكان أوار حبها يتلظى كما يقولون، لكن صاحبنا كان قلقا، وكان قلقه يزداد كلما ازدادت تعبيرا عن حبها بحرارة، ولكنه لم يكن يدرى كيف يختبر هذا الحب؟ وكان دائما ما يوازن بين أن يختبر هذا الحب ويتحمل الخطر الناجم عن احتمال ضياعه إذا لم يكن حقيقيا، وبين أن يضيع منه الحب نفسه للأبد حين يصدم فى الحب على هذا النحو.

ولكنه كان يعود فيقنع نفسه أن الخسارة القريبة مكسب، وأن المكسب البعيد خسارة.. ولكنه مع هذا لم يكن يجد فى نفسه الشجاعة على أن يتخذ القرار، ثم يضعه موضع الاختبار!!

ومع هذا فقد كان يجد عقله وهو ينبهه إلى أن قيامه بوضع الامتحان خير من

أن يأتى الامتحان بمحض المصادفة البحتة، وكان عقله يذكره بأن الإنسان قد لا يحس الألم وهو يستأصل بقايا الجرح أو الحرق لنفسه، بينما يتألم إذا تولى هذه العملية الآخرون.

ولكنه ظل عاجزا عن أن يتخذ القرار..

وظل أيضا حائرا كيف يضع الامتحان؟

إلى أن جاء يوم العيد وسأل صاحبته أن تشاركه فى توزيع الأضاحى، فإذا هى تعتذر بشدة ملحوظة عن عدم المشاركة فى مثل هذا العمل الذى لا يدخل السعادة إلى قلبها، وإنما يصيبها بالجزع من بعثرة المال الذى لا ينبغى لنا إلا أن نستمتع به!

(٤)

وانتهى صاحبنا من مهمته المقدسة مبكرا وانصرف إلى لقاء أهله وخلانه، وصاحبتنا تستعجل اللقاء.. ولكنه كان منقبضا من سلوكها فى الصباح إلى أبعد الحدود، وكانت مشاعر الفقراء قد ضاعفت انقباضه من أفكارها، وتخيل نفسه ـ كما يفعل دائما ـ واحدا من هؤلاء ثم تخيل نفسه وقد انصاع لأمرها، ثم عاد ليتخيل نفسه وقد حرم مما حرمته منه بتفكيرها.

وأصبح واثقا من أنه لا يريد أن يلقاها فى هذا العيد... ومع هذا فقد كان لابد من الاعتذار بالتليفون، وكان يتوقع ثورتها فتناول قرصا من المهدئات ليحتفظ لحبهما بطبيعة الاحترام الذى كان لايزال طابع علاقتهما حتى ذلك اليوم.

كانت أفكارها أكثر اسودادا من كل ما توقع، قالت له إنه ظلم نفسه لأنه التقى بالفقراء، فأصابته عدوى الحزن والاكتئاب وأصبح غير متأهل للقائها، وعادت لتعاتبه أنه لم يستمع إلى نصحها الغالى الذى كان كفيلا بالحفاظ له على اعتدال المزاج، ثم أنبأته بكل بساطة بأنها مضطرة ألا تضيع على نفسها العيد، ولهذا اتصلت بزوج أختها ليصحبها مع أختها فى نزهة نيلية قصيرة تسرى عن نفسها هذا الأثر السيئ الذى تركه فيها سلوكه غير المسئول.

وعلى الرغم من كل هذه المغالطات، فقد أبدى أسفه ثم أبدى لنفسه سعادته بأن الأمور قد وقفت عند هذا الحد، وأنها قد بحثت لنفسها عن حل بعيد عنه... ونام ملء جفونه.

ولكنه استيقظ على رنين الهاتف، وأضاء نورا خافتا فوجد الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، ولم يكن من عادته أن يرد على التليفون فى هذه الساعة المتأخرة، ولكنه وجد أنه قد نام بالفعل نوما عميقا منذ ما بعد الغروب مباشرة، ورنين التليفون لا ينقطع، وتثاءب ورفع سماعة التليفون، وإذا المتحدث زوج شقيقتها يدعوه ليفحص شقيقتها من ألم شديد تعانيه فى صدرها منذ ساعة، ورغم أنه لم يكن طبيب قلب إلا أن اليوم يوم عيد ولم يكن هناك بد من الاتصال به.

(٥)

حين انفرد بشقيقة صاحبته بعد أن فحصها فى حضور زوجها أخذ يستمع إلى شكواها بينما ذهب زوجها يوجه عنايته إلى طفلهما الصغير فى حجرة الأطفال وقد استيقظ فجأة وأخذ فى الصراخ والعويل لإحساسه بالوحشة فى

غياب والديه عن حجرته.. لم تزد «المريضة» على أن أجابته بكلمة واحدة حين سألها عما تعتقد أنه السبب وراء هذا الألم، فقالت فى صوت خافت مستكين: أنت.

فى هذه اللحظة جاء الزوج، وانصرف الرجلان إلى حجرة الاستقبال ولم يتح لهما الانفراد إلا لدقيقة لحقت بهما بعدها الزوجة التى كانت قد استجابت لنصيحة الطبيب وتناولت دواء موسعا للأوعية التاجية وصفه لها من باب الاحتياط، ودواء مهدئا من باب اليقين.

وأخذ صاحبنا يلف ويدور وهو يحاور شقيقة صاحبته بعد أن انضم إليهما زوجها وأخذ ثلاثتهم يحاولون استكناه السبب فى هذه النوبة وقد علم الآن أنهما عادا بعد ساعة وأنهما قضيا هذه الساعة فى انفعالات متبادلة شغلتهما حتى عن تبديل ملابس الخروج، ولم تكن الظروف لتسمح لهم - بالطبع - أن يتداولوا فى أسباب الانفعالات على وجه دقيق، وكان الطبيب بحكم خبرته قادراً على أن يناقش الظاهرة من دون أن يحرج أصحابها بالبوح بأسبابها.

وقد بدأ صاحبنا يفهم معنى إجابة الشقيقة بأنه السبب، وأحب أن يطمئنها أنه لن يكون السبب بعد ذلك، فقال لهما فى لهجة شبه حازمة: إن السبب فى كل ما أصابهما فى ذلك اليوم أنهما لم يكونا كريمين إلى الدرجة التى سمحا لنفسيهما بقضاء هذه الرحلة الجميلة النيلية فى غيابه.

وعند هذا وعدته الشقيقة وهى تأخذ نفسا عميقا أنهما لن يقضيا فى المستقبل أى وقت يفترض أنه ممتع بدونه مهما كانت الأسباب.. وبعد لحظة واحدة عبرت عن أن الألم قد زال نهائيا.

لم ينم صاحبنا ليلتها.. وكرر العلاج الذى وصفه منذ نصف ساعة للمريضة لنفسه هو.. ولكن بلا جدوى!

أصبح التساؤل تساؤلين، كان يسأل نفسه: هل كان هو الشخص الذى تصادف وجوده فى المرحلة الزمنية التى كان لابد لصاحبته فيها من حبيب؟

ثم كان يعود ليسأل نفسه: وهل يحتاج إلى الوجود الدائم حتى يحتفظ بحب صاحبته؟ وإلا فإنه سوف يجد هذا الحب يبحث عن طريق آخر كما حدث فى تلك الليلة؟

وهل وصلت بصاحبته فورة الحب إلى حد ألا تجد إلا زوج شقيقتها لتتوجه بمشاعرها المتقدة إليه، وأمام شقيقتها.. بل أمامه هو أيضًا.... لأنها كانت تدرك بلاشك أن الرذاذ سوف يصل إليه!!

(٦)

وكان أقصى ما وصل به التفاؤل إليه أن تكون قد صدرت عن كل الذى فعلته عن رغبة فى أن تستثيره! ولكن هل يصل بها الحد إلى هذا الأسلوب؟ هل هذه هى الإنسانة التى يستطيع أن يطمئن على حياته معها فى المستقبل؟

كان قد وصل بعقله وقلبه إلى الإجابة بالنفى، لكنه مع ذلك كان يجد صعوبة فى التخلى عن حلاوة الحب الذى يعيشه، لم يكن ـ على حد تعبيره هو نفسه ـ مستعدا لأن يضحى بحاضر مؤكد من أجل مستقبل محتمل.

ولكنه ظل يفكر فى أن يجرب اختبار الحب والإخلاص ولم يكن هذا سهلا عليه على الرغم من أنه كان قادرًا دومًا على إجراء التجارب والاختبارات، ولكنه كان يبحث عن اختبار حاسم.

وقد جاءه الاختبار بأسرع مما توقع... فقد التقيا ذات يوم بزميل قديم له لم يكن يتورع عن أى شىء فى سبيل الجمال كما يقول، ووجد نفسه مندفعا إلى أن يدعو زميله القديم إلى غداء أسماه غداء عمل، مع أنه لم يكن هناك بينهما

أى عمل، ووجد نفسه مرة أخرى مندفعا أن يترك زميله ينفرد بمحبوبته ثلاث مرات، مرة ذهب فيها إلى دورة المياه، وثانية ذهب إلى السيارة ليحضر ورقا يريد أن يطلع عليه زميله(!!!) وثالثة عاد إلى السيارة لأنه هيئ له أنه نسى أن يغلق باب حقيبتها تمامًا(!!!) أو هكذا قال.

وفى منتصف تلك الليلة تلقى مكالمة هاتفية من والدتها الجزعة التى فوجئت به يرد على التليفون، وكانت تظنه لا يزال فى الخارج مع ابنتها، وإنما طلبته من باب القلق الذى يعترى الأمهات حين يقفن فى الشرفة إذا تأخر أولادهن عن موعدهم.

(٧)

وقبل أن تضع الأم السماعة كان مفتاح يدور فى باب الشقة، وبكل طيبة الأم ناولت السماعة لابنتها وهى تقول لها إن صاحبنا على الخط، وانهمرت صاحبتنا فى سباب متصل تهاجم به صاحبنا لأنه أعطى لنفسه الحق فى أن يتجسس عليها.

واستمع صاحبنا إلى سبابها حتى النهاية، ثم قال يحدث نفسه وهى تسمعه.. إذن هو الانتحار.. ولم يبد له أنها أبدت أى اهتمام بالكلمة التى نطقها، فلم تكن قد عرفت بعد أن والدتها هى التى طلبته لتسأله على ابنتها، ولم تكن تعرف أنه قد أجاب والدتها بأنه ترك ابنتها لتوه، وأنها سوف تعود إليها بعد قليل.

ولأنها كانت تعرف الحقيقة جيدًا وهى أنها تركته منذ أربع ساعات على الأقل فقد كانت فى أشد العجب من أن يتصرف على هذا النحو من النبل الشديد.. ومع هذا فإنها لم تستطع أن تسامحه وهو يعريها أمام نفسها بكلمة واحدة لخص فيها ما حدث بالفعل..وهو الانتحار!!.

(١)

كانت والدتها طبيبة لامعة، وأصابها المرض الخبيث، وأخذ جسمها ينحل يوما بعد يوم، وكانت هى يومها تدرس الطب، فكانت تعرف أن هذا هو السرطان، وكانت والدتها تعرف كذلك، على الرغم من محاولة زملائها الأطباء الإنكار.

ولم تكن تستطيع فى سنها الصغيرة أن تغالب نفسها فتتمنى لوالدتها الرحمة بالوفاة، كانت تتمنى لها الشفاء وهى تعلم أنه أمل لن يتحقق، ولكنها كانت تتمناه، وأصبحت تعجب لصويحباتها اللائى يظنن آمالهن العريضة صعبة، فما بالهن بأملها المستحيل.

وكانت حتى وفاة والدتها تعزف معزوفة الأمل، ولم تكن بعد قد واجهت الواقع المر بغياب والدتها، ولكنها اليوم تواجه واقعا أسوأ من قلقها السابق، وفيما بعد كانت تعجب لهؤلاء القلقين الذين يريدون إنهاء الأمور على أى وضع!!

وخرجت من هـذه المحنة بخلقيـن بارزين: الحزن الذى لا نهايـة له، وفقدان الأمل.

أصبحت توقن أن الحياة عبث لا طائل من ورائه، ولكنها مع ذلك لم تتقوقع ولم تهـرب، فأناقتها مـحل اهتمامهـا، وهى كثيرة الـتردد على الكوافـير، وهى مهتمة بدراستها إلى الحدود المعقولة الـتى تضمن لها النجاح المشرف، لا التفوق الواضـح، ولا الحد الأدنى من الـنجاح، وهـى بعد ذلـك كله تقـوم فى البـيت ـ باعتبار أنها الشقيقة الكبرى ـ بواجب الوالدة، ولكنها عن قصد وعن عجز وعن رهبة لا تشغل مكانة الأم الروحية لا مع والدها ولا مع أشقائها!!

(٢)

وقد كان من الصعب عليها أن تحتل هـذه المكانة، فلا هى تنهى ولا هى تأمر، ولا هى تناقـش أباها فيما يجب ومـا لا يجب، ولا هى تضرب لإخوانـها مثلا، ولا هى ترسم لحياتهم حدودا، وكانت فى كـل هذا تصدر عن شعور التقديس لغياب الأم.

ولم تـكن تعـرف أنها مخـطئة فـى هذا الذى تـفعل، وأن علـيها أن تـقدس الذكرى وألا تـقدس الغيـاب، بل أن تقدس الـذكرى بالحضـور!! فتجعـل من نفسـها أما لوالدهـا!! وأما لأشقائها!! تـصدر التعلـيمات فى هدوء، وتـضفى المشاعر بـقوة، وتضفى ظلالا عـلى الواقع، وتنظـم الحياة بإرادة، وتجعل لـلبيت روحا، وللوقت طعما، وللحياة هدفا، ولكل شىء نهاية وبداية.

إلى أن أفاقت عـلى صدمة هزتهـا فى كيانها هزا شـديدا، حين نمى إليـها نبأ

زواج سيدة من والدها في البلد العربي الذي يعمل فيه منذ عدة سنوات. ولم يكن حبها لوالدها قد وصل إلى القدر الذي يجعلها تبحث له عن الأعذار والمبررات فيما فعل.

وكانت تظن أن أشقاءها الذين يعيشون الآن مع والدهم ومع السيدة الجديدة ثائرون، أو متبرمون على أقل تقدير، ولم يكن لها من وسيلة تستطيع بها أن تستشف الأحوال التي هناك على البعد، فلا الرسائل تفسر شيئا، ولا التليفونات بقادرة على نقل مثل هذه المشاعر العميقة.

وعاشت حياتها في قلق لا تعرف له نهاية!! وكانت - كما أسلفنا - تعجب في قرارة نفسها من هؤلاء القلقين الذين يريدون إنهاء الأمور على أي وضع، فإذا بها في هذه الآونة تريد إنهاء حالة القلق هذه على أي وضع!!

وكانت في هذه الفترة لا تزال على اهتمامها بزيها وهندامها، وقد وجدت أن زميلاتها أو معظمهن يرتبطن بأفراد من الجنس الآخر، وأتاح لها وقتها غير المشغول أن تستمع منهن إلى قصص حيواتهن العاطفية، وكانت معظم هذه القصص بالطبع مليئة بالمبالغات وافتعال المصادفات، ولم تكن مثل هذه الآمال (الكاذبة) التي لم تمر بها صاحبتنا كفيلة بإقناعها.

ولكن قصة واحدة لزميلة عزيزة عليها شدتها وهزتها من أعماقها!!

(٣)

قالت لها صاحبتها إن رجال اليوم ليسوا بتلك القدرة على التمييز بين النساء، وإن نساء اليوم قادرات بحكم الثقافة والحياة المعاصرة والإمكانات التي

فيها على صياغة صورتهن فى أعين الرجال على النحو الذى لا يقنعهم فحسب، ولكنه يبهرهم أيضا. وقالت لها إنها اكتشفت هذا بعد خبرة فى ثلاث تجارب وهى اليوم فى تجربتها الرابعة والأخيرة ـ إن شاء الله ـ لأن حنكة التجربة أتاحت لها أن تعرف أنها قد وصلت إلى مَنْ تريد وإلى مَنْ يريدها وهو مَنْ لا يستطيع العيش بدونها.

وصادف هذا أن كانت صاحبتنا قد أصبحت مشدودة بكل جوارحها تجاه هذه التجربة الجديدة التى توشك أن تخوضها بكل ما أوتيت من عزم ومن قوة، ولكنها ظلت عامين كاملين وهى لا تستطيع الخلاص؛ لأنها لم تكن قد استقرت فى ذهنها على فتى أحلامها، أو لأن الذين كانوا أمامها لم يكونوا ليبهروها حتى تحاول أن تبهرهم!! واستعادت من ماضيها أن والدتها كانت أعلى فى مستوى تعليمها من والدها ، وبدأت تفكر فى قدرها هذا، وقدر أمها التى قبلت القرين الذى هو أقل منها!!

على هذا النحو من القلق فى اتجاهات متعددة مضت حياتها، فهى قلقة تجاه حياة أشقائها مع زوجة أبيهم، وتجاه أبيها مع زوجته، وتجاه نفسها مع مَنْ قد يرتبط بها.. وهل يكون ذلك حبا أم يكون دمارا؟ وهل يسعدها وتسعده؟ أم يسعدها ولا تسعده؟ أم تسعده ولا يسعدها؟

وعلى نقيض زميلاتها كان إيقاع الدراسة والامتحانات هو الشيء الوحيد الذى يكسر قلقها لا الذى يثيره، فالامتحانات تأتى فى موعدها وتنتهى فى موعدها، وهى لا تجد من نتائجها إلا ما تتوقعه لنفسها من قبل، وهى ـ كما قلنا ـ لم تكن طموحاً ولم تكن مهملة، وكذلك كانت فى تقديرها لمستواها معتدلة لا هى مغرورة، ولا هى متلهفة ولا هى منهارة!!

حتى وجدت نفسها ـ ذات صباح ـ تستمع إلى معيد فى حلقة درس صغيرة، لكنه كان ـ كما يقولون ـ ملء السمع والبصر، حركته لا تهدأ، وحديثه سريع كأنه حفظ ما يقول مائة مرة، وقدرته على الربط بين المعلومات النظرية التى فى الكتب والمعلومات التى فى الواقع لا حد لها، وبعد كل هذا فقد كان يحب أن يسمع الآراء الخاطئة ليرشد الطالب منهم إلى ما جعله يخطئ.

كانت هذه النقطة الأخيرة بالذات هى أكثر ما شدها إليه بجاذبية غريبة وقوية، فقد كانت تحس أنها كالجوهرة التى تحتاج صقلا، ولن يفلح فى هذا الصقل إلا رجل من هذا النوع!

وكان أشد ما حيرها فى هذا اليوم أن هذا المعيد قد تطوع من تلقاء نفسه فأبدى استعداده لهم جميعا أن يسألوه عما قد يصادفهم من صعوبات ولو فى الحياة العامة وترك لهم تليفونه، وهى لا تذكر هل كانت هى الوحيدة التى سجلته فى أوراقها بهذه السرعة العجيبة! أم إن هناك من فعلت مثلها؟ وهل لاحظ عليها زملاؤها ذلك أم لا؟ وكانت على عادتها فى القلق المتصل قد أخذت تكرر على نفسها مثل هذه الأسئلة.

لم تكن تريد أن تصدق أن هذا الذى يلتقى بالعشرات سوف يكون من نصيبها هى، ولم تكن تستهين بنفسها، لكنها ـ كما قدمنا ـ لم تكن مغرورة، ومن أين يأتيها الغرور، وهى لم تحقق من قبل شيئًا ذا بال فى حياتها؟ هكذا كانت تقنع نفسها باستحالة التحول إلى الغرور، ولكنها لو نجحت فى هذه الخطوة فسيصيبها الغرور، هكذا كانت تحدث نفسها، إذن فلا داعى للمحاولة

ولا للنجاح حتى لا يصيبها الغرور.. هكذا كانت نفسها القلقة تتحدث إلى نفسها المفكرة!!

(٥)

وعلى الرغم من هذا فقد وجدت نفسها مدفوعة دفعا إلى أن تبدأ هذا الطريق، ولكنها طوال سيرها فيه لم تفلح فى أن تخفف من قلقها!! وكان صاحبها لا يريد لها أن تنجح فى الحب بقدر ما يريد لها أن تتغلب على قلقها، ولم يكن هذا بالأمر العجيب على أمثاله، فلم يكن فى إمكانه قبول مبدأ التفكير فى حبها إلا بعد أن يطمئن إلى استقرار نفسها، وكانت هى لا تريد أن تدع القلق إلا بعد أن تطمئن إلى الحب.. ومع هذا فهو يقنعها بأنها محبوبته، وهى تقنعه بأنها غير قلقة على الإطلاق. ولكن تصرفاتهما غير الواعية كانت تفضح حقيقة نفسيهما.

كان صاحبها يدرك أنه لا بد أن يتخذ من ناحيته خطوة تطمئنها، ولكنه كان يعرف أنه كلما تقدم خطوة إلى الأمام فى هذا الاتجاه فسوف تكون نكستها أكبر حين يبتعد عنها إذا ما يئس فى طمأنة قلقها، وكانت هى قانعة بما هى فيه ولكنها كانت تخشى ضياعه أو انقطاعه.

ومع هذا كله فقد كان من العجيب أنها لم تستطع أن تنقل إلى نفس صاحبها حمى القلق التى كانت تنتابها على الدوام! ولم يكن صاحبها قادراً ولا كانت هى قادرة على توقع النهاية التى سوف تنتهى إليها علاقتهما، ولكن الشىء المؤكد الوحيد ـ فى ذلك الوقت ـ أنه لم يكن يحرص على الارتباط بها بقدر ما كانت تحرص هى على الارتباط به!

وقد حدث ذات يوم من الأيام حادث بسيط جدا مما قد يحدث كل يوم، لكنه كان له أكبر الأثر فى مستقبل علاقتهما.

كان صاحبنا قد تطبع - إلى حد كبير - بالمجتمعات الأوروبية المفتوحة فى علاقة الناس ببعضهم، ولهذا فإنه لم يجد حرجا ذات مرة أن يقدم (تلميذته) إلى (زميل) آخر من زملائه، وأن يطلب إليه مساعدتها على تفهم جزء من مادة دراسية كانت هى فى حاجة إلى مساعدة فى تفهمه.

وكان هذا الزميل ينظر إلى صاحبنا على أنه سلفه الذى يتمثل بخطه، ويسعد بتقليده، وينجح إذا ما حل محله فى الموقع الذى يتركه اليوم إلى موقع أكبر.

(٦)

وبعد لقاءين بين الزميل وصاحبتنا لم يكونا خالصين بالطبع لوجه المذاكرة، وجد صاحبنا زميله يسأل عن السر الرهيب وراء تعلق صاحبتنا به! ولم يكن من شأن صاحبنا اللف ولا الدوران، فهو يقص على زميله كل ما فى جعبته من مظاهر السطح، وحقائق العمق، وكان صاحبنا كذلك واعيًا لسبب السؤال ولطبيعة العلاقة المحتمل نشوءها.

ولكن هذا لم يثنه عن أن يصرح بكل ما يعرف من حقائق، فقد كانت فلسفته يومها - كما أقنع بها نفسه - أن هذا الزميل قد يكون أحوج منه إلى إثبات نجاحه فى علاج هذه الفتاة التى لا تستحق إلا كل حب، بينما هو غير قادر على أن يعطيها الحب وهى قلقة.. ولهذا فقد بدأ ينسحب من حياتها فى تدرج يتواءم مع دخول زميله إلى حياتها فى وقت مواكب.

ومن العجيب أن أيا منهما لم يكن يجد غضاضة فى نفسه من جراء التفكير الذى كان من الممكن أن يجابها به نفسيتيهما لو فكرا فى هذا الأمر تفكير ذوى الكرامة أو تفكير أهل الصعيد.

وكلما اجتازت صاحبتنا مرحلة من مراحل قلقها كلما ازداد تعلقها بالحياة وبالمستقبل، بينما كان صاحبنا يزداد بعدا عنهما طبقا لخطته الموضوعة حتى إذا ما قاربت تمام الشفاء كانت علاقتها بصاحبها الأول قد أوشكت على الانقطاع النهائى، بينما تطورت علاقتها بصاحبها الثانى إلى مرحلة صياغة أسس الحياة الزوجية!

(٧)

وفيما قبل الزفاف بأسبوع تصادف أن تقابلا مع صديقهما المشترك، ووجداها فرصة للالتقاء حول طعام الغداء فى فندق كبير، وراع صاحبنا الأول ساعتها إحساس قلبى جارف، يدفعه إلى التفكير فى طبيعة حبه السابق لهذه الفتاة كما أنه أخذ يسأل نفسه هل هى أقل منه أم أكثر منه استقرارا وهدوء نفس؟.

ومع هذا كله فقد خرج بقوة إرادته وقد أقنع نفسه أن هذا الحق ليس له على الإطلاق، وأن الاختبار الحقيقى لشخصه وشخصيته هو فى تغلبه على مثل هذه النزعة الشريرة على حد تعبيره لنفسه.

وكان من الصعب عليه أن يغالب نفسه، ولكن خلقه ومثاليته وشدته على نفسه ساعدته على أن يبتعد عن أى لقاء تكون فيه أية فرصة محتملة للقاء بها .

وفيما بعد عامين تصادف أن التقى بها فى مستشفى لم يكن يحتمل أن يلتقيا فيه.. وفى براءة شديدة قالت له إنه لم يمض عليها يوم منذ زواجها إلا وفكرت فى الاتصال به أكثر من ثلاث مرات.

ولم يكن صاحبنا عاجزًا عن أن يعترف لها بأن هذا هو السبب الذى من أجله لن يعطيها الفرصة لهذا الاتصال فى المستقبل وعلى الرغم من هذه القسوة الشديدة وغير المبررة فإن صاحبتنا لم تفزع ولم تتضجر.. وإنما قالت له فى بساطة شديدة إنها مضطرة لأن تخبره بحقيقة قد لا يصدقها.. وهى أنه شخصيا يناله كل يوم من السباب المتصل قدر كبير جدًا بعضه من زوجها وأكثره منها هى نفسها لأنه كان السبب فى ارتباطهما..

وكان صاحبنا كعادته حاضر الذهن فقال لها إنه يعرف هذا، مع أنه لم يكن يعرف من أمرهما شيئًا، ولم يكن يتوقع أن تكون حياتهما على هذا النحو، وأنى له أن يعرف أو يتوقع ؟ إنما هو باعتبار الأستاذية أو الأسبقية لابد أن يكون فى موقف أقوى من موقف تلاميذه، ولهذا فإنه يزعم فى سرعة بالغة أنه يعرف مالا يعرف، حتى يحافظ على أسبقيته فحسب.

وحين تأمل بعد دقيقة هذا الموقف الذى وضع فيه نفسه أدرك أنه ارتكب من الحماقة ما لا تسمح به الحكمة، ووجد نفسه مضطرًا لأن يصلح الموقف الذى وضع نفسه فيه، ووجد بدهيته تسعفه بأن يردف فيقول: ولكن هذا على أية حال خير من أن أكون أنا الذى أتولى السباب! وعلى الرغم من أنه كان يظن نفسه بهذه الجملة قد كسب الحوار كله إلا أن صاحبتنا أجابته بسرعة: نعم.. أعلم هذا؛ لأنك كنت دائمًا وستظل نموذجا لجبل الجليد.

وظن صاحبنا أن صاحبته تقول جملة من التى تحتمل المعنيين، ولكنه حين خلا إلى نفسه لم يجد إلا معنى واحدًا.. وعزّ عليه أن يكون من الجليد، ولم يسعده أبدًا أن يكون جبلاً!

(١)

لا يستطيع أن ينكر أنه أحبها كما لم يحب أحدا قبلها ولا بعدها، ولا يعنى هذا أن حبهما كان بمثابة قمة الحب بالنسبة له و ليس بالنسبة لها، وإنما كان حبهما لبعضهما طرازا مختلفا عن كل ما عرفه كل منهما عن الحب من قبل ومن بعد.

كان يحس أنها تستبطن العطف عليه فى كل لحظة من لحظات حبهما، ولم يكن فى ظن الناس ولا فى ظن نفسه بحاجة إلى هذا العطف، وكيف يكون كذلك وهو يصعد درجات مجده بثقة وباستمرار؟ وكيف يكون كذلك هو ملاذ السائلين ومحط أنظارهم؟

ولكنها على الرغم من كل هذه المظاهر كانت قادرة على أن تعرف أنه فى حاجة إلى العطف، ثم إنها كانت قادرة على أن تقدم له هذا العطف دون أن تجرحه ولو للحظة واحدة، مع أنها كانت تضعه فى كثير من الأوقات فى كرسى

التلميذ بل وفى هودج الطفل فى بعض الأحيان، ولكنها كانت تفعل هذا بأمومة شديدة لا يكاد المرء مهما تقدم فى السن ينكر أنه فى حاجة إليها.

كانت تتعمد أن ترى فى صاحبنا كل ما لا يراه فى نفسه، ولم تكن تفعل هذا إلا لكى تجعله يرى صورة نفسه فى مرآة من نوع عجيب لم يقدر لأحد من البشر أن يعرفها حتى الآن.

كانت مرآتها تعكس صورة المستقبل جنبا إلى جنب مع صورة الحاضر.. وكانت الصورتان فى الحق صادقتين تمام الصدق، ولم تكن هذه المرآة قادرة على أن تفعل هذا إلا لصاحبنا، ولم تكن قادرة على أن تفعل هذا إلا حين لا يكون أمامها إلا صاحبنا، وكانت المرآة قادرة على أن تطرح صورة أخرى للمستقبل إذا ما بدل صاحبنا من الانطباعات التى توحى بها هيئته أمام المرآة.

وهكذا فقد كان حريصا على ألا يظهر إلا نفسه كما هى رغم قدرته على التلوين، وكان إذا وجد الفكرة التى تركها حديثه بعيدة عن تصوير حقيقة نفسه، اعتذر وعاد ليصحح الصورة، ولم يكن يفعل هذا إلا عن شغف حفى بأن يرى صورته الأخرى فى المرآة.

(٢)

كانت تصرفاتها كلها تنطق فى كل حين بأنها تحبه، ومع هذا فإنها لم تورد له هذه الكلمة على لسانها ولو لمرة واحدة، وكانت فى أحاديث أخرى توحى له بأنها تربأ بهذه الكلمة أن تكون من كلمات القاموس اليومى أو القاموس الأسبوعى.

كما كانت مع هذا لا تكف عن السخرية الشديدة من الذين أحبوها على مدى عمرها الأخضر، وكان ينتهز الفرصة ليدخل نفسه ضمن هؤلاء ويحدثها بخوفه من أن تذكره فى غد قريب أو بعيد بمثل ما تذكر به هؤلاء من سخرية فلا تجيبه إلا بقولها: وهل تعتقد ذلك؟ فإذا حاول أن يترجم هذا إلى اعتراف بحب من نوع آخر، لم يزد ردها على ابتسامة مليئة بكل خلجات النفس العاشقة وإشراقاتها.

ولم تكن تخفى جزعها حين يغيب عنها مع أنها كانت قادرة على هذا ببساطة شديدة، ولكنها كانت تبدو متلهفة تمام التلهف حين تسمع صوته بعد أى غياب قصير، وكانت تحيط ببرنامجه للغد أكثر مما قد يحيط هو به، وقد حدث فى مرات عديدة أنه لم يتذكر ما كان ينتوى عمله إلا عند سؤالها له عما فعل فى هذا الشأن، وعند ذاك كان يتذكر أنه كان من المفروض أن يفعل ما لم يفعل.

وكانت تشير عليه بتعديل بعض برامجه بما يكفل لها الاطمئنان على راحته البدنية أو الذهنية، وكانت تدفعه إلى الخلود إلى الراحة حين تحس أنه أسرف على نفسه، وكانت تدعوه إلى العودة إلى العمل حين تراه قد بدأ يميل إلى أن يخلد للراحة.

وعلى سبيل الإجمال كانت تعد نفسها - وإن لم تعترف - مسئولة عن برنامج يومه وغده وبعد غده حتى من دون أن تراه أو يراها، وكانت تكتفى فى تقديرها لحالته الصحية بسماع صوته، وكثيرا ما كانت تنهى إليه شعورها بأنه مرهق للغاية فلا يوافقها ويظل على هذا الاعتقاد حتى يصبح الصباح التالى ويجد نفسه لا يزال مرهقا رغم كل هذا النوم.

وكان يعجب لهذه القدرة الخارقة على الإلمام بحاله الذى لا يلم هو به،

ولكنه كان يعود ليحدث نفسه بأن الأطباء قد يعرفون عن المرضى أكثر مما يعرف المرضى عن أنفسهم.

(٣)

كان يجد فى حديثها متعة لا تنتهى، وكان يجد فى ثقافتها آفاقا عريضة لم يكن له بها عهد قبل أن يتعود على حديثها إلى هذا الحد، وكان يراها أعظم مما ترى نفسها، وكان يتمنى عليها أن تتيح لأفكارها الخلود، ولكنها كانت تحتج عليه بأن أفكارها لم تسعدها ، ولهذا فإنها لا تود أن تكون سببا فى شقاء الآخرين.

ومع هذا فقد كانت تعترف بعظمة كثير من هذه الأفكار، ولكنها كانت تضيف أنها خدعت نفسها زمنا طويلا، وأنها لهذا لا تريد له أن يخدع نفسه، وكانت تعتقد أن الحكمة تقتضى مسايرة التيار بقدر ما تقتضى الإبحار ضده فى بعض الأوقات.

(٤)

كانت مثيرة إلى أبعد حدود الإثارة، ولكنها كانت تغلف هذه الإثارة بطبقات غير مرئية من الجليد الشفاف.

وكانت تربأ بنفسها عن أن تكون محل إعجاب أو انبهار، لأنها لا تريد أن تكون ممن يجوز فى حقهم الانبهار والإعجاب، وكانت تحرص على كل صفاتها الأنثوية دون أن تجعل هذه الصفات الأنثوية تطغى على صفاتها الإنسانية.

وكانت إنسانيتها من نوع فريد فى هذا الزمان.. كانت تتعاطف من دون أن تنعطف.

وكانت وجدانيتها طرازا رفيعا من صدق الأحاسيس والمشاعر دون أن يؤدى بها هذا إلى أن تغير من اتجاهاتها الفكرية أو العقلية.

وكانت فى سياساتها تجاه خلق الله أقرب إلى المتصوفين الذين تمكنوا من أن يرتقوا بأنفسهم إلى الحد الذى يجعلهم يخشون أن يقع فى أنفسهم فى أى وقت اعتراض على ما قدر الله.

(٥)

كانت تنظر إلى مستقبلها بخوف ورجاء، وكانت تتجاوز النظر إلى ماضيها حتى لا تشعر بأية درجة من الرثاء، وكانت لا تفتأ تحمد الله على حاضرها، وتحاول أن تجعله أكثر إشراقا وبهجة، وهى تفعل هذا بشعور يختلط فيه الأمل فى الله مع الخوف من الأيام، وكانت تحاول ألا تشرك صاحبها فى كل قلقها هذا لأنها كانت تشفق عليه من حياتها.

وكان هذا يدفعه إلى أن يقترب منها بأكثر مما كان يظن، ولم يجد نفسه أبدا نادما على أنه قريب منها، ولم تحدثه نفسه أبدا بأن يبتعد عنها.

ولا سمحت هى له بأن يقترب أكثر من الحد الذى فرضته هى ورسمته وصورته، ولا سمحت هى له بأن يبتعد إلى الحد الذى كانت تزعم له أنها تريده ألا يتخطاه.

وهكذا ظلا إلى يومنا هذا حبيبين لا يفرق بينهما الزمان، وإن لم يعترفا بذلك.



(١)

كان صديقى هو صاحب المبادرة إلى التعرف بفتاته، كان قد انجذب إليها بطريقة لا يعرف كنهها ولا وصفها، ولكنه يستطيع أن يتذكر أن انجذابه كان خفيفا، وأن هذا الانجذاب لم يصل فى مرحلة من المراحل إلى الدرجات العليا، وهو لا يذكر أن هذا الانجذاب قد بقى على حال واحدة، ولا على درجة واحدة، وإنما كان يتأرجح على الدوام، كان يصل إلى الذروة حين يكونان معا وكان يصل إلى أقل درجاته حين يبتعدان.

وكان يستنتج من هذا أن التقارب المادى هو الذى يروى حبهما ويغذيه، وأن التباعد المكانى هو الذى يحول بينه وبين النمو.. ولكنه كان يتذكر أيضا أنه غاب أسبوعا فى رحلة إلى الخارج فعاد وهو أشد ما يكون شوقا إلى صاحبته، وهكذا أصبح صديقى غير متأكد من طبيعة الجاذبية التى تربطه بصاحبته.

وكان صديقى يتأمل درجات انجذابه إلى صاحبته فى اللقاء الواحد فيكتشف أن اللقاء يبدأ فاترا، وأن الأشواق تستبد بهما وهما أقرب ما يكونان إلى الفراق، ومع هذا فإنه كان يتذكر أوقاتا كثيرة للفتور تسود لقاءاتهما، وكان يحاول أن يتأمل سر الجاذبية الطاغية التى تمكن صاحبته فى بعض الأحيان من توجيهه كما تشاء فيجد نفسه وجها لوجه أمام مواقف استطاع فيها أن يصمم على اختياره، وأن يجعلها تخضع لما يحب.. كان صديقى يطيل التأمل والتفكير بدون كلل ولا ملل؛ لأنه لم يعرف فى كل من عرفهن من قبل طباع محبوبته هذه، التى كانت استثناء من كل قاعدة، وتجسيدا لكل خيال.

(٢)

كانت لمحبوبته ـ على سبيل المثال ـ قدرة رهيبة على إثارة اهتمامه بكل ما يعنيه لا بكل ما يعنيها.

كانت تسأل عمن قابل من زميلاته ثم تحدثه عن هؤلاء حديث النساء عن النساء، وهكذا كانت تفتح أمامه الباب على مصراعيه ليتأمل نوعا من الحوار الحى لم يكن له به عهد من قبل، وكانت تربأ بمنطقها الأخاذ أن ينحصر فيما تعودت أترابها أن ينحصرن فيه، وإنما هى تسبح فى بحور من خيال تارة، وبحور من خبرة تارة أخرى .

وكانت تجيد إلهاب الخيال بالجوانب الطريفة من كل قصة، وبالجوانب الإنسانية فى حديثها عن كل شخصية، وكانت لا تعدم الفرصة التى تمكنها من أن تضع حبيبها فى أفضل موضع من القصة كلها، فهى تدخر له أن يكون المشبه به لأنبل الناس ولأذكى البشر وأعقل العقلاء واحكم الحكماء.

(٣)

وكانت تجيد التلاعب بنبرات صوتها إلى أبعد مما يظن أى إنسان، كان صوتها قادرا على أن يوحى بالبطش الشديد وبالشوق الأشد، كما كان قادرا على أن يوحى بالغضب السريع ،ثم بالرضا التام، وبما بينهما من رضا على مضض وانتظار وبما يقارب هذا الرضا من تريث حتى تتضح الصورة.. وكانت فى كل هذا وغيره تستمد طاقة لا حدود لها من ذكاء العقل والنفس، ومن القدرة على الإقناع وعلى التلوين.

وكانت حريصة كل الحرص على ماكياچها ولم يحدث أن رآها حبيبها بدون مكياچ، وكان كثيرا ما يمزح معها ، ويكرر على مسامعها قصة چاكلين كنيدى حين اشترطت على أوناسيس ألا يراها بدون مكياچ، وكانت تتجاوز عن هذا وتقول إنها تعرف أن من حقه أن يراها بدون مكياچ، وأن هذا اليوم سيأتى بلا ريب، ولكن الأيام مضت بدون أن يأتى هذا اليوم.

وكان كثيرا ما يلفت نظرها إلى أن ثيابها جميلة، ولكنها قابلة لجمال أكثر وأكثر لو أنها تنازلت عن بعضها، وكانت تتجاوز عن هذه الملحوظة بذكاء نادر، وتحولها إلى عجز منها عن أن تصل إلى سر القدرة المتاحة له، والتى ستصل إليها بكل تأكيد لو طالت عشرتها له؛ لتدرك كيف تصل إلى البساطة التى هى قمة الأناقة وكانت تردف هذا بقولها إنها تؤمن بهذا ، ولكن ليست أية بساطة بكفيلة بالأناقة، إنما هى نوع متميز جدًا من البساطة فحسب وليس كل أنواعها، أما هو فى رأيها فقد أدرك هذا السر وأما هى فلاتزال تحاول أن تدركه.

(٤)

وكان يطلب إليهـا أن تقلع عن بعض العادات التى لا يحبها ، وكانت تقول له إنها مقتنعة بكلامه وبما وراء كلامه وبرأيه وبصحة رأيه، ولكن تحقيق مثل هذه الرغبة لا يتـأتى إلا إذا طالبها هو بشىء من الرجاء والدلال، ولا يمكن أن تتحقق إذا كانت فى صورة الأمر والنهى.

وكان ينخدع بهذه الفكرة البراقة، فإذا ما لجأ إلى محايلتها كانت استجابتها نوعا آخر من المحايلة بأن يتنازل بعض الشىء عن أفكاره المثالية، وأن يتقبل أخطاء البشر ولو إلى حين.. وهكذا كان يجد نفسه وقد اقتيد إلى الخندق مسلوب السلاح.

(٥)

كانت تدفعه إلى التفكير فى المستقبل، فكان يروعه منها إقبال مفرط على متع الحياة، وكان يظن أن عقلها كفيل بأن يرتفع بها عن هذه المتع إلى سعادة النفس، فإذا بها تحاول أن تفرض عليه رؤيتها للنجاح، وكان يحاول أن يجعل للمثل العليا مكانا فى تصورها للنجاح فكانت ترد عليه بأنها لا تنكر قيمة المثل العليا، ولكنها تضع إلى جوارها الرغبة المفرطة فى الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا ما دامت قد جاءت عن طريق مشروع، وكان يحاول أن يقنعها أن السعادة تتأتى بالرضا أضعاف ما تتأتى من المشروعية، ولكنها لم تكن لترغب فى التنازل أبدا عن بعض ما رسمته فى خيالها من مستقبل.

وكان كل هذا يقودها إلى بعض الإفراط فى تقديرها لمواهبها أو لطاقاتها، ولكنها كانت أذكى من أن تجعل هذا الإفراط يقودها إلى إفراط فى بذل الجهد، وإنما كانت تكتفى فى ذلك بالإفراط فى الحديث عن مهاراتها وإنجازاتها، بينما هى لا تنجز شيئا ذا بال.

وهكذا كان على محبها أن يسدد لها قيمة الفاتورة لأشياء وهمية.. وكانت قادرة على أن تجيد المطالبة بهذا الثمن، ويبدو أنه لم يمر على مسامعها أبدا أن ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام، ومن العجيب أن الثمن، لم يكن أبدًا نقدًا ولا مادة، وإنما كان تمثيلا تضطر صاحبها إليه حتى يظهر إعجابه وانبهاره بما ليس فيها، وبما تعرف هى أنه يعرف أنه ليس فيها، ولكن طعم الحياة لم يكن مستساغا لها بغير هذا النفاق العاطفى.

(٦)

وكانت قادرة على إظهار أكبر قدر من الانبهار العاقل، لا هذا الانبهار الأمريكى المجنون الذى قد يصادفك فى كل لحظة من الحوار حتى وأنت تذكر أسماء أولادك ، كان انبهارها قادرا على أن يصنع شيئا مما هو أقرب إلى اللاشيء، وكانت لا تجود بهذا الانبهار إلا فى الحالات التى تحب أن تبدو فيها كأنها فى أحسن حالاتها العاطفية أو المعنوية.

كانت تستطيع ـ على سبيل المثال ـ أن تنبهر بكثير من صفات قيادته لسيارته على الرغم من أنه لم يكن يعرف أن لمثل هذه الصفات وجودا فضلا عن أن تكون مستحقة للانبهار، ومع هذا فإنها لم تكن تطلب من الطرف الآخر أن ينبهر لها بصفاتها بالدرجة نفسها، وإنما بأضعاف هذه الدرجة.

كانت تجيد التعبير عن أمنياتها، وكانت قادرة على أن تجعل التعبير عن هذه الأمانى دافعا لتحقيقها، فهى تذكر صاحبها أولا بفضله فى تحقيق أمنية سابقة، وتفيض فى حديث عن عظمة العشاء السابق على سبيل المثال، ولا تمل من الإطراء على ذلك العشاء حتى يسألها صاحبها عن العشاء الذى تتمنى أن يجمعهما الآن، أو حتى يسألها إن كانت تعتقد فى وجود مكان أروع من ذلك المكان.

وكانت تفعل هذا كله برشاقة نفسية بالغة لا يحس معها صاحبنا إلا بالنشوة فضلا عن السعادة، ولكنه مع ذلك كان يجد نفسه فى النهاية وقد أصابه الإجهاد من كثرة الأدوار التى قام بها حتى يرضيها.

وكان من الصعب عليه أن يؤدى كل هذه الأدوار فى كل حين وآن، ولهذا فإنه بعد عام واحد من صحبتها آثر على الرغم من كل شىء أن يفترق عنها حتى لا يخسر حياته ، فقد كان يعتقد أن التمثيل المستمر هو أكبر تضحية بذاته، ولم يكن عنده الاستعداد لهذه التضحية.

ومع هذا فإنه لايزال يسأل عنها فى ذكرى لقائهما الأول من كل عام، ولم تكن تخفى سعادتها بهذا، ولا نشوتها، ولم تكن فى الوقت ذاته تُظهر أبدًا أنها كانت تنتظر هذا السؤال ولا أنها كانت ستعانى شيئًا لو أنه لم يحدث.

وكان صاحبنا يكتفى بموهبة التمثيل بيوم واحد فى السنة لايعرف غيرها موقعه بالتحديد بين الأيام؛ لأنه لم يكن يوافق إلا يوم لقائهما هما فقط.

(١)

كان يأسره إليها قدر كبير من المزايا الخلقية والعقلية والعاطفية، ومع هذا فقد كانت علاقتهما أقرب إلى ما تكون إلى الوصف القائل إنها علاقة بلا مطالب.. كانت هادئة الأعصاب، طويلة النفس ، مترفعة عن الصغائر.

وكانت تضحى بكثير من الفرص التى لا تمر بأقرانها إلا ويستغلونها، كانت تتعفف عن ثقة شديدة، وكانت تفهم الحياة على نحو متفتح ومتفائل، ولم تكن تريد من الحياة إلا ما هو معقول، ولم تكن تمنى نفسها فى حساباتها لمستقبلها أو حاضرها بما هو أكثر مما هو متوقع، ولكنها مع ذلك كانت لا تقبل أن تبدأ مشروعا لا يبدو لها كفيلاً بأن يفى بالحدود الدنيا من تطلعاتها.

كانت تناقش الأمور فى موضوعية شديدة، وكانت تخلص النصح، وكانت حين تناقش وحين تقدم النصح تفعل هذا فى هدوء شديد جدا، هو ذلك

الهدوء الذى لا ينشأ إلا عن ثقة شديدة بالرأى، وبالإخلاص فى تقديم النصح.

حين عرفها صاحبنا لم يكن مشدودا إليها ولا منجذبا، ولكنه احترم ثقتها فى نفسها حين أتيح لهما أن يتعارفا، وحين توثقت علاقتهما ...كان يتذكر على الدوام لقاءهما الأول، ويكاد يجزم أنه كان من الممكن أن يكون الأخير لولا هذا السر الذى يستعصى على البشر أن يعرفوا به ما يخبئه الغيب لهم.. وحين التقى بها للمرة الأولى لم يكن يقدر أنه قد يلتقى بها مرة ثانية، فلم تكن فى أبهى صورها ولا فى أبسطها، وكان صاحبنا مغرما بالبساطة الشديدة، فإن لم يكن فبالتعقيد المطلق، ولم يكن يستطيع أن يهضم أية درجة أخرى مابين هذين الطرفين المتنافرين.

(٢)

وحين التقى بها للمرة الثانية لم يكن شعوره تجاهها بأفضل من شعوره تجاهها فى اللقاء الأول.. ولكنه منذ اللقاء الثالث بدأ يكتشف فيها من الإيجابيات ما جعله ينجذب إليها، وكان إذا حادثها بالتليفون لا يجد فى نفسه الرغبة الجامحة فى الاستمرار بالحديث لأكثر من دقيقتين، ولكنه كان يشعر بالسعادة لمجرد سماع صوتها، ولطريقتها الهادئة والحنونة فى الإجابة عن أسئلته التقليدية التى يسأل بها عن صحتها أو أحوالها أو أخبارها.. ومع أنه لم يكن يتعطش إلى حديثها التليفونى، فقد كان يفتقده إذا غاب عنه أو تأخر.

وكان إذا صحبها إلى مطعم أو مشرب أو محفل لا يحس بالنشوة العارمة ولا بسخونة العواطف وتأججها، ولكنه مع ذلك لم يكن يستطيع أن ينكر أن

صحبتها سعيدة مبهجة، ومع أنه قد تعود نزق كل مَنْ عرفهن قبلها، وتعود الاستمتاع بهذا النزق والاستمتاع بترويضهن، إلا أنه مع ذلك كان يحس بمتعة أخرى وحقيقية فى صحبة عقلها الهادئ، ونفسها الراضية.

(٣)

وفى أعقاب كل لقاء كان يجد نفسه وكأنها هادئة راضية، ولكنه كان يستغرب من عقله وفكره بحثهما عن المتاعب، و لم يكن يدرى جوهر الحقيقة فى أمر الحب، وكان يسأل نفسه: هل لابد للحب لكى يكتمل من هذه النشوة العارمة والعذاب الدائم والخلاف المتواصل والشقاق لأدنى سبب؟. وكان عقله كثيرا ما يتجاوز هذا المعنى ليسأل نفسه : هل توقفت علاقة بعض الناس بالحب على هذا النوع الهادئ المريح؟

وكان يحدث نفسه أن الذين عاشوا حتى القرن الماضى لم يعرفوا حوادث السيارات ولا مشكلاتها على سبيل المثال، ولكن نفسه تذكره بأن هؤلاء كانوا يقودون الخيل بسرعات رهيبة، وأنهم كانوا بلاشك يتعرضون لحوادث ومصاعب أخطر وأفدح من حوادث السيارات، ثم تعود نفسه لتحدثه أن بعض الناس لا يركبون السيارات فى الوقت الحاضر، وأن كثيرا من الذين عاشوا فى الأزمنة السابقة لم يكونوا من الفرسان.. ولا يزال عقله يدور ويدور، ولكنه يعود إلى نفس السؤال المحير: هل يستطيع أن يواصل هذا الحب ..أم أنه لن يستطيع؟.

وكانت الأيام واللقاءات تمضى فلا يشتعل الحب، ومع هذا فإنه لا يموت،

بل ربما ازداد عمقا، ولم يكن هذا الازدياد فى التعمق يزيد على درجات قليلة هى أقرب ما تكون إلى السطح كأنما هى أجزاء من المليمتر، ومع هذا فإن ذلك الحب الذى نما لم يكن ينقص أبدا.

(٤)

وكان صاحبنا لا يفتأ يواجه بعض الآثار المترسبة فى قرارة نفسه من جراء تجاربه السابقة، فإذا هو يقارن بين هذه التجارب العارمة وبين صاحبته، فيحس بمدى ما أنعم الله به عليه، فإذا انصرف إلى التفكير وشردت به أفكاره، تغلبت عليه نفسه الأمارة بالسوء، وودّ لو عادت به الأيام إلى تلك التجارب العاصفة بكل ما كانت تحمله من هموم وشكوك وألم.

وجاء عيد ميلادها فقدم لها هدية متوسطة القيمة.. لا هى بالمتواضعة ولا هى بالبراقة، ولكن سعادتها بها كانت فوق ما يتصور وأقصى من كل ما مرّ به من سعادات صادفها فى وجوه مَنْ عرفهن.. وقاده هذا إلى التفكير فى مدى الرضا النفسى، وكيف يسعد صاحبته قبل أن يسعد الآخرين.

(٥)

إلى أن جاء يوم كانا فيه فى قمة صفائهما النفسى والعقلى، وسألها عن أحلامها بالنسبة للزواج، ففوجئ بها تقول له فى هدوء إنها لا تفكر فى الزواج

إلا أن يأتى عليها الـوقت الذى يجب فيه أن تتزوج لتؤدى وظيـفة الحياة بإنجاب طفل أو أكثر.. وعجب صـاحبنا لهذا الرد ، ولكنه تماسك وسـألها: ومتى يكون هذا؟ فـقالت إنـها تعـتقد أن هـذا يكون فـى حوالى الـثلاثيـن، مع أن أسرتـها والقريبين منها يقولون إنه عادة ما يكون قبل ذلك.

ومع هذا لم يجـد صاحبنا فى نفسه الـشجاعة أن يسألها: وهـل تقبل به الآن زوجا؟ ولكنه فـى اليوم التالى سألها السـؤال الذى كان ينبغى له أن يسـألها عنه منذ فترة طويلة.. هكذا قال لها.. وفى بساطة شديدة أجابته بأن هذا يتوقف عليه هو.. إذا أرادها فـمرحبا وإذا لم يـرد فإن الأمر فى يده!! ولـم يستطع فـى تلك اللحظة أن يعلق بأى شىء.

ولكنه عاد إلـى الحديث بعد يومين وسألـها: لماذا هى مستسلـمة هكذا؟ ولم تعبر عن أى نوع من الغضب تجاه هذا الوصف بالاستسلام، ولم يكن هذا غريبا عليها بالطبع وهى التى وصلت إلـى أقصى درجات الثقة بالنفس، وان كان هذا غريـبا علـى صاحبـنا الذى لـم يصادف هذا الخـلق فيـمن سواهـا ممن عرفـهن ووصل الأمر بها إلى أنها لم تكلف نفسها عناء أن تلفت نظره إلى أنه لايصوغ السؤال إلا فـى يوم أو يوميـن، وإنما أجابته فـى هدوء شديد بـقولها: إن الـنظام الاجتمـاعى يجعـل المبادرة فى يـد الرجل، ولهذا فـإنها لا تكـلف نفســها فوق طاقتها مادام الأمر معقودا بيد الرجل.

(٦)

وبعد ثلاثة أيام أخرى عاد صاحبنا ليسألها: كيف قبلت على نفسها أن تمضى

فى علاقتـها به إلى هذا الحد، وكـل هذه المدة، بينمـا هى غير واثقة تمـاما أن هذا سينتهى بالزواج؟.

وفى هدوء شديد طلبت منه لأول مرة طيـلة علاقتهما أن تسأله سؤالا واحدا قبل أن تجيـب عن سؤاله، وأردفت تسألـه عن النسبة التى يـظن أنها تبنى عـليها أحلامها فى الزواج منـه؟ وأجابها بعد اعتذار عن أن يكون رده محـرجا لها بأنه يظن أنها تعتقد أن الأمل فى هذا لا يتعدى خمسين فى المائة.

عندئذ أجابته بأنها لم ترتفع بهـذه النسبة على الإطلاق لأكثر من عشرين فى المائة، ومع هذا فإنها كانت على الدوام على استعداد أن تهب نفسها له لو أراد.

(٧)

ولأول مرة طيـلة هذا الأسبـوع، وجد صاحبنـا نفسه يـسألها مـن فوره: وما الذى يدفعك إلى هذا؟.

عند ذاك سألته: هل يتـضايق إذا هى جرحته بإجابتها؟ وطمأنـها بأن شيئا من هذا لن يـحدث لأنه هو الـذى سأل، فعادت تـقول له: ولكـن إجابتى سـتكون جارحة، وربمـا تكون هى المرة الأولـى فى حياتك الـتى تسمـع فيها من يـصفك بافتقاد الذكاء.

وعاد صاحبنا يلح فى طلب الإجابة وهى لا تزيد على الابتسامة وتقول له: ألم أقل لـك إنها المرة الأولـى فى حياتك الـتى تسمـع فيها من يـصفك بافـتقاد الذكاء؟ وهو لا يـزال يسألها الإجابة وهى تـقول له: لقد أجبتـك.. ألم أقل لك إنها المرة الأولى التى تسمع فيها من يصفك بافتقاد الذكاء.

ولا يزال صاحبنا يسألنى باتصـال وتكرار منذ يومين: هل هذه إجابة؟! وإذا كانت كذلك.. فهل كان هو غبيا فعلا ؟!

(١)

كانت صاحبتنا فى حديثها أمام الآخرين تتمتع بقدر من الغرور المكشوف الذى لم تكن له نهاية، وكانت تتمتع فى الوقت ذاته بقدر من ضعف الشخصية حتى أمام نفسها.

وقد اجتمع عليها الغرور وضعف الشخصية، وتفاعلا فصبغا تصرفاتها بصبغة غريبة ميزتها بين قريناتها تمييزا واضحا، فزادتها إحساسا بالغرور، ووجد كل من عرفها فى غرورها ومظاهره ونوادره مادة خصبة لحديثهم، وترامت إلى أسماعها بالطبع بعض شذرات من هذا الحديث، فكانت حريصة على أن تستزيد من السماع، ولم يكن أمام الناقلين بد من أن يغلفوا السخرية بما ينبغى أن تغلف به من تحفظهم على آرائهم التى ينقلونها على أنها آراء الآخرين.

ولكن صاحبتنا كانت تبنى سعادتها على ما يظهره غلاف التحفظ وحده دون أن تلتفت إلى جوهر الآراء، وهكذا فإنها كانت تبدى إعجابها بالغلاف وتحتفظ

به، بينما تلقى بجوهر الحديث عن عمد تحت قدميها ، وتدعى أنه سوف يكون بإمكانها أن تقف ذات يوم على هذه الجواهر مجتمعة لتزداد ارتفاعا، ولم تكن فى هذا إلا صورة مشوهة من إبليس لو أنه فاخر فى أيام التشاريق بما ألقى عليه من ملايين الجمرات.

(٢)

كان تعبيرها عن غرورها أكثر التعبيرات قدرة على إبراز التناقض الانفصامى الحاد فى شخصيتيها الظاهرة والباطنة على حد سواء، فقد كانت صاحبتنا تعتقد ـ على سبيل المثال ـ أنه ليس هناك أحد فى العالم يتمتع بلون شعرها، مع أنها لا تنكر فى الوقت ذاته أنه مصبوغ.. ومع أنها تفتح حديثها فى أول كل أسبوع بالسؤال عن رأى محدثيها فى درجة لون شعرها هذه المرة!!.

وكانت فى معرض حديثها عن عبقريتها فى إدارة شئون منزلها تفاخر بالأطعمة التى تقدمها كل يوم لزوجها وأولادها من يديها الماهرتين.. ثم لا تلبث فى معرض حديثها عن عبقريتها فى الارتقاء بأنوثتها وصيانتها الدائبة لهذه الأنوثة، أن تذكر أن هذه الأنامل السحرية لم تُلوث فى يوم من الأيام بما لوثت به أيادى النساء أجمعين من روائح الطعام وتجهيز الطعام!!.

(٣)

وكانت تزعم مثلاً أنها لا تكف عن تجهيز الولائم الفاخرة لمعارفها فى نواحى

نشاطها المتعددة ولمعارف زوجها وأولادها المتعددين كذلك، بحيث إنه لا ينقضى الأسبوع من دون وليمة أو وليمتين.. ثم لا تلبث أن تتحدث بعد حين عن ترفعها وترفع بيتها عن استقبال الناس أو استضافتهم، فتذكر أن أحدا لم يتشرف بأن دعى إلى وجبة فى منزلها طوال عمرها غير ذلك الرئيس الأكبر لتلك الدولة التى انتفعت ذات يوم بعلمها الذى لا حدود له!! دُعى هو وحرمه بعد إلحاح المقربين منه.

وعلى هذا النحو كانت تزعم فى عام من الأعوام أنها شاهدت كل مسرحيات الموسم المسرحى بلا استثناء، وأنها شاهدت بعض العروض أكثر من ثلاث مرات، لأنه لابد لها أن تعيش خارج البيت كما تعيش داخله!!! وفى نهاية نفس العام أتيح لنفس الأشخاص أن يستمعوها وهى تقرر بكل ثقة وتأكيد وغرور أنها لم تطأ عتبات المسرح فى حياتها كلها ولا على سبيل المصادفة.

وكانت تزعم حتى فى مواجهة أولئك الذين لا تربطهم بها أية صلة، أنها تنفق بلا حدود على كل من يسألها العون، وأنها تتكفل بنفقات علاج معارفها فى أرقى المستشفيات كاملة، ثم لا تمضى الساعة إلا وهى تتحدث عما فطرت عليه من حكمة رائعة [فى ظنها] مكنتها من إدراك أن الناس فى مجموعهم لا يستأهلون الخير، وأن الله لو أراد لأغنى الفقراء، وأسعد الأشقياء، وشفى المريض، ولكنهم لا يستأهلون غير ذلك!!

(٤)

وكانت تزعم أنها لا تكف عن القراءة، وأنها قرأت فى شبابها ما لم يقرأه

البشر جميعًا، وتفيض فى حديثها عن هذا المعنى حتى يخيل لك أن هناك من الكتب كتبًا لم يقرأها أحد سواها، وأن بينها وبين دور النشر العالمية عقودا لاحتكار قراءة بعض الكتب التى ألفت لها دون غيرها، ثم لا تلبث أن تسمعها قبل أن تنقضى الساعة تتحدث فى سخرية مفتعلة عن أولئك الذين يضيعون وقتهم فى القراءة، وأن إحساسها الصادق وحده كفيل دوما بأن يعطيها القدرة على الحكم الصادق عن أى جانب من جوانب الحياة، من دون أن تقرأ عنه، أو أن تسمع لمن قرأ عنه.

وكانت تتحدث بحرقة شديدة عن كراهيتها للخيانة فى أية صورة من صورها.. ولا تمضى دقائق حتى تجدها تحدثك عن مهارتها اللامتناهية فى ممارسة الخيانة بكل صورها.. ثم لا تلبث أن تخون الخيانة نفسها وهى تحدثك مرة أخرى عن كراهيتها للخيانة!!.

(٥)

وكان صاحبى يجد متعة كبرى فى متابعة أخبارها وتصرفاتها، فقد كانت نمطا غريبًا ومتميزا لم يتح له أن يراه فى حياته، ولكنه مع هذا كان لا يزال مندهشًا من وجود هذا النمط كأنه كان لا يصدق وجودها، فهو لهذا حريص على متابعة هذا الوجود.. وكان كثيرون ينبئونه أن وجودها ليس معجزة ولكنه كان يجيبهم بأن وجودها معجزة المعجزات إذ كيف يجتمع الجليد والبخار، وهكذا كان صاحبنا لا يفتأ يعبر عن دهشته لوجود هذه المعجزة ولاستمرارها فى الحياة، ولم يكن ليقتنع أبدًا بما يقوله له أصحابه من أن المسألة لا تعدو أن تكون صاحبته صورة مشوهة من صحيفة يومية فيها أخبار الأفراح وأنباء

الوفيات.. ولكنه لا يقتنع، وكان أصدقاؤه يخشون أن تتحول متابعته إلى شفقة، وأن تتحول شفقته إلى شغف، وأن يتحول شغفه إلى إعجاب، وأن يتحول إعجابه هذا مع الزمن إلى صورة ما من صور الحب.. ومع هذا فقد حدث ماتوقعوه وبأسرع مما كانوا يتصورون، ولما عجز الجميع عن أن يفهموا السر فى هذا التطور السريع اضطروا إلى أن يحاصروه بالأسئلة فى جلسة من الجلسات كانت زمليتهم غائبة عنها.. ولشد ما كانت دهشتهم حين أخبرهم فى ثقة العالم وثبات البحاثة أنه توصل إلى أن أعظم أخلاق القرن القادم على المستوى المادى والروحانى لن يكون إلا خلقًا واحدًا فقط.. واندفعوا يسألونه فعجب أنهم لم يفهموا بعد!

وحين اعتذروا وصمموا على أن يجيبهم أجابهم فى تنازل صاحب الكنز : إنه التكيف !!

(١)

كانت قادرة على تمييز الإحساسات المتقاربة جدا، حتى ليهيأ للناس أنها تميز بين الشيء ونفسه، ثم بين نفس الشيء ونفسه، ومع هذا فإنها كانت أقرب ما تكون إلى العجز عن تصوير المشاعر.. فقد كانت إذا أرادت أن تعبر عن التواضع أظهرت الاستعلاء، وإذا أرادت أن تعبر عن الاستحياء أظهرت النفور، وإذا أرادت أن تعبر عن الامتنان للحديث الموجه إليها أظهرت الرغبة فى عدم الاستماع.

وقد حدث أنه فى حفلة أقيمت لتكريمها كان وجهها لا يكاد يعبر عن أية سعادة، بل كاد يعبر عن أسى حقيقى، وكانت شاردة كأنها تنتظر حكم المحكمة عليها، وحين بدأت فى إلقاء كلمتها كانت تبدو ساهمة كأن هذا الحفل أقيم لألد أعدائها.. وكانت تتحدث عن امتنانها للتكريم بامتنان حقيقى، ولكنها كانت عاجزة عن أن تصور هذا الامتنان حتى بدت كأنها تستعلى على هذا التكريم أو كأنها ملت من تكراره، وحين تحدثت فى كلمتها عن الواجب الذى

قامت به، آثرت أن تتحدث عنه بضمير الجماعة من باب التواضع وتعبيرا عن اعتقادها بأنها فرد من المجموع الذى يجب أن يقوم بما قامت به.. وهكذا جاء خطابها كأنها تحدث مستمعيها عن الواجب الذى لم يقوموا به على الإطلاق، بينما كانت تريد أن تقول إنها لم تقم بعد بكل ما تعتقد أنه واجب عليها.

(٢)

وكانت فى تلقيها تحية الجمهور حريصة على ألا تثقل على هؤلاء المحتفين بها بأن يبذلوا الدقائق القليلة فى تحيتها، وكانت تقشعر بسرعة لكلمات التكريم والترحيب، وكانت تستدعى النهايات بطرق دبلوماسية مختلفة كأن تلتفت إلى الشخص التالى فى طابور المهنئين، أو أن تسرع بمقاطعة محدثها بكلماتها الممتنة الشاكرة.. ولكنها كانت تؤدى كل هذا بطريقة لا تخلو بالطبع من اعتزازها الأصلى بشخصها النبيل، وخلقها القويم.. وهكذا كانت تبدو مستعلية تمام الاستعلاء بينما هى فى قمة تواضعها العميق!!

(٣)

وحين كانت تستمع إلى المديح الذى تحدث به مَنْ سبقوها إلى الحديث، فإنها كانت تبدو كأنها تفكر فى مسئوليتها عن الحفاظ على نفس المستوى من الجهد المستحق للمديح، وهكذا فإنها كانت تقود عقلها إلى تفكير عميق

تنجـذب من جرائه عضـلات وجهها ونظرات عـينيها إلـى الآفاق البعيـدة التى تستطلع فيها قدرتها على الابتكار والتجديد والتطوير فى مستقبل أيامها فى هذا النشاط الذى تنجزه.

كانـت فى جلسـتها بيـن رؤساء الجلسـة تحتفـظ بالتقـاليد الكـلاسيكيـة فى الارتفاع بقامتها من أجل احترام الحـضور، وكان الجالسون إلى جوارها يعبرون بجـلساتـهم عمـا لابد لهـم من التـعبيـر عنه مـن وصولهـم إلى حالـة الإرهاق القصوى.. وهـكذا فإنه فى جو تـنازل عن احترام الجمـهور منذ زمن بعـيد كان التزامـها يبدو فـى بساطة شـديدة وكأنه نـوع بارز ومتمـيز من أنواع الاسـتعلاء المحسوب.

(٤)

ومع هـذا كلـه فإنهـا كانـت قادرة علـى أن تبـدو للـناس فى الـصورة الـتى يريدونـها هم بحـكم تصوراتهـم القاصرة عـن فهم هذه الشـخصية الـنادرة فى زمنهـم المتأخر.. فـقد كانت جـميع تعـبيراتهـا عن مشاعـرها أقرب إلى الحـياد السلبى منها إلى الحياد الإيجابى.

وعلى سبيـل المثال فقد كانت عبـاراتها القصيرة ولفـتاتها السريعة ونـظراتها الهادئـة تمنع الجمهـور من أن يتخذ مـن أيها دليلا عـلى مايريد ، أو بـعبارة أدق كانت تتيح للجمهور أن يصورها كما يريد، لأنه ليس هناك ما يؤكد أو ينفى أو ما ينبئ عـن استشراء دليل عميق علـى ظاهرة عابرة.. وهكذا كانت تـصرفاتها الدبلوماسية البروتـوكولية المحسوبة تتيح للمجتمع الجديد أن يـنظر إليها ليجد

فيها صورة من صور العظمة التى غابت عن المجتمع، وإن كان فهم هذا الجمهور لهذه العظمة مخالفا لجو العظمة نفسها.

(٥)

هكذا كان معاصروها يدركون عظمتها، ولكنهم لم يكونوا يدركون حقيقة هذه العظمة التى كانت أعظم من تصوراتهم المطلقة.. ولم يكن الجمهور وحده هو المذنب، بل كانت هى الأخرى مسئولة بقدر أكبر عن هذا الفهم الناشئ عن عجزها عن تصوير مشاعرها بصورة أكثر تعبيرا عن حقيقة هذه المشاعر.

وفى واقع الأمر فإنه يبدو أنها لم تكن مذنبة، وإنما كانت مسئولة فحسب!! وعلى حين كان الجمهور فى معظمه مذنبا؛ لأنه لم يكلف نفسه عناء البحث عن حقيقة المشاعر، فإنها لم تكن ـ بحكم حياتها الماضية ـ قادرة على التعبير عن حقيقة المشاعر. وربما كان هذا هو السر الأكبر فى حياتها الحافلة بالهدوء وبالاضطراب فى الوقت ذاته.. بالنجاح الظاهر، وبالفشل الكامن.. باللمعان المستمر، وبالخمول المستديم.. بالحركة الدائبة، والسكون المتحرك فى الوقت ذاته.

وقد شاءت لها ظروفها أن تبدأ حياتها الاجتماعية مبكرة جدا.. لكنها على الرغم من ذلك لم تبدأ حياتها الذاتية إلا عن قريب.

وعلى حين أنها أسعدت كل مَنْ حولها، فإنها لا تزال حتى يومنا هذا عاجزة عن أن تقنع نفسها بأن من حقها أن تبحث لنفسها عن السعادة، وعلى الرغم من أن العاجزين فى أغلب الأحيان يلجأون إلى مبرر أو أكثر ليلقوا عليه باللوم،

فإنها كانت لا تعترف بالمبررات، ولكنها كانت تقيد نفسها بما هو أكثر من كل القيود والسدود والحدود، وهو ظنها أن قدرها لن يتيح لها اليوم ولا غدا ما حرمها منه بالأمس وأمس الأول.

(٦)

كانت عيناها ترفضان الضوء الطبيعي ؛لأنها كانت تعتقد أن واجبها أن تبصر للآخرين لا لنفسها.. وكان أنفها يتأبى على الهواء المنتشر في الجو، لأنها كانت تعتقد أنها خلقت لتنقى هذا الهواء لغيرها لا لتستمتع به وبنقائه أوبترابه في الوقت ذاته.

وهكذا كانت كل حواسها مستكينة لعقيدة أنها خلقت كي تكون في خدمة المجموع، وألا تكون أداة لصاحبتها المعطاءة.

وبمضي الأيام تحولت هذه العقيدة إلى جزء جوهري من شخصيتها، بحيث أصبح من المستحيل عليها أن تتصور نفسها قادرة على أن تعبر عن أي من المشاعر التي تجيش بها نفوس الأبرار، أو نفوس الخاطئين.

فقد كانت لأكثر من ربع قرن قد كثفت كل إحساساتها وإرادتها أن تعطى للنهاية دون أن تشعر إلا بأنها تؤدي بذلك واجبها الأول والأخير، بل الوحيد كذلك.

ولكن الأيام لا تعترف بمثل هذا الثبات المطلق في المشاعر ولا في التصرفات، وهكذا فإنها أفاقت ذات صباح على حب يعتصرها اعتصارًا، وحاولت الفكاك والهروب بأقصى ما كان يمكنها ولكنها لم تستطع، ولم يكن هناك بد من الاستسلام ولكنها لم تستطع الاستسلام أيضا.

كانت تحاول الإقبال فما تلبث أن تدبر وتحاول الإدبار فما تلبث أن تقبل، وكانت تحاول السكون فيغلبها التفكير، وكانت تبدأ التفكير فلا تنتهى إلى قرار، ولم يكن أمامها بد من أن تترك نفسها للحب؛ لأنه لم يكن يقبل أن يتركها تتمرد عليه.

(٧)

أما هو.. فكان قد عرف الدنيا وعرف الحب، ولكنه لم يكن يدرى أن بإمكانه أن يرى مثل هذا النموذج ذات يوم، وكان يبذل من نفسه فى كل لقاء به ما كان كفيلاً بأن يجعلها تهيم به على الرغم من تحفظها الظاهر والخفى، وكان يعتبر هيامها هذا الذى لم يكن يتوقع أن ينجح فى الحصول عليه بمثابة أكبر دافع له لأن يحافظ عليها ولأن يحافظ عليها لنفسه.

وفيما بعد مرات عديدة فإنه أصبح يستعذب هذا الجهد الذى يبذله فى إذابة الجليد؛ لأنه كان يتمتع بكل ما وراء الجليد من متعٍ لم يعرف طريقه إليها من قبل.

كان يفنى نفسه وهو يسترضيها ، ولكنه كان يجدها إذا مارضيت تفنى نفسها لتستبقيه، ولم يكن ليحلم بأن يجد هذا الذى يجده منها فإذا به يجده فى كل مرة.

كانا يهيمان ببعضهما حتى يستحيل على كل منهما أن يتصور للآخر حياة بدون الآخر.. وكانت هى أكثر منه إيمانا بهذا المعنى، ولهذا السبب فإنها ظلت على نحو ما كانت: شاردة على الدوام.

(١)

لم تكن **طموحة إلى حد** كبير، ولم تكن مادية بالدرجة الملحوظة، ولكنها كانت تريد **من الدنيا أن تكون** لها على هيئة البوفيه المفتوح، حيث يتاح لها أن تنتقى كل ما تشاء فى الوقت الذى ينتقى الآخرون صنفا أو صنفين من الطعام المتاح.

كانت تتعمد أن تأخذ فى أطباقها كل شىء حتى تلك الأصناف التى تكرهها كراهية التحريم والتى هى واثقة أنها لن تمد إليها يدا، فإذا سألها صاحبها عن السر وراء ذلك قالت إنه حقنا وليس من الإنصاف التنازل عن حق!! كانت تردف قائلة له إنه ليس من اللائق أن يلومها على تمسكها بحقها. وكان يمضى الليالى يتأمل فى تفكيرها هذا، ولكنه كان يقنع نفسه بأن الأمر لا يعدو رغبة شبه مشروعة فى الاستمتاع بكل ما هو متاح.

وكان يعـود بذاكرته إلى أيـامهما الأولى قـبل الخطبـة والزواج، فيتذكـر أنها كانت حريصة على قضاء شهر عسل فى الخارج، وعلى إقامة فرح فى فندق من ذوى النجوم الخـمس، ولأن مستواه المادى فـى ذلك الحين كان لا يسمـح له بأن يقدم ما هو أقل من ذلك، فإنه لم يفكر يومها فى موقفه لو لم يكن يملك القدرة على تلبية طلباتها.

(٢)

ثم يعـود بذاكرته إلـى فترة الخطـوبة التى لم تـطل ويستـرجع شريط هـناءته بجمالها، ولكنه يـجد فى هذا الشريط كثيرا من المعانى التى لـم يلتفت إليها فى وقتها بحكـم السعادة الطاغية التى كـانت تجتاحه وهو مقبل علـى دنياه الجديدة معها.

وهو يـتذكـر الآن أنه كان قـد سألـها :هل تحـب أن تكـون هديتـها فـى يوم خطوبتها من الألماس أم من الذهـب؟ فقالت بل من الاثنين. وسألها مردفاً: وهل تريد أيضا شيئا من الفضة؟ فقالت: وهـل تظن أنه يليق بك أن تقدم شبكة ليس فيهـا شىء من الفضـة، ويومها تعجـب الصائغون... واضـطر أن يصحبـها مع منـدوب من أحـد هذه المحال إلـى مشـغل فضـة لكى تـنتـقى منـه شيـئا... أى شىء!!.

ولم يكن يومها قد توصل فى فهمه لشخصيتها إلى نظرية البوفيه المفتوح!!.

وتذكر أيضا مـدى لجاجها مع وكيل الفنـانين وهى مصممة علـى أن يتضمن البرنامج كل مـا فى جعبة كل الفنانيـن، ووكيل الفنانين يقول لـها: إنه لا يمانع

ولكن الوقت لن يكفى وستكون النتيجة أن تتداخل أوقاتهم مع بعضها، وليت الأمر ساعتها يقف عند انسحاب بعضهم وبقاء البعض الآخر، بل إنه ربما يدفع بمعاونى الفنانين إلى الشجار وهو فأل سيىء فى حفل عرس.. ولم تقتنع إلا بعد أن أقنعها وكيل الفنانين بأنه سيضمن لها شيئين: الأول أن يكون عدد الفرق التى شاركت فى إحياء ليلة الزفاف هو أكبر عدد من الفرق شهدته حفلات الزفاف فى مدينتها حتى ذلك اليوم، والثانى أن يستعين بكبريات الفرق الموسيقية التى لا تحضر فى العادة حفلات الزفاف بكامل هيئتها على أن تحضر كاملة الهيئة.. والآن فقط يذكر لماذا وكيف كانت حريصة، بينما هى إلى جواره على الكوشة على أن تتأكد بنفسها من عدد أفراد الفرق الموسيقية!!.

(٣)

كانت حالة اليسر التى رُزق بها صاحبنا تجعله لا يضطر إلى التفكير فى معنى هذا الإسراف المتواصل، وكانت نفسه الهادئة تقنعه بأنه مادام الرزاق الستار موجودا فلا داعى للقلق.

ولكن نظرية البوفيه المفتوح بدأت تزعج الزوج حينما أصبح رصيد وقته لا يكفى للاستجابة لرغباتها، مع أن رصيد المال كان لايزال كفيلا برغباتها.. فها هى ذى زوجه تضطره فى الليلة الواحدة أن يبدأ السهرة بزيارة بعض أقاربها، وأن يثنى بحضور حفل من الحفلات التقليدية التى تقام لإحياء أعياد الميلاد، وأن يختم بحضور عرض مسرحى.

ولم يكن فى وسع الزوج أن يؤدى هذه الواجبات الثلاثة بعد كل يوم حافل

بالعمل يبدؤه فى العادة فى السابعة صباحا ثم إذا هو فى نهاية اليوم فى حاجة إلى الراحة حتى يبدأ يوما آخر فى السابعة صباحا.

ولكنه كان يجيد التصرف فى لباقة، كان لا يمانع نفسه فى أن تمضى فى النوم أثناء الزيارة الأولى، وهكذا كانت تجد نفسها مضطرة إلى الإذعان.. وكان يسعد بهذا الإذعان مهما وأعقبه من غليان.

إلى أن جاء يوم أحس الزوج فيه بأن صاحبته تنهى لقاءها به على نحو ما تفعل بالصنف الأول من أصناف البوفيه المفتوح.

(٤)

كان من الصعب عليه أن يتصور أن نظرية البوفيه المفتوح قد امتدت حتى شملته هو نفسه.. وكان من الصعب عليه أن يعذب نفسه بالشكوك.. وكان من الصعب عليه أيضا أن يفرط فى حبه الأول والأخير.

وأغلق على نفسه الباب وأخذ يبكى كما لم يتصور أن أحدا قد بكى من قبل، وفى الأيام التالية تكرر بكاؤه ، وكان يبكى حتى تتحجر الدموع فى مقلتيه، فيقوم إلى الوضوء فإذا سجد بكى، وكان الضغط يزداد فى رأسه وهو ساجد حتى يصبح غير قادر على أن يعتدل من سجوده ؛فيتقلب فى سجوده وهو يبكى كما لم يتصور أن أحدا يمكن أن يبكى فى المستقبل على هذا النحو.

كان يذكر نفسه بتقاليد آبائه وأخواله الذين يتزوجون مرة واحدة ولا ينفصلون، ويجد نفسه على وشك أن يحطم هذه التقاليد، فينزعج من أن يجىء

الاستثناء من ناحيته، وكان ينظر إلى ولده القادم من خلال بطن زوجته المنتفخ فيبكى له.. ويبكى عليه.

وكان يتأمل مدى إخلاصه لها الذى لم ينقطع ولم يتبدل ولم ينتقص.. ثم يتذكر أنه يبدو أنه لم يعد يمثل بالنسبة لها إلا صنفا من الأصناف المتاحة فى البوفيه المفتوح.. فيبكى ما شاء له الله أن يبكى.

(٥)

وظل طيلة شهرين كاملين يراود نفسه ويشاورها هل يخبرها بوساوسه أو يسرحها بمعروف.. ولم يكن فى وسعه أن يصل إلى قرار.

كانت نفسه كبيرة.

وكانت أخلاقه سامية إلى الحد الذى لا يسمح له بأن يجرح المخطئ مهما كان الخطأ.. كان يكتفى إذا رأى أحدًا يخطئ فى حقه أن يحمد الله أنه ليس المخطئ، وكان هذا يمثل له مصدرا للرضا لا حدود له.

وكانت نفسه كذلك أكبر من أن تلعب دور المحقق فى جريمة هو أحد أطرافها.. حتى إن كان هو المجنى عليه!!.

وكان عقله أكبر من أن يظن أن فى وسعه إقناع مثلها بمدى الجرم الذى ترتكبه مادامت قد ارتضت لنفسها أن تمضى فى طريق الندامة.

وكان قلبه ـ قبل ذلك كله ـ أضعف من أن يواجه مجرما بجريمته، وكانت مشاعره أرهف من أن تتربص به ليريه أنه ضبطه وهو متلبس.

ولكن الحياة كشأنها دائمًا لم تكن تمضى تبعا لقلبه الضعيف، ولا لمشاعره المرهفة، ولا لعقله الكبير، ولا لنفسيته السوية.. ولا لشخصيته القوية.

(٦)

وأبت الأقدار إلا أن تريه بمحض الصدفة زوجته وهى فى طريقها إلى الخيانة.. وفى لمح البصر كانت قد فقدت أعصابها إلى الحد الذى لم تسيطر فيه على عجلة القيادة فاضطر إلى أن ينبهها بصوت عال أصدره من سيارته ومضى لحال سبيله!! أما هو فقد أنزل الله عليه سكينة حفظت عليه عقله من الجنون.

(٧)

ولم تعد إلى المنزل وإنما عادت إلى منزل والدها، وبعد ثلاث ساعات كانت تتصل به لتبدأ معه حوارا بصوت مستكين. وقد أجادت اختيار البداية، فسألته لماذا كان صوت آلة التنبيه الصادر عن سيارته عاليا جدا بعد ما قابلها فى الطريق، ولم يزد على أن قال إنه عاد لتوه من ورشة الكهرباء، حيث أصلح الكلاكس، وأعاد تركيب الفردة الثانية منه التى كانت معطلة منذ عامين!!.

ووجمت لمدة دقيقتين، ثم قالت إنها كانت تظنه غاضبا، لأنه رأى رجلا آخر معها.. وفى بساطة شديدة قال لها إنها حرة فى نفسها وفى شرفها تفعل فيه ما تشاء؛ لأنها بلغت سن الرشد منذ زمن بعيد، كما أنها بلغت سن التكليف منذ زمن ليس بالقريب!!.

واطمأن منهـا على والديها وعلى إخوتـها الصغار، ثم إنه تعـمد أن يبث فى قلبـها طمأنينـة لا تستحقـها فسألهـا عن موعد وصولهـا إلى بيت أسرتـها وهو يعرف أنها لا تجيب إلا بالكذب، ولكنه تظاهر بالتصديق.

بعد ساعتين كـان «الآخر» معها على التليفون يلومـها على أن زوجها أصدر أصواتا مزعجـة بآلة التنبيه حـين رآهما.. وتمادى الآخر فى اللـوم والدلال حتى دفعها إلى القرار الذى لم تطلعه عليه.

فى الصباح الباكر انتبهت أسرتهـا على صوت الشغالة وهى تصرخ من هول المفـاجأة.. فقد وجـدت سيدتـها الصغـيرة وقد أسلـمت الروح بـعدما قطـعت شرايين يدها اليمنى.

وإلى جوارها كان هناك مـظروف مغلق كتبت عليه رجاء لأهـلها أو لغيرهم ممن يكتشفون أمرها ألا يفتح إلا بمعرفة زوجها.

وفى المظروف ورقة صغيرة كتبت فيها بخط مرتعش: لا تسامحنى.. لأنى لم أتعذب إلا بتوالى تسامحك مرة بعد مرة.. وكفانى عذابا!!!.

(٨)

أما هو فكان كـلما تذكرها استمـطر لها الرحمات لسـبب واحد قد لا يدرك النـاس مغـزاه ولا جدواه ولـكنـه كان يـقدرهـا من أجـله كـل التـقديـر.. كان يسامحها؛ لأنها رحمت جنينها ولـم تجن عليه كما تفعل أمهات كثيرات.

وأما الناس فـإنهم كانوا يتـداولون القصة فى أسف شـديد على هذه الطـيبة

التى أرادت علاج نفسها فى منتصف الليل فماتت، ذلك أن الزوج استطاع بطرق كثيرة أن يثبت للطب الشرعى أن زوجته كانت قد بدأت تعانى من توكسيما الحمل حيث يزداد الضغط، وأنها لجأت فى تلك الليلة إلى أن تفصد بعض دمها ليقل الضغط، لكنها لسوء حظها قطعت الشريان بدلا من أن تقطع الوريد!!

ومنذ ذلك اليوم أصبح أساتذة الطب فى المدينة التى شهدت هذه الواقعة يحذرون طلابهم من أن يلجأوا إلى عملية الفصد كعلاج لارتفاع ضغط الدم حتى ولو كان فى حالة تسمُم الحمل، أو حين يُخشى من الآثار الجانبية لكثير من العقاقير الخافضة للضغط.

ومن العجيب أن أحدا من هؤلاء جميعا لم يسأل نفسه لماذا لم تضغط الزوجة ـ وهى طبيبة ناجحة ـ على الشريان الممزق حين رأت اندفاع الدم منه؟.

(١)

لم يكن يعنيها من الدنيا غير نفسها، ولم تكن فريدة فى ذلك، فإن المرء يقابل كثيرا من البشر بهذه الصفة، ولكن صاحبتنا كانت قد تمادت فى هذه الصفة حتى أصبحت تعتقد أن الدنيا كلها خلقت من أجل أن تخدمها فحسب

فأبوها لم يفعل شيئا عظيما فى حياته غير إنجابها، أما أخوتها الناجحون من الذكور والإناث فقد أضاعوا عليها الاهتمام الذى كان حريا بالأب أن يوجهه تجاهها وحدها، ولأنها لم تكن الكبيرة بين إخوتها ، فإنها تعتبر أن الكبار الذين ولدوا قبلها قد جاءوا بطريق الخطأ ؛لأن أباها قد تزوج مبكرا خمس سنوات عن موعده، ولو تزوج فى موعده المضبوط لكانت هى أول أولاده، أما إخوتها الصغار فقد جاءوا إلى الدنيا لسبب واحد، هو أن أبويها كانا يظنان نفسيهما قادرين على تحقيق معجزة أخرى كتلك التى حدثت بولادتها.

أما زوجها فلاشك أنه تمتع بحب ودعاء لا مثيل لهما من قبل والدته، وإلا

فكيف رزق بها إن لم يكن بدعاء الأم، وهذه الأم ماتت مبكرا لأنه لم يكن لها مكان فى مستقبل حياة ابنها الذى كان مكتوبا له أن يحظى بها وأن ينفرد بهذا الشرف دونًا عن الناس جميعًا.

كان زملاؤها يستمعون إليها وهى تروى نماذج مضخمة من هذه المعتقدات المتكررة على لسانها وعلى أسماعهم فى كل حين، ولكنهم لم يكونوا يدرون أنهم سيصبحون بدون قصد ولا رغبة عناصر جديدة فى منظومة الكون المسخرة لخدمة صاحبتنا. ولكنهم اكتشفوا الواحد بعد الآخر والواحدة بعد الأخرى أنهم كانوا بمثابة حلقات متصلة وغير متصلة فى هذه المنظومة التى تخدم صاحبتنا المعجزة.

(٢)

حدث أن طلبت صاحبتنا المعجزة من صديقة لها أن تقطع علاقتها بإحدى رئيساتها غير المباشرات فى العمل، لا لشىء إلا لأن هذه الرئيسة كانت معروفة بأنها على علاقة حسنة بشخصية مهذبة تغار منها صاحبتنا.

ولم تكن الصديقة تفهم مثل هذا الطلب الغريب، ولكنها لم تجد مانعا فى وقت من الأوقات أن تنفذ لصاحبتنا هذه الرغبة، وبخاصة أنه لن تنشأ مشكلة خطيرة نتيجة لهذا، فالرئيسة سيدة مشغولة بما فيه الكفاية، ولم تكن علاقة الصديقة بها تزيد على مجرد السلام والتحيات مرة كل أسبوع.

وكانت صاحبتنا تطمئن فى كل يوم تقريبا على أن صديقتها قد قطعت

علاقتها برئيستها هذه ، وكانت تمضى إلى ما هو أكثر من ذلك، فكانت تستنطق صديقتها اللعنة على رئيسة صديقتها على نحو ما يروى من أن الأمويين كانوا يطلبون من أنصارهم لعن علىّ - كرم الله وجهه - على المنابر.

وذات يوم كانت صاحبتنا فى زيارة المصلحة الحكومية التى تعمل فيها صديقتها، وفوجئت الصديقة بسيارة صاحبتنا المعجزة فى الفناء وتوقعت الصديقةأن تمر المعجزة عليها، ولكنها للأسف لم تفعل.

وانتظرت الصديقة من صاحبتنا المعجزة أن تخبرها أنها كانت ذلك اليوم فى مصلحتها، ولكن المعجزة لم تخبر صديقتها على الرغم من أنها استمرت تحادثها تليفونيا لمدة ساعة فى ذلك اليوم، وساعة ونصف الساعة فى اليوم التالى.

وفى اليوم الثالث لم تجد الصديقة بدا من أن تسأل المعجزة: هل كانت فى مصلحتها منذ يومين؟ وهل كانت عند الرئيسة كما جاء فى حديث بعض الزميلات اللائى كن يتعجبن من كمية التملق التى بذلتها «المعجزة» من أجل إرضاء «الرئيسة».

وفى بساطة شديدة أجابت المعجزة أنه لا ينبغى للأنثى الذكية أن تقطع خطوطها حتى مع أعدائها.. لأنها قد تحتاج إليهم فى لحظة من اللحظات.

وأصيبت الصديقة بدهشة شديدة من حديث المعجزة الذى كان درسا رائعا من دروس المنطق الانتهازى، ولكنها للأسف الشديد كانت عاجزة عن أن تسأل المعجزة عن السبب الذى منعها من زيارتها ولو لدقيقة واحدة فى ذلك اليوم،وخاصة أن المسافة بين المكتبين لا تزيد على عدة أمتار.

(٣)

ووضعت الصديقة سماعة التليفون وهى تغلى.. وحاولت النوم فلم تستطع النوم يوما ويومين، وحين ذهبت إلى طبيبها - ولم يكن للأسف طبيبا نفسيا بل كان طبيب عائلة تولاها بالرعاية منذ كانت طفلة - لم يفعل أكثر من أنه طلب إليها أن تطلب إلى واحدة أو أكثر من صديقاتها اللائى يعرفن المعجزة أن يسألن المعجزة عن السبب.

وجاءتها الإجابات الثلاث الآتية:

بعد نصف ساعة طلبتها الصديقة الأولى وقالت لها إنها عاتبت المعجزة على تصرفها، ولكن المعجزة أجابتها بأنها لم تكن تدرى هل كانت الصديقة فى ذلك اليوم فى المصلحة أم لم تكن.

وبعد يومين أخبرتها صديقة ثانية بكل أسى أن المعجزة قالت لها: ولماذا أمر على فلانة؟ وهى ملك يدى.. ولست فى حاجة إلى تحسين علاقتى بها؟ أنا ليس عندى وقت للمجاملات الفارغة، إنما كنت أبحث عن مصلحتى المستقبلة ليس إلا!!.

وبعد أسبوع جاءها الرد الثالث وقد كلفت المعجزة صديقة مشتركة بتبليغها نصه كما هو بدون تلطيف وكان نصه: «وهل أنا من الغباء بحيث أبدو أمام الرئيسة وقد جئت إلى المصلحة لزيارتها ولزيارة غيرها.. لابد أن تعرف أننى ما جئت إلا لها ولها فقط».

(٤)

كان الصداع يتزايد على الصديقة يوما بعد يوم ولم تفلح الأدوية فى التغلب

عليه، ولاحظت والدة الصديقة هذا الهم الذى يعتريها، فنصحتها بأن تطلب المعجزة وتسألها عن السبب الحقيقى فقد تكون الردود الثلاثة مبالغات نسائية.. وضغطت عليها إلى حد أن الوالدة هى التى طلبت المعجزة وكلمتها، ثم ناولت السماعة لابنتها التى فوجئت بوابل من التعنيف والتوبيخ القاسى لا لأنها تجرأت وشكت المعجزة للناس، وإنما لأنها ظنت نفسها أهلا لزيارة المعجزة!!

وفيما بعد سنتين ونصف السنة، التقى صديق مشترك للمعجزة ولصديقتها بالمعجزة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فسألها عن صديقتها من باب قتل الوقت، فطلبت إليه أن يجلس لتقص عليه القصة، وكانت المعجزة للأسف هى التى قصت هذه القصة التى لا يمكن للقارئ طوال قراءتها أن يتخيل إلا أن الصديقة هى التى قصتها.

ولكن الحقيقة التى قد لا يصدقها القارئ أبدًا كانت أن المعجزة هى التى قصتها بكل وضوح، ثم أردفت فى تأفف وتعال تقول للصديق: ومن يومها لم تكلمنى.. على كلٍ.. هى الخسرانة!!.



(١)

حدثت هذه القصة منذ عشر سنوات بالتمام والكمال.

كانت صاحبتنا تشعر بسعادة بالغة أنها أدارت رأس الزميل الوسيم الذى تقدم لخطبتها بعد فترة قصيرة جدا من تعرفه بها، وكان هو الذى صمم على أن يفاتح أباها فى خطبتها، رغم أنه لم يكن فى حاجة إلى هذه الخطوة لكى يلقاها ويقابلها، ويمضى معها كثيرا من الأوقات الهانئة، وحين التقى بأبيها صرح له بأنه لن يسأل عن ابنته ولا عن عائلتها أبدا.. وتعجب الأب وتعجبت الفتاة.

وكانت تستغل ذكاءها فتعمد إلى ذروة ساعة الهناءة لتسأل خاطبها ماذا لو اكتشف فجأة أن لها ماضيا؟ ويجيبها بأنه أعقل من أن يسأل عن الماضى، إنما يهمه هو الحاضر والمستقبل، وتعود لتسأله.. هل حقيقة لن يسأل عنها ؟ فيؤكد لها أنه ليس فى حاجة إلى السؤال!.

وتطرق الحديث بهما ذات مرة إلى أفراد عائلتها، فإذا بإحدى خالاتها تعمل

تحت رئاسة أحد أقربائه المقربين، ولكنه أيضا ولسبب غير معروف لم يشأ أن يسأل عن هذه الحالة!.

(٢)

وكانت تتعجب من هذا السلوك الواثق إلى هذا الحد، ولكنها لم تكن مرتاحة تمامًا إلى هذا النوع من أنواع السلوك، وربما كانت أقرب إلى القلق منها إلى الرضا .. وعبرت ذات يوم عن هذا المعنى، فما كان منه إلا أن أخبرها بلهجة رقيقة حانية أنه ليس على استعداد لأن ينزل بمعتقداته فى الحياة إلى المستوى الذى تعوده الناس من حولها من أجل أن يستريح بالها.. ولكنها لم تهدأ.. وطلبت إلى والدها أن يطلب إليه أن يسأل عنهم، وفاتح الأب خطيب ابنته فى هذا الموضوع، فسبقه إلى القول بأنه لا يجد ارتباطا شرطيا بين سؤاله عنهم وسؤالهم عنه، وأنه لا يمنعهم من السؤال عنه فى مقابل امتناعه عن السؤال عنهم!!.

وبحنكة الشيوخ قال الأب لابنته وهو يروى لها تفاصيل حوارهما: فإذا كان الأمر كذلك يا ابنتى فإننى لا أرى داعيا للسؤال عنه!! إلا أن يكون هذا السؤال استيفاء للشكل الذى يحفظ كرامتنا لكى يقال إننا سألنا عنه.. وأخذت صاحبتنا الخيط من أبيها وأخذت تضخم الموضوع لوالدتها، إلى حد أن قالت لها إنهم إذا لم يسألوا عن حبيبها، فإنهم يكونون بهذا يبيعونها بالرخيص!.

ولم تكن الأم بحكم ثقافتها وخبرتها فى الحياة مرتاحة إلى هذا المنطق.. كما لم يكن الأب هو الآخر مرتاحا من قبل.. كانا يطلبان إلى ابنتهما التروى حتى يأتى سؤالهم فى سياق حديث.. وليس سؤالا على طريقة المباحث المفاجئة.. وكانا يعملان فى خارج وطنهما، فكانا يعتقدان أن سؤالا سريعا أو مطولا بالتليفون الدولى ليس بالأمر اللائق فى مثل هذه الأحوال.

(٣)

ولم يكن بد أمام صاحبتنا أن تسأل بنفسها.. ولجأت إلى أحد المعيدين الذين درست على أيديهم فى سنة سابقة.. وكان لحسن حظها على علاقة زمالة بصديق مشترك لخاطبها الموعود.

وبعد أسبوع كان الصديق يلمح للخاطب أنه قال فى حقه كلامه طيبا.

وبعد أسبوعين كان صديق ثان يلمح للخاطب، وبعد يومين آخرين كان زميلان فى العمل ينقلان إليه مشاعرهما التى أبدياها فى غيابه.

وعلى الرغم من هذا كله كانت المخطوبة قلقة معذبة زائدة الانفعالية بدون مبرر.

وحضر أبواها من السفر، وطلبت من خاطبها أن تضع معه بعض الرتوش قبل أن يتصل به أبوها ليدعوه إلى بيتهم، فإذا بها تفاجأ به لأول مرة يتحدث إليها بجفاء شديد، وكانت قد تعودت منه أن يعطيها الحق فى أن تسأله عن السبب وراء أية مشاعر يبديها فلا ترضيها، فلم يجبها بأكثر من الاعتذار.

وحاولت أن تستفزه فلم تفلح.

ثم حاولت أن تسترضيه فأبدى الرضا من دون أن يرضى... واعتذر.

وعاشت أياما صعبة تمنعها كرامتها من أن تتصل به، ولكن تفكيرها لم يهتد إلى السبب وراء هذا الذى اعتراه.

(٤)

كانت تفكر أن تعتذر له عن سؤالها عنه، فتجد نفسها عاجزة عن هذا

الاعتـذار، لأنها كـانت تود أن تـناقش مـعه النتـائج السـلبيـة التى أسـفر عنـها السؤال!! ولكن هل تتاح لها فرصة بعد اليوم لتناقشه؟.

لم تكن قد وصلت إلى أية درجة من درجـات الندم؛ لأنها كانت تظن أن ما فعـلتـه لا يخـرج عن دائـرة الصواب، فـهى قـد لجأت إلـى ذلك المـعيـد الذى استقصى لها ونقل إليها المعلومات التى حصل عليها!

وذات يوم دق جـرس التليـفون، وكان هو المتحدث، ولـم تكن تصـدق أنه يمكن أن يتـحدث مرة أخرى. وأسرعت تطلب إلـيه ألا يكلمها ثانـية، وأخبرته كذلك أنـها خُطبت بـالفعل منذ أسـبوع واحد فقط، وعـنفته فى شـىء من الود على أنه روى بعـضا من أسرارهما المشتـركة للصديق الذى كان أول مـن سألته عنه عن طريق ذلك المعبد !!!

وفى هدوء شديد طلب صـاحبنا منها وعدا بأن تعتذر لـه ـ ولو بعد عامين ـ إذا عرفت أنها كانت مخطئة فى هذا التعنيف!.

وفيما بعد أسابيع قليلة كان صاحبـنا يستمع إلى همس يدور عن معيد خدع طالبته، فساعد على الإسراع بتزويجها من نصاب لتكون فحسب مطلقة بأسرع ما يمكن، وعنـد ذاك يستطيع أن يقضى مـنها وطرا، ولم يكن من الـصعب على صاحبنا أن يدرك من هى الفتاة ومن هو المعيد؟.

وكانت صـاحبتنا قـد سألت عن الخاطـب الجديد عن طـريق المعيد الـسابق، فجاءتها الإجابة صافية كاللبن الحليـب، ومشرقة كشمس الضحى، هكذا قالت لأبويها ثم قارنت بين المعلومـات التى وردت لها عن الخاطب الجديد والخاطب القديم، فقالت: إن هذا متواضع والأول مغرور، وهذا مستكين والأول مسيطر، وهذا سهل والأول صعب.. وهكذا.

وبعد أن أفاقت الفتاة من الصدمة بشهور، اتصلت بخاطبها الأول فاعتذرت له، وألانت القول وحكت له القصة على طريقتها، ثم سألته هل من حقها أن تعرف لماذا كان حريصا على أن ينبهها إلى أنها سوف تعتذر له بعد عامين؟.

وهل كان يدرك أبعاد القصة كلها؟ وكيف استطاع أن يدركها مبكرا؟.

وكانت المفاجأة أنه لم يكن يعرف أيا من هذا كله، مع أنه اعترف لها أيضًا وبسرعة أنه لم يكن يستبعد وقوع ما وقع بحكم المنطق، حين يضع الإنسان قراراته رهن معلومات تأتيه من مصدر ما له مصلحة ما.

وعادت لتسأله: هل لاحظ أن الأسئلة التى كانت توجه إلى معارفه كانت تحرص على الحصول على معلومات عن عيوبه، فأجابها بأنه لم يكن حريصا على معرفة أية جملة فى الحوار الذى دار حول شخصه.

وعادت لتسأله: هل كان يتوقع منها الغدر؟ أو هل كانت له تجربة مشابهة من قبل؟ فأجابها بالنفى، ولما صممت على أن تعرف ما الذى دفعه إلى أن يتخذ ما اتخذ من مواقف، لم يكن جوابه إلا أن قال لها أتذكرين أننى قلت لك ذات يوم إننى أصدقك حتى وأنت تكذبين، وأجابته أنها لا تزال تذكر هذه العبارة، ولكنها لم تفهمها حتى الآن.

ولما صممت على شىء من الإيضاح استنكر عليها أن تضيع عمرها فى السؤال بدلا من أن تقرأ.

ولكنها للأسف كانت من جيل يستسهل السؤال على القراءة، وليته كان يستفيد من إجابات الاسئلة!!

وذهبت إلى جدتـها المسنة تروى لها قـصتها كلها بكـل صدق دون أن تذكر لجدتها أنها هى بالذات بطلة القصة، ولكنها كانت ترويها لجدتها وتستأذنها بعد كل فقرة أن تجود بـبعض الوقت على البطلـة الأصلية حتى تأتى فتحـكى القصة بنفـسها. وتسـألها الإيضاح، فـلم تزد جدتـها بعد أن سمـعت كل القـصة وكل الأسئلة على أن قالت لها: إن قلب المؤمن دليله ... وازدادت فتاتنا حيرة.

وعادت إلى معيدها الـسابق الذى كان السبب وراء نكبتهـا، فلم يزد على أن قال لها إنهـا لا تزال لا ترى عاشقها الحقـيقى رغم كل ما ضحى بـه من أجلها، ولكم تـكن تفهم أنه ضـحى بها نفسـها ولم يضح بـنفسه! ولكنـه لأن صاحب تفكير معوج كان يعتقد أن ما فعله لم يكن إلا تضحية فحسب.

وكانت تسأل كل زميلة تقابلها: ترى هل تعرفين من هو الذى يحبنى من كل هؤلاء الذين حولنا.

ولم تكن بقادرة على أن تقتنع بإجابة واحدة!!.

وعاشت تسأل حتى اليوم ولكنها كانت دون أن تدرى قد ضيعت كل شئ!

(١)

كانت تحاول أن تجد ذاتها فى كل جزئية من جزئيات الحياة.. ولم تكن بقادرة علـى أن تحقق هـذه الذات إلا بتـصنع شـديد التكـلف لا تكـاد تخطـئه العـين فحسب، ولـكن النفوس البشريـة مهما كانت متـساهلة لم تكن تسـتطيع إلا أن تمجه.

كانـت ـ على سبيل المثال ـ تحـاول أن تدخل كـثيرا من مـفردات الكلـمات الأجنبية فى حـديثها الـعادى، ولأن ثقافـتها لـم تكن قد تـعرضت علـى مدى تاريخـها القصيـر لمثل هذه المفـردات، فإنها كانـت تلجأ إلى طـريقة فى منـتهى الغرابة، فـقد اجتهدت حتـى استوعبت حوالى عـشرة من أسماء الأشيـاء كثيرة الاستعمـال فى الحياة اليومـية، وأصبحت تجتـهد فى أن تضع هذه المـفردات فى جمل مـفيدة، وفاتـها أن كل الذيـن يضطرون إلـى استخدام ألـفاظ أجنبـية فى حديثـهم يستخـدمون تلك الألفاظ الـتى تدل على المـعانى أو المصطـلحات ولا

يضطرون أبدا إلى أن يتحدثوا عن الذهب والحديد والخشب بأسمائها الإنجليزية كما كانت تفعل صاحبتنا حين تنظف قطعة الأثاث فتقول إنها من «الوود» الطبيعى، وحين تتحدث عن احتفاظها بحليها التى هى من «الجولد» فى خزينة خاصة فى البنك. وهكذا.

(٢)

وكان إحساسها بالنقص عميقا جدا، وكانت تبذل جهدها طيلة الوقت لتبرير كل شىء حتى مما هى بريئة منه. زارها أحد أصدقائها فى شقة من شقق المصيف المؤجرة، فلفت نظره أن أصحاب الشقة تركوا فيها ما يمكن تسميته - على سبيل التجاوز - بدولاب فضيات قديم.. ولكن هذا الدولاب كان شبه خال بالطبع، فلما أبدى صاحبها ملاحظته هذه من باب التفكه المعهود فى مثل هذه المواقف، أضاعت صاحبتنا من وقت ضيوفها ربع ساعة فى الحديث عن جهدها فى إقناع وإجبار أصحاب الشقة الصيفية على أن يهتموا بدولاب الفضيات؛ حتى أحضر هؤلاء هذه العينات، ولكنها أخبرتهم على حد روايتها أنها غير راضية عنها!! وقد تمالك ضيوفها فى هذا اليوم أنفسهم، غير أن واحدا منهم فى أثناء رحلة العودة كان مصمما على القول بأن هذه السيدة لم تمر بتجربة ارتياد المصيف قبل هذا اليوم على الإطلاق.

(٣)

وكانت تجهد نفسها فى البحث عن موضع ما من أية جملة لتحشر فيه

ألفـاظ السـائـق والخـادم والسيارة مـنسوبة إلى ذاتها المصونـة.. وكانت تبدى كثيرا من العجب والتـعجب على العائلات التى تكتفى بعـدد من السـيارات لا يـزيد عـلى عـدد أفراد الأسـرة.. إذ ماذا يـكـون الحل لـو تعـطلـت إحـدى السيارات؟.

وكان حديـثها عن الـرفاهية كـفيلا بأن يـدفع مستـمعيهـا إلى السخـط على حياتهم.. وربما حدث هذا للوهلة الأولى.. ولكـن أحدا منهم لم ينته من لقائها إلا وهو ممتن لله الذى حفظ عليه نعمة العقل.

كانت تحب أن تبـدو أمام ضيوفها وهى تتحـاور فى ديمقراطية مع ابـنتها فلا يخرج هذا الحوار عن أن يختلفا فى تـاريخ ميلاد الابنة وساعة هذا الميلاد، وكأن ابنتها كانت تملك مقومات الحكم على الصواب بعيدا عما روته الوالدة نفسها.

وكانتا تـتحدثان فى الأبراج وهـو مجال يتسع لـكثير من الآراء بلا مـرجعية واضحة، لكن الأمر الغريب أنهما كانتا تبدآن بوجهتى نظر متناقضتين، ويحتدم النقاش بينهمـا ثم يصطبغ الحوار بشىء من الوئام المصطنـع، ثم يفاجأ الضيوف بأنهما انـتهتا إلى نهاية غـير متوقعة على الإطـلاق، فقد تبنت كل واحدة مـنهما وجهة النظر الأخرى تماما وتخلت عن وجـهة نظرها الأولى، بل أخذت تسفهها إلى النهاية.

وذات مرة كان أحـد الضيوف الجدد ـ الـذى عرفهما لأول مـرة ـ قد أوشك على فقـدان الثقة فى عقلـه، وكان تعليقه يومـها أنه قد فهم لأول مرة فـى حياته معنى الدعاء القائل «يامثبت العقل والدين».

(٤)

منذ اللقاء الثانى كان صاحبنا يسأل نفسه: هل يستطيع أن يعرف هذه الأسرة لأكثر من لقاء؟ ومضت خمس سنوات على ذلك اللقاء الأول. ومازال يرى الأم والأبنة لا لشىء إلا لأنه طبيب، وفى كل مرة يتجدد أمل الفتاة كانت الأم تنتعش، وفى كل مرة يتجدد أمل الأم كانت الفتاة تبتئس، وهو يغدو ويروح ولا يعرف بالضبط متى يتوب الله عليه من ممارسة هذه المهنة.

(١)

لم يصادف فى حياته فتاة مسطحة بنفس القدر الذى تمتعت به هذه الفتاة، فقد كانت كأنها لا تدرى من كل ثقافات الدنيا إلا مشهدين من مشاهد الأفلام الكلاسيكية ومقطعين من مقاطع الأغنيات الشبابية.. وفيما عدا هذين المشهدين وهذين المقطعين كانت بعيدة تماما لا عن الحضارة ولا عن الثقافة ولكن عن الحياة نفسها.

كان عليها ذات يوم أن تصطحب بعض ضيوف مؤسستها إلى الغداء فى ذلك المطعم الفاخر من مطاعم هذا الفندق الجميل.. ولأن المطعم لم يكن قد فتح أبوابه ساعة وصولهم، فقد كان الحل الأمثل عند إدارة الفندق أن تتيح لهؤلاء الضيوف الأجانب أن يتمتعوا بمشاهدة الحديقة النباتية الرائعة القريبة من الفندق لمدة نصف ساعة، وطيلة هذه النصف ساعة لم يفتح الله على صاحبتنا التى كانت تتولى مهمة المضيف والمرشد بغير قولها «وهذه وردة».

كان هذا أقصى ما تستطيعه فى هذه الحديقة النباتية الحافلة بعشرات الأنواع والأصناف من النباتات والزهور والورد.. ولكن صاحبتنا كانت تطوف بهؤلاء الضيوف خطوة خطوة وتنتحى بهم فى كل خطوة لتقول لهم: «وهذه وردة».

ولم تكلف نفسها عناء أن تصف شكل الوردة، أو أن تذكر مجرد لونها، أو أن تظهر أى انبهار بأى شيء من جمال الخلق وقدرة الخالق.

كل ما استطاعته طيلة نصف ساعة كان قولها الذى تكرر أكثر من مائة مرة، «وهذه وردة»، أو «هذه أيضا وردة»، وأيضا «هذه وردة».

(٢)

وعلى هذا النحو كان حديثها إلى كل مستمعيها فى كل وقت وفى كل مناسبة، فعلت هذا فى الموسيقى والغناء وكانت عبارتها المتكررة.. و«هذا كوبليه»، ولم تكن تملك فى تنويع هذه العبارة إلا أن تقول و«اسمع هذا الكوبليه »و«اسمع أيضا هذا الكوبليه»، ولم تكن عندها أدنى قدرة على أن تصف الكوبليه بالجمال أو الشجن أو الهدوء أو الصخب أو الحماس أو الرقة أو السلاسة أو العذوبة أو التعقيد أو الإسراع أو الإبطاء أو الطابع أو الإتقان أو أى شيء حتى لو كان وصفها بعيدا عن الصواب.

إنما هى تقدم نفسها بهذه الكلمة التى ظنت أنها أصبحت بها عالمة فى الموسيقى، وقادرة على العزف الموسيقى كذلك.

وكان حديثها مملا إلى أبعد الحدود، حتى على أولئك الذين تعودوا أن

يستمعوا إلى أنفسهم، وكنت أظن أن صديقى الذى هو أبرز هذه الطائفة من الناس سيكون أكثر الناس تقديرا لها حين يسمع تعليقاتها القصيرة القليلة ويأخذ فرصته هو فى الحديث المتصل، فإذا به يوم التقى بها أتعس الناس، فلما سألته عن السبب أجاب بأنها علقت نفس التعليق على فكرتين متناقضتين، وأنه أحس بأنه لو كان تكلم إلى الهواء لكان هذا أروح عن نفسه، ولكن تعليقها الذى تكرر فى الحالين جعله يشعر بأنه يهذى.

ومنذ ذلك اليوم كان هذا الصديق يعمد إلى إجراء اختبار مبكر لأى مستمع من مستمعيه حتى لا تتكرر معه تلك المأساة التى عاشها تلك الليلة على حد تعبيره.

(٣)

ومن العجيب والطريف أنها كانت تزعم للناس ولنفسها أنها قادرة على الكتابة مع أنها حصلت على وظيفة فى الصحافة لأسباب لا علاقة لها بالصحافة، ولأنها بالطبع لم تكن تملك القدرة على مجرد التفكير البسيط ولا القدرة على مجرد التعبير البسيط فقد أرشدها رؤساؤها إلى أن الأولى لها أن تترجم عن المجلات الأجنبية بحكم إلمامها باللغة الإنجليزية.

وفى ترجمتها التى كانت تبذل فيها الأسابيع الطوال كانت القدرة على إفساد المعنى تظهر بأوضح ما يكون.. فقد كانت أساسيات الموضوع تغيب عنها فتسأل عنها رؤساءها ولا تكلف نفسها عناء فهم ما شرحوه لها، وإنما هى تأخذ عباراتهم الكاملة لتضعها فى سياق الترجمة التى تزعم أنها قامت بها.

وهكذا كان يظهـر الموضوع الذى هو فى زعمها مترجـم، فإذا به يضم الرأى الواضح مع أنه فى الأصل كان مجرد خبر.

ولكـن صاحبـتنا أفـسدت ترجـمة الخبـر حتـى فقد مـضمونـه، وبقيـت فى موضوعها تلك المقدمة التى شرح بها رئيسها الموضوع الذى يتحدث عنه الخبر، ومع هذا فهى مقتـنعة بأنها قدمت شيئا ذا بال، ولأسباب إداريـة وإنسانية كانت رئاستها تنشر لها مرة فى الشهر وتهمل موضوعاتها فى المرات الثلاث الأخرى.

ومع هذا فقد كانت صاحبتنا تعتقد وتجاهر بأن المجلة العظيمة لم تقدم طوال الشهـر كله إلا هذا الـسبق الخطيـر الذى كان لهـا الفضل فيـه، ولهذا فإنـهم قد استـكثـروا أن يكون لـها أكـثر من هـذا حتى لا تـستـأثر بكـل المجد الـذى فى المجلة!!.

(٤)

وعلى الرغم من هذا كـله، فقد رزقها الله سبحانه وتعـالى مقســم الأرزاق بـــزوج مناســب ذات صباح.. وعاشـت معه منذ سنوات قريبة فى هدوء ظاهر لم تحـــظ به أية زميلـة مـن زميلاتهاـ اللائـى كـــن يفقنها فـى كل شىء إلا فى التفاهة.

(١)

كانت تظن نفسها قادرة على كل شىء.. على المطبخ والملبس، على الشعر والقصة، على التفوق فى الدراسة واللمعان فى الرياضة، على جذب الناس وتحطيم الأفئدة، على إبراز الجمال وإظهار الأهمية، على صياغة الحياة وتنظيم الوقت، على بث الأمل وتحقيق النجاح، على إثبات الذات وإشباع الطموحات.

وكانت قد نشأت فى بيت فيه من اليسر أكثر من الستر، وكانت أول أولاد أبويها، وكانت لها مربية خاصة وحجرة خاصة، ولعب خاصة، وحياة خاصة، وكان الدلال والتدليل هما أبرز ما قوبلت به، ولم يكن سهلا ولا مطلوبا أن تتحول معاملتها عن هذا الطريق.

وكان ذكاؤها الفطرى ونبوغها قد ساعداها على أن تعزف الموسيقى فتبدع على قدر ما تسمح لها سنها بالإبداع، وأن ترسم بالفرشاة فتظهر على اللوحة صورًا كانت فى مخيلتها، وتقرأ بصوت عال فلا يتأذى الناس من حولها؛ لأن

فى كلمـاتها رقة وشاعرية، وفـى مرحلة تاليـة أصبح فى وسعها أن تـبدع بعض الأشعـار الساذجـة، وحين أحسـت مع تقـدم سنهـا بتفاهـة ما تروى الخـادمات لإخوتها الصـغار، حملت عنهن هذه المهـمة وبدأت طريقها فى القـص بتأليف الحكايـات البسيـطة، وكانت فـى هذا المعنـى قد اهتدت إلـى تطوير الحـكايات القديمة التى تتحدث عن العفاريت بحيث تضع فيها الآلات الحديثة فى موضع البطولة بدلا من تلك المخلوقات الغريبة!!.

(٣)

وشاء لها الـقدر أن تفقد أبويهـا فى حادث من حوادث السـيارات وهى فى الثانية عشرة من عمرها، ولم تفقد كـثيرا بهذا الحادث المؤلم، فقد كانت فى هذه السن تحس بأن فى وسعها أن تكون الكل فى واحد.

وكانت تعجب لأثر هذه الصدمة على جديها وعلى إخوتها الصغار على حد سواء، وتيـسر لها بفضـل ثروات أبويها الـطائلة أن تعـيش على نفس المستوى وربما أكثر من الدلال والـتدليل وإجابة الطلبات وإشباع المـواهب، ولم يكن من العسير عـلى جديها أن يحفظـا لها كل ما كانت تعـيش عليه من رفاهيـة فكرية وتعليمية ، لم تكن أبرز صورها أولئك الأساتذة الذين يعلمونها كل شىء تريد أن تتفوق فيه.

وكان أسـاتذتها شـأن كل الأساتـذة المدرسيـن، يعرفون طـريق الموهـبة، ولا يعرفـون ثمارها.. وكـانت تعجب لـهذا الحظ السـيئ الذى تجده فـى كل واحد منهم، ثم هدتها فطرتها إلى أن الموهبة وفهمها ليسا كل شىء فى هذه الحياة.

(٣)

أرادت أن تخرج (وقد بلغت السادسة عشرة) إلى الحياة العامة ليقرأ الناس أشعارها، وليشاهدوا لوحاتها، فلم يكن هذا بالأمر الصعب، فقد ساعدتها اتصالات عائلتها، وجمال اسمها وشكلها، على دخول هذه الحياة من أوسع أبوابها.

وهناك استمعت كثيرا إلى مديح المعجبين، والمتملقين، والناقدين، والذواقة، والتافهين، والطامعين، فى جمالها وذوى المصلحة فى المديح، فأسعدها من كل هذا أن فى كلام كل منهم شيئا من المديح استهواها، وصرفت سمعها منذ البداية عن كل فقرة تدرك بحسها الإنسانى أن فيها نقدا أو انتقادا.

ولم يكن هذا هو أول الطريق إلى الغرور، بل لعله كان نهاية الطريق إلى الغرور،وهو الطريق الذى يصعب على الإنسان أن يعود منه من حيث أتى، لأنه يصبح متصورا أنه وصل القمة، وأنه لو عاد من حيث أتى فإنه راجع إلى الحضيض!! وأنه لو عاد من هذا الطريق مرة أخرى فإن هوة سحيقة كفيلة بالقضاء عليه فلا يمكن له بالتالى أن يعود ثانية إلى القمة التى هو راض بها!!.

(٤)

وهكذا أصبحت حال صاحبتنا، فلا هى تؤمن بأن النقد قد يفيدها، ولا هى تؤمن بأن فى تلك العبارات القاسية فائدة أو مغزى غير حقد أصحابها على

موهبتها، وهى ترفض أن تصدق أن نشر الإنتاج الأدبى يحتاج شيئا من الجهد فى متابعة المطابع أو التوزيع أو غير ذلك، وهى لا تدرك أن لوحاتها قد أصبحت لا تعبر عن الروح الجديدة التى يحياها الناس بقدر ما تعبر عن روح أخرى انتهت من دنيا الناس، وأصبحت لا هى بقادرة على تحسين مستوى إبداعاتها عما وصلت إليه بفضل معلميها، ولا هى مهيأة لأن تراجع نفسها فى أى شىء مما تنتج أو تؤدى فى أى مجال.

غير أن الطامة الكبرى كانت فى انشغالها تماما عن الجنس الآخر، ففتى أحلامها لا يجىء، لا لشىء إلا لأنها لم تتصور بعد ذلك الفتى الذى هو كفء لعبقريتها الفذة، وألمعيتها الزائدة، وجمالها الفتان، وثرائها الذى لا ينضب!!.

وعلم الفتيان من أمرها كل هذا، ولم يكن بمقدور واحد منهم أن يرمى بنفسه إلى التهلكة، وخاصة أنها كانت تعنى فى إظهار جمالها بالارستقراطية أكثر مما تعنى بالجمال، وأنها كانت تعنى فى تقديم شخصيتها بالتمثيل أكثر مما تعنى بالتطبيع، وأنها كانت فى معاملاتها مع هؤلاء جميعا تنظر إليهم بنفسها، وتلمس أيديهم بعقلها، وتسمعهم بعينها، وتتحدث إليهم من وراء قلبها.. ولم يكن هناك فى عصر السرعة من هو قادر على أن يمرن نفسه على تحويل الحواس التى رزقه الله بها مثل هذا التحويل الغريب، من أجل أن يستمتع بفتاة مثلها مهما كان شأنها.

(٥)

ولم يكن غريبا عليها أن يمضى بها قطار الحياة بلا زواج، وهى سعيدة، والمرة الأولى التى جاء فيها ذكر زواجها كانت حين خطر لجديها ألا يزوجا

أختهـا الصغرى إلا بعدهـا، وكان الشاب الذى تقـدم لأختها الصغـرى عجولا ملحا فاستأذنها الجدان فأذنت قبل أن يتما كلامهما.

فلما جـاء دور الأخت الثالثة لـم يكن أحد بحاجـة إلى استئذانهـا! ومضت عليها ثلاثون سنة، تسمع مديح المتملقـين، وثناء الذين ليست لهم شجاعة النقد الحق،وإطـراء الذين ليـس فى وقتهـم متسع لـلتقـدير السلـيم، وحديث الـذين يؤثرون أن تـكون كل كلمـاتهم مديحا ؛لأنـهم يدركون أن هذا أدعـى إلى رفع قيمتهم هم فى مجتمع مريض، وعبارات الـذين يعنون بالنقد السطحى،وهتاف الذين يكتفون بالعرض السريع للأعمال الفنية.. وكانت تسمع مديح كل الذين ينتمون إلى هذه الطـوائف الست فيزداد إعجابها بنفسها ويتـضاعف عجبها من أنها لا تأخذ بعد هذا كله مكانا تحت الشمس فى دنيا الأدب والفن.

وكان يرضى غرورها أن تسمع أبياتا من الـشعر أو من الزجل فى التغزل بها حتى لو كان فى هذه الأبيات ما يشين، وكانت تـسعد بأن يقال لها إنها فاتنة مع أنها كـانت تعرف أنها لـم تعد تملك مـن مقومات الفـتنة شيئًا عـلى الإطلاق.. وكانت بعد كل هذا تؤمن بأن يوما سيأتى تـصبح هى فيه عميدة المسرح العربى ورائدة القصة العربية وأميرة الشعر العربى جميعا.

(٦)

وعلى هذا الأساس فهمـت أيضاً أن الجيل العظيم من الرواد كانـوا مبتدئين، وأنها هى صاحبة الفضل فى التمام والكمال.

وكانـت تحدث بعـض الناس فـى هذه الأمور بـصفة عـامة فتـجد استـعدادا

للموافقة!! وكان ذكاؤها الذى هو غباؤهـا فى الوقت ذاته يهيىء لها بعد ذلك أن تسرد أسـماء من جيلهـا كمثال لهـذا النضج، ثم تـبدأ فى تجريحهـم حتى لا يبقى منهـم إلا شخصها. وكأن عمادة الفن تـكون بطريقة الاستبعاد والـتصفية، وكانت فى ذلـك متأثرة بما يحكـى فى سذاجة عن الفهـم المغلوط للطريـقة التى وصل بها واحد من الثوار إلى الرئاسة فى آخر المطاف!!.

وكان عقلها مع تقدم سنها يفقد أشـياء كثيرة، فهى للأسف لم تتعود القراءة بقدر مـا تعودت الكـتابة، ولـم تـتعود كثـرة التأمل فـى الأعمال الفـنية بقـدر ما تعودت الإسراع إلى إمساك الفرشاة.

ولـم تكن تؤمن أبدا بنظرية الفن للفن، ولـو آمنت بها لعصمتها من يأسها من تراكم الأعمال عندها دون أن تجد ناشرا ولا عارضا.

ولكنها مع ذلك كانت تعتصم بنظرية «كلهم حاقدون».

(٧)

وقدر لهـا فى أخريات حيـاتها أن تعرف رجـلا كان يصغـرها بكثيـر، ولكن عقله كان يكبرها بكثير أيضا، وكـان من شأنه أن يعنى بالبؤساء والمرضى وأبناء السبيـل، وقد وجد فى شخصـيتها كل هذه الـسمات الثلاث، وظن نـفسه قادرا على تحـويل بؤسها إلـى سعادة، وعلى إرشادهـا إلى الطريق الـسوى، وإن كان واثقا ـ بحكم عمـله كطبيب نفسى ـ من أن مرضها سوف يـأخذ سنوات طويلة حتى يتـماثل للشفاء، ولم يـكن يظن أن البقية الـباقية من عمرها سـوف تسمح بهذا، ولكن راق له أن يتأمل عن قرب حالة تتمثل فيها ارستقراطية المظهر بينما هى فى مخبرها من البؤساء والمرضى!

وكانت لحسن الحظ سعيدة لمعرفتها به، ولكنها ظنت أن الدلال عليه سوف يزيد من تعلقه بها، فكانت تحرص على أن تنهى لقاءها به قبل أن يتم اللقاء، وتعلل ذلك بأوهام شتى، وكانت بمساعدة الجزء الباقى من ذكائها تترك كثيرا من الأمور المعلقة فى يديه حتى يعاود الاتصال بها أو تعاود الاتصال به.. وكانت تزعم له أنها لا تحبه من دون أن يحدثها هو عن حبه لها.. ومع أنها كانت على هذا النحو مملة جدا ومزعجة جدا، إلا أنه ـ بحكم عمله كطبيب ـ كان حفيا بأن يرى تطور الحالة حتى ولو كان هذا التطور إلى الأسوأ.. وكان يرسم خطة العلاج فلا تصمد خطة من هذه الخطط للزمن أكثر من ساعة.. وكان يلجأ إلى ما يلجأ إليه كل الأطباء من إيقاف العلاجات كلها ثم العودة إلى علاج واحد.. ومع كل هذا فهو يفشل فى كل تجربة.

(٨)

ولم يكن بمقدوره أن يمثل عليها أنه يحبها، ولكنه حاول مع نفسه أن يبدأ هذا الطريق أيضا فلم تطاوعه قواه ولاقدراته، ولكنه لم يجد أدنى استجابة تشجعه على البدء ثانية فى تمثيل الدور.

ثم صورت له نفسه أن يدفع بها إلى عالم المال والأعمال، ولم يكن هذا بالأمر اليسير، لكنها سلكت فى هذا السبيل طريقا غريبا: كانت تحاضر عملاءها فى الثقة والأمانة والشرف فيستمعون إليها ثم ينظرون إليها كأنهم يطلبون منها أن تكون مثالا فى هذه الأخلاق.. وكانت بانفعالها التمثيلى تتغافل فلا تمضى عقدا ولا تأخذ إيصالا ولا تحسم حسابا.. والتجار الثلاثة الذين بدأت معهم

حريصون عليهـا يرضون كل أهوائها فى التجارة، ويسمعـون لها كل يوم، حتى أصبح كل مالها وعقاراتها فى السوق، فـى أيديهم هم، وهم يعطونها ويأخذون منها أكثـر، ويعطونها ويأخذون بعدهـا أكثر وأكثر، حتى أصبحـت كل ثرواتها فى أيديـهم، فلمـا لم يعد فـى يديها شـىء يطمعـون فيه لم يـردوا إليها ممـا فى أيديهـم مليما واحدا.. وأصـبحت صاحبتـنا ليس لها إلا مـا يستر جسمـها من ثياب، وحق الانتفاع بالشقة التى تعيش فيـها من عمارتها الضخمة التى باعتها، أما أرضها وثرواتهـا التى كانت تزيد على الملايـين العشرة فقد تقاسمـها التجار الثلاثة من دون أن يستمع أحد إلى خلاف بينهم.

(٩)

وكانت فى ذروة انشـغالها بالمال والأعمال طـيلة عامها الأخير، قـد ابتعدت عن صاحبـها، وكان هو قد ابتـعد لأنه ظن أنه يكـفيه بعد كل هـذا نجاح علاجه الذى اهتدى إليه بعد طول تجربة.

لكنه ذات صـباح يستقبلـها على باب عيادتـه وقد أصابها ضعف فـى ساقها اليمنى، فيظن أن هذا من باب الإجهاد الـذى يعانيه رجال المال، ويرسـل بها إلى المستشفى من دون أن يسمع منها حرفا واحدا، إنما هو يقنعها بأن العجلة فى هذا الأمر مطلوبة قبل أن يتطور الأمر إلى ما هو أسوأ.

ولم تكن صاحبتنا فى حاجة إلى أن تذهب إلـى المستشفى، لكنها كانت تريد أن تستجـمع شجاعتها وتسـأله عن سبيل لإنهاء حـياة انتهت فعلا، ولكـنها لم تفلح أيضا.

وفى استقبال المستشفى أرادت أن تستجمع شجاعتها مرة ثانية فلم تفلح أيضاً.

وحين لم تجبهم إلى دفع التأمين اللازم لدخول المستشفى انصرفوا عنها.. ولكنها لم تنصرف عنهم بل بقيت على مقعد من مقاعد الاستقبال، وهم يحاولون أن يخرجوها ساعة بعد ساعة فلا هى تقوم ولا هى تتكلم ولا هى تفصح، ثم إنهم استدعوا البوليس فلما لم يجد رجال الشرطة جرما فعلته ولا جريمة ارتكبتها لم يسألوها حتى لماذا هى جالسة هكذا! وقالوا للمستشفى فى حدة إن مسئوليتهم هى حفظ الأمن وليس إخراج المسالمين من المستشفيات!!.

(١٠)

وفى اليوم التالى أشار أحد الأشرار على المستشفى أن ترميها هكذا إلى الطريق، ولكن أحدا لم يجرؤ على أن يفعل هذا الفعل فى سيدة يظهر من ملبسها أنها كانت ذات نفوذ أو مال أو عائلة. وتفتق ذهن طبيب قديم عن حيلة ذكية أسرَّ بها إليهم ومضى، ثم استدعوا على عجل مستشفى الأمراض العقلية بعد أن صوروا الأمر للطبيب الشاب القائم بالنوبتجية فى هذا المستشفى على أنه حالة هياج عصبى.. فجاء الإسعاف ومعه قميص أحمر ذو كمين طويلين ما إن رأته صاحبتنا المثقفة حتى مدت يديها فيهما، وقد انفجرت أساريرها.. وتغيرت ملامح وجهها حتى كأنها عادت إلى الوراء عشرين عاما.

(١)

كانت تفكر فى الحب كما يفكر السياسيون فى معركة الانتخابات، فلا بأس بل لابد من زيادة عدد المحبين إلى أقصى حد ؛ لأن المعركة حامية الوطيس، وكلما ازداد المعجبون ولو واحدا زادت الفرصة فى النجاح.. وربما يضيع الكرسى نتيجة فقدان صوت واحد.. وربما يتكبد المرشح دخول معركة الإعادة نتيجة إخفاقه فى الحصول على صوت واحد يكسر به حاجز النجاح من الجولة الأولى.

ومع أن الأمر فى الحب مختلف بطبيعة الحال عنه فى الانتخابات، فقد كان تفكيرها فى الحب والمحبين لا يخرج على الإطلاق عن الصورة التى يعرفها الناس جميعا من حرص المرشح على كل صوت.. ومع هذا فبعض المرشحين ـ وهم قلة ـ لا يجدون حرجا فى أن يصرحوا فى لحظة من لحظات الانفعال أنهم لا يشرفهم الحصول على ذلك الصوت، لكنها كانت على النقيض من هؤلاء لا تريد أن تفرط فى الحلم بأن تتحقق لها الفرصة فى أن يحبها الجميع.

ووصل الأمر بها إلى أنها كانت تستميت حتى تحتفظ بحب الخصمين اللدودين، وبحب الخادم وسيده، والموظف ورئيسه، والابن وأبيه، والأستاذ وتلميذه ، وكان زملاؤها يوجهونها إلى ما فى هذا الجمع بين النقائض من غرابة وتناقض، لكنها لم تكن تزيد على أن تقول إنه ليس فى وسعها شىء تفعله فهم الذين يحبونها! ولكنك يا سيدتى تشجعينهم. وترد فى استنكار عاصف قائلة: وهل يليق بها أن تفعل غير ذلك؟ كأنما خلقت للجميع بنفس القدر.

(٢)

وكان من الطبيعى أن تكون علاقتها بالجميع متوترة.. ولكنها لطرافة الموقف كانت تعتقد أنها على صواب فى كل الأحوال، وأن أحدا كائنا مَنْ كان لا يستطيع أن يلومها على أى تصرف من التصرفات التى تقابل بها هذا الحب الغامر الذى يأتيها من اليمين ومن الشمال!!

وكان معظم المحيطين بها ينفرون منها لسبب واحد هو أن كلا منهم لا يحرص عليها إلى النهاية، وهو يراها على هذه الصورة من جمع المحبين فى سلسلة واحدة.

ولكنها كانت تنظر إلى القضية من باب انتصار وجهة نظرها فى الصواب، وأن الآخرين قد أدركوا الخطأ الذى وقعوا فيه، فإذا كانت الأمور من الوضوح إلى الحد الذى لا يمكن لها أن تزعم أن الصواب كان فى صفها هى دون الآخرين، فقد كانت تجد من شخصيتها وجاذبيتها وسحرها الدرجات الكفيلة بالحصول على بعض الغفران لها فى كل الأحوال.

وكانـت فى حقيـقة الأمر تبـذل من قلبـها لكل هـؤلاء فهى ـ والحق يـقال ـ مستمعة جيدة إلـى شكاواهم وآمالهم وأمانيهم.. وهى تتمتـع بقدرة هائلة على المشاركة الوجـدانية الصادقة والسريعة.. وهـى بعد ذلك لطيفة المعشـر.. خفيفة الروح.

ولكنهـا مع هذا كله لم تكـن تعرف سر جاذبيتهـا الحقيقية، بل هـى لم تكن تعرف أن سر الجاذبية نفسه قابل للـتغير من موقف إلى آخر، وأن أسرار الجاذبية تجدد نفسـها مع كل صباح، وكـانت تفسيراتهـا لأسباب الإعجاب بهـا تعكس سذاجة واضـحة سواء فى تفكـيرها أوخبرتهـا فى الحياة.. وإن كانت هـى تظن نفسها قد تمكنت ـ إلى حد كبير ـ من فهم الحياة.

وعلى هذا النحو كانت تستشهد على صواب رأيها فى البشر بما زعمه البشر أنفـسهم عن أنـفسهـم وعن نفسـها.. وكان مـرءوسوها الـصغار يحـاولون أن يردوها إلى الصواب فـيكثرون من الحديث عن أن من طبائـع الأشياء أن الطامع فى المال يـخفى طمعه فـى المال ويدعى أنه لا ينـشد إلا المجد المجرد على سـبيل المثال.. ولـكنها رغم هذه الـنصائح كانـت تؤثر أن تصدق مزاعـم المحبين ؛لأن السياق كان يأتى فى صورته الكلية على هواها.

وقد كان هذا وراء معاناتها فى أحيان كثيرة من التورط فى مساعدة الآخرين بما كلفـها من عناء شديد، لـكنها كانت تنـظر إلى الأمور نظرة المنـتصر الذى لا يرى فى المصاعب التى عاناها فى سبيل النصر إلا جزءا من النصر نفسه.

وعلى هذا فقـد كانت صاحبتنا حريـصة على الفشل الواضح بـقدر حرصها

على النجاح ، وكانت تخلط النجاح الظاهر بالفشل، وتظن أن هذا الذى تفعله هو المجد الحقيقى الذى لا بد لكل مجتهد أن يتمناه!

وكان أهلها يخبرونها أن بإمكانها أن تحصل على الخير بدون شر كثير، وعلى الجمال بدون قبح، وعلى الحق بدون باطل، لكنها كانت لا تكاد تصدق أن ذلك بالإمكان.

(٤)

كانت تحب الهدايا وتسعد بها، لكنها كانت تتألم كثيرا حين تجد نفسها عاجزة عن ردها كما ردها غيرها.

كانت تسعد بالمحادثات التليفونية الطويلة، لكنها كانت تعود فتتألم حين تعلم أن هذه المحادثة قد حجبت محادثة أخرى جاءتها فى الوقت ذاته.. وكانت تسعد برؤية الأماكن الجديدة وزيارتها.. ولكنها كانت سرعان ما تكتئب إذا قضت فى المكان الواحد أكثر من أربع وعشرين ساعة.

كانت قادرة على أن تكتشف مواطن العظمة والدقة والرقة والأناقة والرشاقة فى كل ثوب جديد، لكنها كانت بذات القدر خبيرة فى توجيه الانتقادات الحادة إلى نفس الثوب قبل مضى أربع وعشرين ساعة على استعماله.

وكانت على هذا النحو شديدة التعبير عن إعجابها بالجديد وشديدة التعبير عن نفورها من كل قديم حتى لو كان جديدا منذ ساعات قليلة فقط.. ولم يكن هذا تعبيرا عن الملل بقدر ما كان تعبيرا عن روح متطلعة إلى توسيع آفاق المعرفة والتجربة والتملك فى الوقت ذاته.

ولكن من سوء الحظ أن قدراتها البدنية لم تكن تدفعها فى كثير من الأحيان إلى المغامرات من أجل الكشف، فقد كانت بنيتها أقرب إلى الضعف منها إلى القوة.. وكانت لياقتها فى حاجة إلى الراحة أكثر من حاجتها إلى الاستنفار.. وهكذا أراحت قواها العضليةُ قواها العقليةَ من حيث لم تكن قواها العقلية تدرى ولا تريد.

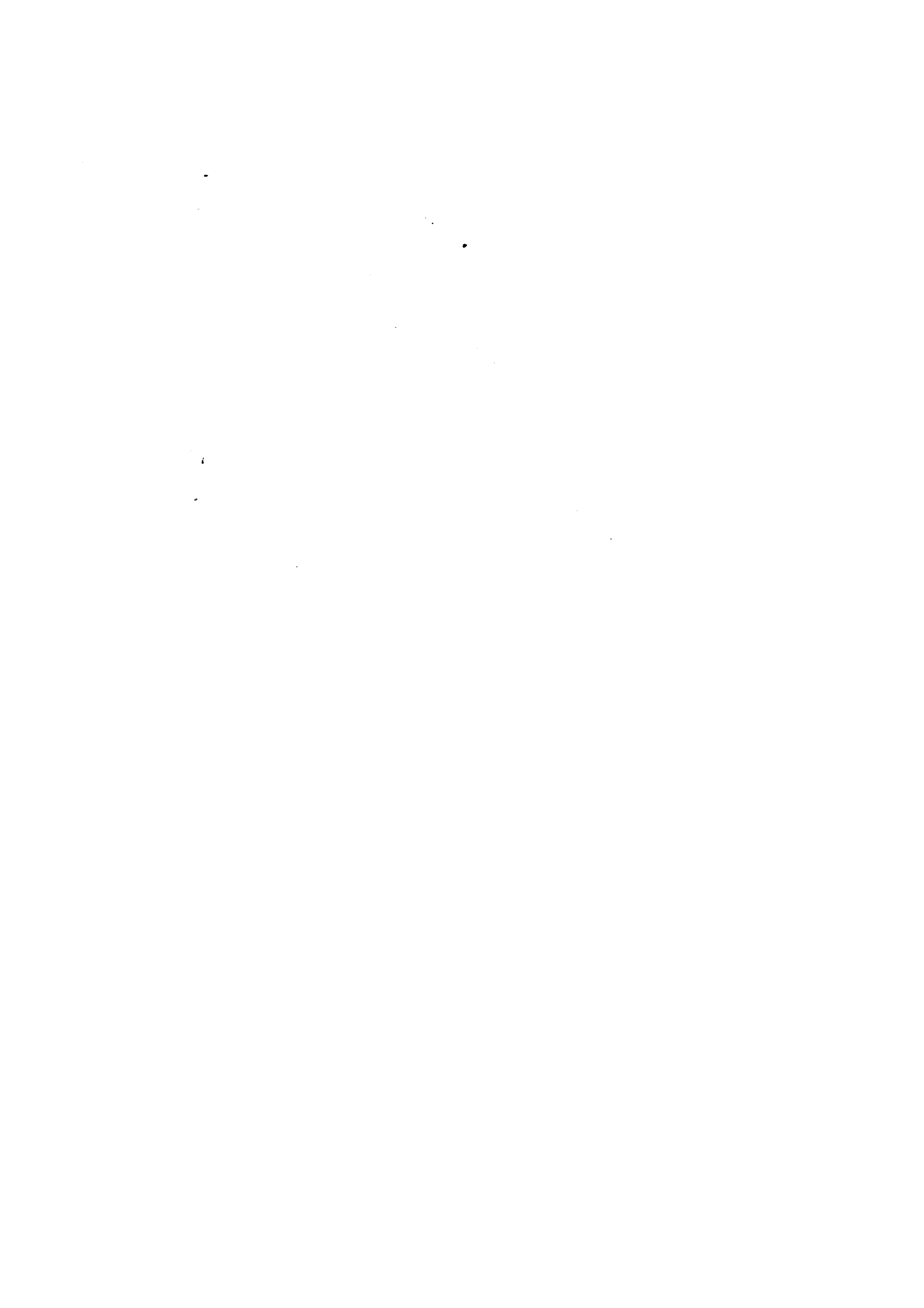
(٥)

عرفها صاحبنا منذ عشر سنوات، وشهد مجدها يزداد ويتألق طيلة السنوات التسع الأولى من معرفته بها، ولكنه فى عامه الأخير شهد كل شىء فيها ومن حولها وهو يتغير بل ويتدهور.

فقد بدأت الدنيا تعطيها ظهرها، وبدأت هى تجرى وراء مَنْ كانوا يجرون وراءها، وبدأت تعبر عن أساها تجاه تزايد هروب المحبين وهى التى كانت لاتكف تعبر عن أملها فى زيادة المحبين المقبلين، ومع هذا كله فقد كانت تحاول أن تقنع نفسها أنها فى أزمة سرعان ما تنجلى لتعود حالها كما كانت بل ربما بأكثر مما كانت.

ومع أن شهوراً وراء شهور قد مضت من العام الأخير دون أن يعود إليها بعض البريق فإنها مازالت عاجزة عن أن تدرك أن بداية انطفائها قد مضت أيضاً، وأنها الآن قد دخلت بالفعل مرحلة الانطفاء التام بأسرع مما كانت تتصور.. ومع هذا فإن أملها فى الحياة الباقية لها مازال كبيرا، وأملها فى الأحياء مازال أكبر.

أما صاحبنا فيتأمل ويسجل تأملاته وهو يتحسب للحظة التى ستثور فيها صاحبتنا على نفسها حين تجد الوهم وقد أصبح على حقيقته وهما فحسب.



(١)

كانت تتوهم أنها أفضل الجميع، ولم يكن لهذا الوهم من سند إلا أنها كانت تزعم ذلك فى ثقة وتعال أمام الناس فى اللحظات التى لا يمكن فيها إلا أن يجاملوها.. ولهذا فهى تقول إنها الأفضل بشهادة الجميع، ولم يحدث أنها عرفت أن أحدا ـ على حد قولها ـ قد تحفظ على هذه الحقيقة!.

كانت ـ على سبيل المثال ـ إذا دعت رؤساءها إلى بيتها، تقدم لهم الطعام باردا وفى كميات قليلة وبطريقة منفرة، ثم تجلس إلى المائدة لتسمعهم محاضرات مطولة عن مهارتها فى المطبخ وفى إعداد السفرة، وكانت لا تجد حرجا فى أن تشير إلى أنها كانت تتوقع أن ينتهى هذا الصنف من الطعام أو ذاك بالسرعة التى انتهى بها، نظرا لجاذبيته الشديدة، بينما الحقيقة أن قلة الكميات هو السبب.

وعلى الرغم من أن آداب المائدة والضيافة كانت تمنع ضيوفها من توجيه

الانتقاد، فإنهم كانوا يحرصون على توجيهه مع تغليفه قدر ما يستطيعون.. فمن قائل إن هذا الطعام شبيه بأكل الفنادق! ولكنها لا تريد أن تفهم ما يقصد، وإذا هى تبدأ حديثًا جديدًا أشبه بالملحمة عن تفوقها حتى على الفنادق.

ويردف ضيف آخر أن هذا الطعام يذكره بطعام المعسكرات الكشفية فى الصحراء، فإذا بها حريصة على أن تحكى أنها استضافت زملاء ابنها من الكشافة، فكانوا سعداء بالطعام، وعلقوا يومها أن هناك فرقا كبيرا بين الطعام الذى تناولوه فى المعسكر الكشفى قبلها بأسبوع، وبين هذا الطعام الدسم!!

وتردف هذا بسؤال زميلها عن آخر معسكر كشفى اشترك فيه أو أشرف عليه، فإذا به نفس المعسكر الذى كان فيه ابنها وزملاؤه فتقترح عليهم أن تستبقى بعض الطعام لابنها ولأصدقائه حتى يحكم ويحكموا بين الطعامين! هنا يعلق أحد الضيوف بأن شيئا من الطعام لن يتبقى لمثل هذه الدراسات المقارنة، وتعود صاحبتنا لتأخذ من هذا دليلا على نجاحها، وهكذا.

(٢)

وفى الجامعة حيث كانت أستاذة كانت تفتعل الأعذار لإهمال واجبها أسبوعا بعد أسبوع حتى تقترب نهاية العام، فإذا الطلاب يتكدسون فى المحاضرة اليتيمة التى يحسون بأنها ستحضرها لتؤشر لهم فيها على الأجزاء الملغاة، وكانت تضيع المحاضرة كلها فى مساومة الطلاب على إلغاء الفصول تلو الفصول.. والطلاب يصفقون لها ويصفرون.. وسريعو الخاطر منهم يقومون ليلقوا قصائد صبيانية من وحى الخاطر فى جمالها وعظمتها، وهى للأسف تستزيد من هذا النفاق المكشوف، وتعدهم بأن تكثر من الإلغاءات كلما ازدادوا فى التعبير عن مواهبهم هذه.

ومع الأيام طورت من أدائها ،فأصبحت تصطحب المصور ليسجل هذا الإعجاب وهذه الجموع.. وبحكم الخبرات التى يكتسبها الطلاب من الزملاء السابقين فقد طوروا أيضا من أساليبهم، فالقصائد التافهة تكتب فى لوحة وحولها إطار مذهب رخيص، وقد يكتبونها باللون الأصفر فتقول الأستاذة لأهل بيتها إنهم كتبوها بماء الذهب، فإذا كتبوها باللون الأحمر قالت إنهم كتبوها بالدم.. وحدث أن كتبوها باللون الأخضر وانتظر زوجها ماذا تقول عن أصل اللون الأخضر، فأدهشه أنها تقول إنه نوع نادر من أنواع الزعفران، ولم تكن تعلم عن الزعفران أكثر من أنه يستخدم فى فك الأعمال السفلية .

(٣)

وفى ملبسها كانت تحرص على أن تلجأ إلى كل ما هو جديد، وكانت تقصد المحال البعيدة عن مجال تسوق زميلاتها ولداتها، وكانت تزعم بعد قليل أن ملبوساتها تأتيها من عواصم أوروبية محددة، ومع هذا فقد كان يحدث بين وقت وآخر أن تعثر إحدى زميلاتها أو إحدى تلميذاتها على نفس الثوب الذى ترتديه، فكانت تفقد صوابها ولكنها تغاير فى رد فعلها، فهى تقول للتى نقلت إليها الخبر أو ألقت إليها بالملاحظة بأن ثوب الآخرى مقلد وأنها تعرف أن محل الملابس المشهور قد قلد الموديل، وبعد لحظات تقول لأخرى إن مدير المحل الآخر طلب ثوبها من المغسلة التى تتعامل معها فقلده، فلما صاحت به أنها عرفت بما فعل عوضها عن هذا التقليد، وبعد ساعات كانت تعمد إلى صاحبة الثوب الجديد فتنهاها فى شىء من التهديد المستتر عن ارتدائه، فإذا لم يكن لها عليها سلطة كانت تلجأ إلى الكيد فتعبر لها عن إعجابها بالثوب الجديد، وخاصة أنه أبرز امتلاء صاحبته بينما تكون صاحبة الثوب الجديد حريصة كل

الحرص على عدم الظهور بمنظر الامتلاء.. وهكذا كان كيد صاحبتنا يحميها فى النهاية مما تتوهمه منافسة خطيرة.

(٤)

وحدث ذات مرة أن إحدى تلميذاتها الفقيرات اشترت نفس الثوب الذى كانت صاحبتنا تعتبره خير أثواب العام، ولم يفلح تهديد صاحبتنا لتلميذتها بالإقلاع عن ارتداء هذا الثوب الذى كان يظهر التلميذة أكبر من سنها على حد تعبير الأستاذة، ولم يفلح هذا التهديد لسبب بسيط وهو أن الحالة المالية للتلميذة لم تكن تسمح فيما تبقى من العام بشراء البديل، ولم يكن أمام الأستاذة غير أن تحرق قلب تلميذتها على ثوبها بأن تتحين الفرصة لتسكب عليه الشاى فى حركة هستيرية كان من الصعب أن تبدو كأنها غير مقصودة.. ومع هذا فلم يكن أمام المسكينة إلا أن تعود إلى ارتداء الفستان بعد غسيل متكرر ذهب بلمعته الأولى، وهكذا بدا الأمر كما لو كانت الأستاذة هى التى اشترت فستانا من النوع الذى اشترته التلميذة منذ شهور.

(٥)

وبلغت تداعيات الأزمة النفسية بصاحبتنا الحد الذى جعلها لا تطيق سماع أى ثناء على أحد سواها، فهى سرعان ما تتحول بالثناء إلى شخصها، ولو كان حديث الناس هو مجرد الإعجاب الظاهرى بالأداء الإجرامى لأحد المجرمين الخطرين، فإنها كانت تبحث لنفسها عن مكان فيما بين السطور، وكانت فى

تعطشها الشديد إلى الثناء لا تفرق بين أن تكون الصفة المنوطة بها لائقة بمكانتها وسنها أم لا، وكانت تحرص فى الجلسة الواحدة على أن تأخذ صكوك الاعتراف بكثير من الصفات المتناقضة.. فهى الأستاذة الليبرالية إلى أقصى حد، وهى فى الوقت ذاته أكثر الناس تدقيقا فى مراعاة الأصول والكلاسيكيات.. وهى أسرع الأساتذة فى إنجاز أعمال الامتحانات، وهى فى الوقت ذاته أكثرهم أناة.. وقد وصلت الحال بزملائها وتلاميذها أنهم أصبحوا لا يمانعون رغبتها فى إضفاء أية صفة من الصفات على نفسها مادام هذا هو السبيل الوحيد إلى إتقاء شرها.

(٦)

كانت قادرة على تصوير عيوبها فى الصورة المناقضة تماما على أنها ميزات، فهى تنسى الخير لأنها تنسى عموما، ولأن النسيان هو العلامة الكبرى للصفح والتسامح.. ولكنها لا تنسى الشر، وكيف تنسى الشر وهى إنسانة حساسة إلى أبعد الحدود، ويسألها الناس عن أبعد الحدود هذه فتقول إنها لم تصادف فى حياتها مَنْ هى أكثر حساسية منها، ويلتفت مستمعوها إلى بعضهم، وهم يؤكدون أنها الوحيدة التى لا تغفر أبدا.

وكانت تدير الحوار بينها وبين صديق أو صديقة على نحو ما يتوافق مع أخلاقها العجيبة، فهى لا تكف عن السؤال عن كل الجزئيات المتعلقة بكل شىء، وهى لا تفتأ تردف السؤال بأنها تريد الاطمئنان، فإذا تصادف وسألها محدثها عن شىء أو أكثر، فاجأته هى نفسها بالسؤال لماذا يسأل؟ وذات مرة اندفعت محدثتها لتبين لها هذا التناقض، فقالت لها فى هدوء إنها تسأل لتطمئن بحكم خبرتها وتجربتها وعقليتها الراجحة، أما الآخرون فهم أقل منها خبرة

وتجربة وذكاء، ولهذا فإن سؤالهم لا يحمل معنى الاطمئنان، وإنما معنى التخابر على أحسن تقدير.

(٧)

وكانت على هذا النحو من تقديرها للناس، فهى فوق الجميع والجميع يعرفون ذلك، وكان بين هؤلاء الجميع زميل وزميلة لها اجتمعا على الصداقة لشيء واحد هو أن يتبادلا الحديث عن غرائبها وطرائفها، وبذلت على طريقتها كل جهودها فى الوقيعة بينهما، وكادت تفلح فى المرة الأولى لولا أن زميلها وزميلتها رددا لبعضهما ما روته لكل منهما على انفراد.. ومنذ ذلك الحين صعب عليها التفريق بينهما رغم جهودها المستميتة فى كل لقاء، وكان أكثر ما يغيظها أنها تسأل هذا أو هذه : هل يتبادلان الحديث؟ فيردان بالإيجاب حتى لو كانا قد انقطعا.

وبعد سنتين من محاولات فاشلة ذهبت إلى كل منهما تنهاه عن محادثة الآخر؛ لأنها كانت السبب فى معرفتهما ببعضهما، ولم تجد أى مانع فى أن تعزز هذا الطلب، وتبرره بحجج دامغة فى أن الصداقة بين اثنين شيء مادى يتملكه الذى بدأه وعرفها ببعضهما، وأن الأخلاق الكريمة لا تسمح لأحد بأن يحادث صديقا إذا كان الذى ربط بينهما غير موافق على أن يتم بينهما حديث.

وكانت تردد هذا الكلام الغريب فى بساطة لم تمنعها من أن تتمادى فتقول: هل يمكن أن يتحدث تليفونان بدون السنترال؟ وكانت تصور نفسها على أنها السنترال! وكانت مأساتها منذ ذلك اليوم - فى نظره - أعصى ما تكون على العلاج.

وكانت تشغل بعض الوظائف المؤقتة ذات الأجر المرتفع، لكنها كانت حريصة على أن تذكر أن هذا الأجر لا يفى أبدا ببنود إنفاقها التى يعرفها الجميع.. ومع هذا فإنها فى جلسة واحدة ذكرت أنها اضطرت إلى هذه الوظيفة من أجل المال، ثم ذكرت أنها سوف تنفق على متطلبات هذه الوظيفة من حر مالها.. ومال أحد الحاضرين من زملائها الجدد على واحدة من القدامى يسألها: غنية أم فقيرة هذه السيدة؟ فأجابته بأنها فقيرة إلى كل قرش متوقع، وغنية عن كل ألف لم تنله، ولم يفهم صاحبنا هذا القول الشرطى! ومال على زميل آخر يسأله بلهجة أكثر تحديدا: هل هذه من المياسير أم من المساتير؟ فقال له: إنها ثرية حين تريد الفخر، ومن المعوزين إذا رأت الغيث.. ولم يجد الزميل الجديد بدا من أن يتوجه إليها نفسها بالسؤال.. فإذا بها تقول إنها الآن أفقر بكثير مما كانت عليه، ولكنها لا تزال أغنى الجميع، فأجابها بأنه ثرى وأنه ربما يكون أغنى منها، فأجابته بأن هذا مستحيل، ففغر فاه، وسألها: كيف؟ فقالت له ببساطة: قل لى ما عندك وأنا أقول لك ما أمتلك.. وإذا بالغنى والثروة يتحولان عندها إلى سجال لفظى تملك هى ناصيته.. فإذا كان له عشرون فدانا فإن لها خمسة وعشرين، وإذا كانت له عمارة فإنها تمتلك عمارة أكبر.. وهكذا.

ولم يكن زميلها يعرف أنها تؤلف ممتلكاتها للتو واللحظة مهتدية بممتلكاته إلا حين وصل إلى قوله إنه اشترى مدفنا بالقرب من القاهرة، رغم أنه يود لو دفن مع أهله فى قريته، فإذا بها تقول إنها هى الأخرى قد اشترت مدفنين واحدا فى القاهرة والآخر فى الإسكندرية رغم أن عائلتها وعائلة زوجها تتنازعانها من الآن!! ولم يكن صاحبنا بحاجة إلى أن يسألها عن جدوى المدفنين ومدى حاجتها إليهما.. ولكنه أراد أن يعرف أين تقع مدافن الإسكندرية، فإذا

بصاحبتنا وهى غـافلة تجيبه فى ثقة شديدة بأنها فضـلـت أن يكون هذا المدفن فى الصف الثانى على البحر ! !.

(٩)

وكانت تجـاهر بأن نوع الـسيارة التـى تركبهـا هو خير الأنـواع، فلما بـدلت بالسـيارة سيارة أخرى أصبـح النوع الجديد هو خـير الأنواع مع أنها كـانت قد هاجمته بشدة منذ شهور.

وكانـت لا تؤمن بـنظريـة القيـمة وتبـذل جهدهـا فى دحض هـذه النظـرية، وحدث أن سـألتهـا إحدى الزميـلات :كيف تـكون قيـمة تلك الـسيارة أربـعة أضعاف قيمة سيارتها ولا تكون أفضل من سيارتها؟ فكان جوابها إن هذا يرجع إلى غباء (كل) الذين يقـتنون هذه السيارة المكلفة، وإلى ذكائهـا هى فقط، فلما أراد أحدهم أن يـضم إليها فـى الذكاء أولئك الـذين يقتنـون نفس سيارتـها لم تتورع أن تقول إنهم مـا اشتروها بسبب الذكاء، وإنما لأن قدراتهـم المالية وقفت بهم عند هذا الحد ! !.

وخلاصة القول أن غرورها كـان قاتلا، لكنها كانت تجيد استـعماله، فهى قد حصنت نفسها مـن تأثيراته منذ مرحلة مبكرة، وكانـت تقول لأولادها الذين لم يستطيـعوا أن يحققوا أمنيتهـا فى وراثة هذا الغرور، إن الغرور ينبغى أن يكون كعصـارة المعدة تهـضم الطعـام كلـه بـدون أن تهضـم المعدة أو أن تؤذيـهـا.. ولـكـن أولادها كانوا للأسف الـشديد أعجز مـن أن يفرزوا مثل هذه الـعصارة المغرورة.

(١)

كانت حياتها قد عودتها الكذب بمبرر وبدون مبرر، فهى تكذب على طول الخط لتحقق شيئا واحدا فى عقيدتها وهو أن تكون قادرة على الاختلاق.. وكانت بينها وبين نفسها تظن أن الكذب هو قمة الإبداع الذى يمكن للبشر أن يصلوا إليه ... ولم لا؟ وهى تبذل الجهد العقلى المكثف من أجل إيجاد مواقف جديدة ،وأحداث لم تقع لترضى بها طموحها إلى ما تريده أن يتحقق.

وقد اكتفت من الجهاد فى الحياة والكفاح فيها بجهدها الدءوب فى الكذب، فهى تخرج من البيت وتعود لتروى أنها ذهبت مكانا غير الذى ذهبته لا لشىء إلا لأنها كانت فى قرارة نفسها تتمنى لو استطاعت أن تذهب إلى المكان الآخر.. فهى تحقق بالكذب رغباتها التى لم تتحقق.

فإذا أنت أردت أن تتأمل لماذا كانت تريد أن تذهب إلى هذا المكان الذى لم

تذهب إليه لعانيت صعوبة، ثم يهديك البحث والتقصى إلى أن هذا المكان كان كفيلا ذات يوم بتحقيق رغبة بسيطة لها لـم تحققها فى حينها، فهى لذلك لا تفتأ توهم نفسها بأنها ذهبت إلى هناك رغم تغير الظروف.

وهكذا كانت تبدو أمام القريبين والمقربين منها، وكأنها تقود نفسها فى حلقات متصلة من العبث اللانهائى.. ولكنها على الرغم من ذلك كانت تتمادى فى النزوع إلى هذا الخلق المقيت حتى أصبح والداها وهما أقرب الناس إليها لا يصدقانها فى أى شىء.

(٢)

وكانت إذا روت قصة واقعة حدثت لها ذلك الصباح وقاطعها أحد المستمعين كعادة الناس بالخطوة المنطقية التالية، صممت على أن تحيد عن الخط، وتلجأ إلى الكذب، ويأتى كذبها بعيدا عن السياق تماما، كأن تذكر قيام أحد الزملاء بشىء، بينما كانت قد ذكرت أنه كان غائبا ومسافرا، وينبهها المستمعون إلى هذا التناقض الرهيب فتفاجئهم بلا حياء بكذبة جديدة مختلقة ونادرة من قبيل أن هناك اثنين من الزملاء بنفس الاسم، أو أنه عاد فجأة من سفره عند هذه الواقعة الجزئية.

والأدهى والأمر من ذلك أن تلجأ إلى أن تقول لمستمعيها ـ وقد حدث ذلك مرارا ـ إنها كانت تضحك عليهم (وهذا هو تعبيرها المفضل عن الكذب) عندما أخبرتهم فى البداية بأنه كان غائبا ومسافرا، فإذا تعجب أحد المستمعين من أقاربها وسألها، وماذا سيفيدون من حضوره أو غيابه انتابها الغضب المصطنع لهذه المقاطعة التى لا لزوم لها.

وهكذا أصبح المقربون منـها يؤمنون بنظرية أنها تلجأ بكذبـها إلى التعبير عن رغبات قديمة فات أوان تحقيقها منذ زمن بعيد.

(٣)

وعلى هذا النحو كانـت تقود خطواتها فى الوظيفة، فهى تـنتقد الجهد وتعود لتنفى أنها انتقـدته ، وهى تقبل على ما تقبل عليه الأغلـبية، فإذا نفرت من شىء يحبه الناس أقنعت نفسها بأن النـفور هو الأصل، وأن مشاعر الناس جميعاً هى الاستثناء .

وكانت لا تضع لنفسها معايير كفيلة بالنجاح والتفوق فى الأداء، لأنها كانت تظـن نفسـها قادرة عـلى أن تحور من مـستوى الأداء فـيما تـرويه عن إعـجاب الرؤساء به وتقديرهم له، وفى اختصار شديد فإن العمل لا يمثل لها شيئا ذا بال؛ لأنها كانت تعرف أنها تملك من الخيال القدر الكفيل، لا بأن يصور لها ما تبتغى من نجاح.

بل بأن يـصور للناس مـا تبتغى مـن نجاح. بل بلـغ الأمر بها مع الـزمن ومع إدمان الكذب أنها أصبحت لا تصور للناس ما تبتغى من نجاح، بل كانت تصور لهم ما كـانت تبتغى مـن نجاح، فقد بقيـت بحكم التصـنع المتكرر عنـد مستوى محدود من الـنجاح كانت تبحث عنه فى فـترة مبكرة، وظلت تقنع الـناس بأنها وصلت إليه يوما بعد يوم بينما هى قد وصلت دون أن تدرى إلى أبعد منه شأوا فى بعض الحالات، ولم تصل إليه بتاتاً فى البعض الآخر.

(٤)

وكانت تظن أن قدرتها على اصطناع الالتزام بمواعيد الحضور تمثل نجاحا، بينما هى وصلت بحكم الأقدمية إلى الدرجة الوظيفية التى لم تعد مسئولة فيها أمام أحد عن الالتزام بموعد حضور.

وأصبحت هى المسئولة عن متابعة مواعيد مرءوسيها، لكنها بما اصطنعت من قدرة على إقناع المرءوسين بأنها حضرت مبكرة واللجوء إلى كل الوسائل الكاذبة لتحقيق ذلك أصبحت مثار سخرية جميع مرءوسيها، فهى لا تلومهم على تأخيرهم إذا حدث.

ولكنها تضع نفسها موضع المذنب، وتبدأ فى اختلاق قصة ترويها وخلاصتها أنها حضرت مبكرا ثم ذهبت لشأن من الشئون قبل أن يجدوها فى مكتبها.. وكانوا كلهم يعرفون أنها كاذبة.. ولكنها كانت توهم نفسها بأنها قد أقنعتهم بهذه الكذبة بينما اضطروا للاقتناع لأنها الرئيسة وهم المسئولون أمامها.. وهكذا كانت سيطرتها على نفسها تزداد سوءا يوما بعد يوم، فقدكان من المستحيل على هؤلاء المرءوسين ألا يستفيدوا من التأخير المتاح هكذا بدون عقاب بل كانوا يستفيدون أيضا قدراً من السعادة بملاحظة رئيستهم، وهى تبرئ نفسها بطريقة مهزوزة بدلا من أن تلومهم.

(٥)

وكان خلقها هذا صورة مصغرة لتوجهاتها الغريبة فى عاطفة الحب.. فهى قد وقفت فى فهم معنى الحب عند مستوى محدود من إبداء الإعجاب الصادق بها

فى صمت، وكأنها لا تعرف درجة مـن الحب تفوق هذه الدرجة، بل إن الأدهى من ذلك أنها أصبحت كأنها لا تؤمن ولا تـعترف بأية صورة أخرى للحب أبعد من هذه الـصورة، كأنه لا يجـوز للحب أن يتطـور إلى أبعد من هـذا الإعجاب الصامت الصادق.

وكان ذووها فى بداية الأمر يظنون أن تربيتها الصارمة كانت وراء هذا الفهم المفعم بالحـياء، ولكنهم فيمـا بعد اكتشفوا من مـناقشات مستفيـضة أن إدراكها العقلى لمعنى الحب قد وقف عند هذا الحد، وأنها ليست على استعداد رغم تقدم سنها لأن تطـور هذا الفهم ولا لأن تعترف بأن فى الإمـكان وجود صور أخرى للتعبير عن هذه العاطفة النبيلة، وكانت لا تجد صعوبة فى أن تصنف كل الصور والمراحل والدرجات الأخرى خارج إطار هذه العاطفة النبيلة.

وعلى هذا النحو كانت تتوجه بعواطـفها الصادقة فى قنوات محددة وترفض حتى مجرد التفكير فى استكشاف الدروب الأخرى.

(٦)

وقد قـادها هـذا بعد ثـلاث سنـوات من منـاقشـات مسـتفيـضة مـع إحدى صديقاتـها المقربات إلى أن تحدد صـورة فتى أحلامها دون أن تجـده.. ثم مضت قرابة ثلاث سنوات أخرى حتى وجدته متجسـدا فى شاب مفرط السلبية يفتقد إلى الحدود الدنيا من الإيجابية والمبادرة والنزوع إلى الحياة والعمل.

وكان من الصعب على كل المحيطين بها من جميع الفئات أن يقنعوها بخطأ اختيارها.. ولم يكن هناك من المحيطين بها مـن لا يتمنى لها الهداية إلى الحقيقة

المرة.. ولكنهم جميعا لم يكونوا يعرفون أن هذا الذى اقتنعت به لم يكن إلا التجسيد الوحيد والكامل الذى خلقته هى لتصور وحيد وقاصر.

وهكذا فقد كان من المستحيل عليها أن تفرط فيه على الرغم من أنه لم يكن رغم كل شىء متمسكا بها ولو إلى الحد الأدنى.. وكان زملاؤهما يعجبون لهذا الاختيار المفرط فى شذوذه وغرابته، وخاصة أن انعدام التكافؤ لم يكن بالأمر الخفى على أعينهم.

وكانوا يلجأون إلى كبار السن يسألونهم الرأى، فكان هؤلاء يحدثونهم بأن الحياة لا بد أن تمضى بالغرائب كما تمضى بالبدهيات، وأن للطفرة فى الأحداث دورا لا يقل فى شرعيته عن دورى التدرج والوراثة ؛ حتى وإن كان حجم التأثير قليلا إلى أبعد الحدود.

وكان ذووها يعجبون أن تكون هناك طفرة فى الاتجاه السلبى فكان حكماؤهم ينبهونهما إلى أن المكسب الكبير الذى يحققه طرف ما فى صفقة ما قد لا يكون إلا خسارة كبرى عند الطرف الآخر.

أما هى فكانت تعتقد أنها لم ولن تخسر على الإطلاق.. ومع هذا فإنها لم تكن سعيدة فى يوم من الأيام.

وأظنها لم تعرف الحب ولم تذق طعمه، فقد كانت متعتها الوحيدة هى الكذب.. كما أنه كان إبداعها الوحيد.

(١)

كانت تفتقر إلى الحنان، وعندما كانت تظن أنها أوشكت أن تجده فإن سعادتها كانت لا تقدر بالدنيا كلها؛ لأنها عرفت أخيرا شيئا لم تكن قد عرفته من قبل، وإن كانت قد سمعت عنه وقرأت.. كانت تدرك لأول مرة أن هناك من ينتمى إلى الجنس الآخر، ويستطيع فى الوقت ذاته أن يكون نبعا للحنان. وكانت تحدث نفسها كثيرا بأنها قد وجدت شيئا نادرا وجديدا فى الوقت نفس ، لكنها بحكم روافد كثيرة فى ثقافتها وتربيتها كانت تميل إلى أن تتشكك فى الوجود لتتأكد منه.

وهكذا وضعت نفسها طيلة عامين متصلين فى دوامة لا تنتهى من الشك فى كل تصرف من التصرفات الطارئة التى يسهل تفسيرها على أولى النفوس السمحة، ثم ضاعفت من شكها لتنقب فى التصرفات الطبيعية التى لا تستدعى

التفكير فى قابليتها للشك.. وتمادت حتى أصبحت تبحث عن الوجوه الخفية الكفيلة بتحويل التصرف اليسير إلى نبع غزير للجانب الآخر من الحنان.

(٢)

ومن حسن حظها أن الرجل الذى أحبته كان يفوقها سنا وخبرة، وكان قادرا على أن يتسامح عن الخطأ بعد وقوعه، وعن الغضب عند اندلاعه.

كان يتجاهل نبرة العتاب ونبرة النقد فى حواره معها، لكنه كان يعمد إلى تصرفاته التالية ليجعلها أكثر لينا وأسلس قيادا، وكان يبدو لها كأنه قادر على الموازنة بين رغبتيهما فى كل تصرف إن لم يكن قادرا على إقناع نفسه بضرورة الانصياع التام، وكان بحكم سعة أفقه يجد الفرق بين الشيئين اللذين يبدوان كالنقيضين فى نظرها كأنه مجرد فرق بسيط فى درجة اللون..

وكانت هى تعجب من هذا التبسيط المخل للثوابت فى عقيدتها.. ومع هذا فإنها كانت تخضع للسعادة الطاغية التى كانت تنشأ عن الموقف نفسه.. وكانت تحدث نفسها بأنه ما دامت النتائج فى صالحها فلا بأس عليها ألا تفهم المقدمات.

ومع هذا فقد كانت تتألم لأنها لم تفهم المقدمات، وفى أحيان أخرى لأنها لم تكن تستطيع أن تتصور أن مثل هذه المقدمات تؤدى إلى مثل هذه النتائج.

وكانت حيرتها فى وصف ما تعانيه تتضاعف يوما بعد يوم، فهى لم تكن قادرة على أن تعترف لنفسها بأنها تحب.. ولم تكن كذلك قادرة على أن تقنع

نفسها بأنها لا تحب، وفيما بين طرفى هذه القضية لم تكن تستطيع أن تصل إلى وصف حقيقى لهذه العلاقة..

هو الانجذاب أم الإعجاب أم الائتناس أم هى درجة من درجات الطمأنينة فحسب؟!.

(٣)

كانت تجهد نفسها فى البحث بين مفردات اللغة، وكانت لا تألو جهدا فى سؤال كل من تلقاه من ذوى الخبرة بمعانى المفردات، وبالفروق بين المترادفات، لكنها مع ذلك كانت تخرج من كل هذه الحوارات بمزيد من الاستفسارات وبأبواب كثيرة تفتح على حدائق الشك، وكان هذا أمرا طبيعيا، وخاصة أنها كانت تحتال فى توجيه أسئلتها إلى مستشاريها لعلها تظفر بما تريد بطريقة غير مباشرة.

وحدث أنها سألت أكثر من عشرة من كبار أساتذة اللغة والآداب عن الفرق بين الإعجاب والانجذاب، فإذا هى تسمع معانى مختلفة لكل من الكلمتين، ولكن معنى واحداً منها لا ينطبق على حالتها ولو من قريب.

وهكذا قدر لها أن تفكر فى أن تضع لفظة جديدة تعبر بها عن هذه المشاعر التى تجتاحها اجتياحا.. ولكن أنى لها باللفظة وهى التى لم تصل بعد إلى تركيز الوصف فى جملة واحدة ولا حتى فى فقرة واحدة؟.

(٤)

وحدثت أحد الأطباء النفسانيين بهذا الذى تعانيه ذات مرة، وسألته ماذا يفعل لو كان حاجة إلى تسمية ظاهرة ليس لها اسم من قبل، وأجابها بأن مثل هذا الذى تشكوه هو أروع فرصة ينتظرها الطبيب حتى يصف ظاهرة لم يصفها أحد من قبله، فيكون له الحق فى أن يطلق عليها اسمه هو شخصيا، وبذلك يدخل فى سجل الخالدين..

وعجبت صاحبتنا حين علمت أن هذا الطبيب اللامع لم يصل بعد إلى هذا المجد ولا حتى جاءته الفرصة مرة واحدة.. ثم لما حدثها باستفاضة فهمت أنه حتى يمكن له أن يسمى ظاهرة باسمه، فلابد أن يصفها وصفا دقيقا، أى لابد أن توجد أولا، ولابد أن تكون متمايزة عن الظواهر التى عرفت من قبل، ولابد أن تكون له القدرة على الوصف والتوصيف، ورجعت إلى نفسها فوجدت نفسها عاجزة عن أن تصف، وعن أن توصف، لأنها كانت فى حاجة إلى أن تبدأ حياتها من جديد حتى يمكن لها أن تعرف ما لم تعرفه فى طفولتها.

ومع هذا فقد أسعدها الحظ حين عرفت أن بإمكانها أن تلجأ إلى كلاسيكيات الأدب القديم لتقرب لنفسها الصورة.

(٥)

وهكذا وجدت نفسها تجلس كل ليلة بالساعات لتستعرض النماذج البشرية التى سجلتها أقلام عباقرة الوصف على مدى التاريخ.. وكانت كلما أوشكت

على أن تجد شخصية من الشخصيات تكاد تـقترب بملامحها منها تفاجأ بالأمور تمضى فى اتجاه آخر مختلف تماما.

وكادت ذات ليلة تؤمـن بما كان يكرره صديقها الموسـوعى الذى كان سخر منها منذ شهرين وقال لها إن النفوس الـبشرية لا تقل فى اختلافها عن بصمات الأصابع، ومع أن قـوله كان يبدو منـطقيا جدا، فإنـها كانت غير قـادرة على أن تؤمن به رغم إيمانها بصاحبه.. بل لعل إيمانها بصاحب القول هو الذى جعلها لا تؤمن بقولـه هذا.. فقد كان صديقها المـوسوعى مغرما وناجحـا إلى أبعد حدود النجاح فى وصف الناس وتوصيفهم ووضـع نماذج لا تخيب.. فكيف يمكن لها أن تصدقـه إذا قال لها إن نـفسيات الـناس كبصمـات إبهامهـم لا تكاد تتـطابق أبدا!.

وكان هناك بين إيمانها بقدرته على الوصف ورفضها الاقتناع بوجهة نظره فى تمايز النفسـيات كثير من الحلول الوسطـى ولكنها كانت تواقة بكـل ما فيها إلى حل نهائى.

(٦)

وعلى حين فجأة تقدم لخطبتها أحد الفنيين العاملين فى مجال المقاولات كان أقل منـها فى كل شـئ، بل كان كذلـك أصغر منـها بعامـين، وقد أعجب فـيها بحيرتها التى لاتنتهى، وكانت عنده رغبة فى السيطرة بحكم أنه لن ينال الرئاسة أبداً وإنما سـيظل بحكم مـؤهله وعمله تحـت يد المهندسـين مهما كانوا حـديثى التخرج، ولـهذا فكر فى أن يرأس زوجـته أو رفيقة حيـاته، وقد حدثته نـفسه بما قد تعجز الخبرة الوصول إلى فى كثير من الأحيان.

وهكذا حدث نفسه ثم حدثها أن حالها لن تنصلح إلا به، ولم تبخل هى على نفسها بالفرصة، وقد أنزل الله عليها السكينة بهذا الاختيار، وهيأت لها نفسها أنها لن تعدم الانصلاح معه،وقد بدأت بوادر هذا الانصلاح بأسرع مما كانت تتصور، فقد كان حسمه لا يتيح لها أن تضيع وقتا فى اختياراتها بين البدائل.

وكان يعاملها على نحو ما يعامل رئيس عمال التراحيل الذى ليس له من سلطة إلا على عماله لينفذوا ما أمر به على سبيل الاجمال، ولم يكن يتيح لها أن تختار بين الأحمر والأخضر حتى فى ألوان فساتينها، إنما هو يختار ما يختار، ولايبدى لها المبررات إلا بعد الرجوع إلى البيت، وكان صاحبها لايكف عن الاستبداد، ولكن استبداده كان يمضى كالماء الجارى لايتوقف أبداً عند مشورة ولاعند السؤال عن رأى.

وكانت هى أكثر الناس سعادة بهذا لأن الحرية قد عذبتها من قبل عذابا شديداً، ولم يكن صاحبها ينكر استبداده ، ولا ديكتاتوريته، ولا انفراده بالرأى، ولم يكن يصوغ من التعبيرات المهذبة أو الملتوية ما يخفف به من غلواء هذا الخلق المتمكن منه.

وصاحبتنا لاتسعد إلا بهذا الطراز النادر من الرجولة التى لاتبقى ولاتذر. وكان صديقها القديم يتأمل حالها بعد ارتباطها بهذا الزوج ويضيف إلى معلوماته طرازاً جديداً من الحنان الفتان لم يكن يعرف عنه شيئاً من قبل، ويتمثل لنفسه بقول الخالق فى علاه: ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾.

(١)

كانت روحها المقبلة على الحياة أبرز ما فيها، وكانت لا تفتأ تعبر عن هذه الروح فى تلقائية محببة بابتسامات ساحرة وضحكات عميقة.. كانت ضحكاتها وابتساماتها تقول إنها تريد أن تحيا وأن تعيش، وكانت كذلك تقول إنها تعرف كيف تحيا وكيف تعيش.

ولم يكن أحد يستطيع أن يتحول بها عن هذا الاتجاه الذى ارتضته لنفسها وروضت هذه النفس عليه.. فهى تتفتح للحياة وللحب وللكفاح الذى تقتضيه الحياة لأنها لا تستطيع أن تتصور نفسها تفعل غير هذا.

وكانت حيويتها نفسها تعبيرا عن الحياة الإنسانية كما ينبغى أن تكون.. فهى مقبلة على الدنيا بلا حدود لكنها فى الوقت ذاته تؤمن بأن الحياة نفسها ليست إلا مرحلة من وجود الإنسان.. وأن قدرة الإنسان على أن يحيا عرضة أيضا للتغير والتبديل.. ولهذا فقد كانت تأخذ من حياتها اليوم لحياتها فى الغد.

وكانت أكثر الناس قدرة على الإفادة من خطواتها الماضية.. كانت على حداثة سنها تستخلص العبرة مما مضى بها وتضعها أمام عينيها واضحة وضوح الحق.. وكانت إذا أرادت الابتعاد عن الحقيقة تعترف لنفسها بهذا، ولا تزعم لنفسها أنها تسير فى درب الحق..

(٢)

كانت قادرة على أن تنصف نفسها من نفسها ومن الناس.. وكانت قادرة فى الوقت ذاته على أن تنصف الناس من نفسها هى بدون أن تؤذى مشاعرها.. كان حرصها على مشاعرها أروع من أن يصاب بالأنانية، وأعقل من أن يمضى فى الطريق الذى تأتيه فيه الإصابات من رذاذ الناس.. ولهذا فقد كانت ترتفع بنفسها فوق كل مجال يحتمل وجود هذا الرذاذ.

وكانت كذلك تحرص على أن تظل مرتفعة على الدوام، وهكذا كانت تمضى فى علاقاتها مع الناس من حولها كأنها تستقل مركبة ترتفع بها عن الأرض رغم أنهم يرون هاتين القدمين وهما تلامسان الأرض فى رشاقة شديدة وتتركان آثارهما عليها.. لكنهم إذا تأملوا هذه الآثار وجدوها قليلة جدا كأنما كانت صاحبتها تطير ثم تهبط إلى الأرض كى تتزود بالوقود.. ويبدو أن هذا كان شأنها فعلا، فقد كانت فى عليائها تعطى الإحساس بغلبة العناصر البشرية فى أخلاقها الملائكية.

كانت تجنح إلى القيم الفاضلة عن اختيار، وكان اختيارها يتحدث من تلقاء نفسه عن أنه اختبر الشر وآثر الابتعاد عنه رغم كل ما فيه، وكانت لا تحتقر

الشر، ولكنـها تبتعد عنه، وكانت تـبدو وهى تفعل ذلك كأنهـا قد اختارت هذا الطريق من لحـظات قصيرة فحسب، فإذا ما تـأملت دوافعها أيقنت أنـها خلقت وخلق معها هذا الامتناع عن الشر.

لكنها تحدثك فتكتشف أنها لـم تصل إلى هذه الاختيارات إلا بعد اختبارات متعددة.. ثم تكتشـف أن يقينها بما وصلت إليه يفوق كل قدراتـها العقلية، وهى تعترف بـأن هذا اليقين لا يصـدر عن العقل وحده، ولـكنه يستهـدى فى الوقت ذاته أنوارا متعددة من قلب مؤمن، وبصيرة نافذة، ونفس تسلم أمرها لله.

(٣)

كانت إذا استشعرت السعادة عبرت عن فرحهـا بأقصى ما يمكنها من تعبير.. كأن عضلاتـها وقسماتها لـم تخلق إلا للفـرح والابتسام.. كان صوتهـا يتهدج بالتعـبير الواعى عن هذا الـفرح البرىء.. وكانت إذا غـضبت تنفعل بـأقصى ما يمكنها من الاندهاش والاستنكار المهذب.

وكانت تحرص على أن تصوغ استنكارها فـى صيغة تساؤلات مهذبة، لكنها محملة بكـل ما كانت تريد أن تعبر عنـه من الاستنكار الشديد. كانـت لهجتها صادقة، وكانت انفعالاتها أكثر صدقا.

كانـت مشاعرهـا دافئة، لكـن تعبيـرها عن هـذه المشاعر كـان أكثر دفئـا من المشاعـر نفسها.. ولـم يكن هذا لـينتقص مـن دفء هذه المشاعر الـذى كان بلا حدود، ولكنـه كان تعبيرا عـن مدى الصدق المطلق فـى تعبير الدفء عـن نفسه بعد أن حول الغليان والفوران إلى إشعاع دائم ومتواصل.

عرفهـا صاحبنا فـعرف الهدوء والسـكينة فى الحـب الهادئ الهادى، ولـكنه لشيء فى تكوينه وثقافته ظل حريـصاً على أن يبحث عن الجانب الآخر فى هذه الشخصية.

وكانت خبرته بالدنـيا قد أتاحت للحماقة الفرصة لتقنـعه بفكرة أنه لابد من جانب آخر فى مثل هذه الشخصيات، وكأنما كان قدره أن الله أراد أن يعذبه حين وجد شخصية كهذه ليس لها الجانب الآخر الذى كان يتوقع حتميته.

وفيما كـان يطيل البحـث عن الجانب الآخر، ويجهـد نفسه فى العـثور على مفتـاحه ضاعت من بـين يديه إلى الأبد؛ لأنـها التقت عـلى حين غفلـة بمَنْ كان عنده استعداد ليتقبل نعمة الله الظاهرة دون أن يبحث فيها عن النقمة المستترة.

ويبدو أنه لم تكن فيها نقمة مستترة.

(١)

كانت تنتمى إلى معهد دينى عريق ولـكنها كانت تملأ وجهها بالأصباغ على الدوام، كانت مغـرورة جدا، ومع ذلك كانت التفـاهة تبدو فى كل جملـة تنطق بهـا، كانت رقيـقة الحاشـية فى مظـهرها، لـكن لسانـها لا يلـبث أن يظهـر لك السلاطة، كانت سريعـة البدهية بحيث تظن فى سرعة بدهيـتها الأصالة، لكنك سرعان ما تكتشف أنها لا تدرك أكثر من بعض القفشات المسرحية والتليفزيونية العالقة بأذهان الناس.

كانت قروية تماما، وكانت تبدو فى ملبسها وزينتها وسكناتها وحركاتها كأن أضواء المدينة قـد بهرتها، ولكنك إذا مـا حادثتها سرعان ما تـكتشف أن أضواء القرية الجديدة قد بهرتها من قبل.

(٢)

كانت تحب نفسها.. لكنها كانت لا تجد نفسها إلا حين يحبها الآخرون، وكانت تخدع نفسها بأنها جادة مع أنها أم العابثات. فقد كانت تضيع زهرة عمرها كله فى بحث سفسطائى لا يؤدى إلا إلى الضلال، وكانت تظن أنها قادرة على أن تطوع العالم لخدمتها، بينما هى تمضى من حيث لا تدرى فى طابور المسحوقين، فقد كانت تدرك مدى حاجة الناس إليها ولا تدرك أبدا مدى حاجتها إلى الناس.

أول ما يطالعك منها عينان فاحصتان تظن أنهما مدربتان على الوصول إلى أعماق القضايا، فإذا بهما لا تصلان حتى إلى طبائع البشر الظاهرة. وتحت هاتين العينين كانت وجنتاها المحمرتان تتغلبان على الخجل الظاهر عليهما وتأبيان إلا الاعتراف بأن هذا الخجل يتراجع أمام ثقتها المفرطة بنفسها، وهى تطالع قلمها السيال وقد مضى بين أصابعها الرقيقة يسجل ما تظن أنه فكرها الوثاب.

وفيما بين هاتين الجمرتين المتقدتين، كان هناك أنف رومانى طويل، لكنه دقيق يستغيث بك لتنزله من عليائه ولو إلى أسفل سافلين. وتحت هذا الأنف شفتان قانيتان متقدتان تجعلانك فى حيرة وأنت تنظر إليهما أتطبق عليهما أم تتركهما حتى لا تطبقان؟.

وفوق جبينها كانت هناك شعيرات سوداء فاحمة السواد، مهذبة الأطراف، تتسلل من تحتها حجابها المعقود على جبينها ورأسها، وكانت هذه الشعيرات تنتشر فى نظام بديع قصدت به صاحبته ـ وإن تظاهرت ـ أن تقول إن الشَعر هو الذى أفلت من الحجاب على نحو ما تفعل الباريسيات ببعض الشعرات فى مقدمة الرأس، ومع هذا فلم يكن أصدق وصف لها يتعدى قولك إن العقل هو الذى أفلت من هذا الرأس، ومن تحت الحجاب إلى غير رجعة.

(٣)

عرفها صاحبنا والتقى بها مرة واثنتين وثلاثاً، ولكنه كان يهرب منها فى كل مرة بأسرع مما يتصور نفسه وهى تهرب من مثل هذا اللقاء، وكان يظن أنه يظلمها بهذا، ولكنه فى المرة الثالثة أدرك أنه لن يكون قادراً على تجديد اللقاء ولا على تكراره.. ومازال يجد الفرصة للقياها ، ولكنه يهرب من اللقاء بأسرع مما يتصور.

كان إذا لمح سيارة من طراز سيارتها لاينتظر حتى يتثبت من رقمها وإنما هو يسرع إلى الابتعاد عن المكان كله، وكان إذا علم أنها ستحضر اجتماعاً سجل اعتذاره مسبقاً ومكتوبا مع أنه لم يتعود على الاعتذار المسبق عن الاجتماعات.

وكان يترك الولائم التى يعتقد أنها ستحضرها معتذراً بأعذار واهية لاتليق ومكانته من المجتمعات الداعية.

وعلى الرغم من هذا كله فإن صورة أنفها الطويل المدبب لا تزال عالقة بذهنه، وأصباغها الخاطئة لا تزال مسيطرة على خياله، وسلاطة لسانها لا تزال تسرى فى كيانه، وكان يتمنى لو أنها لم تتوقف عن إسماعه كل سلاطاتها وكل تفاهاتها فى حديثهما التليفونى الأخير حتى يزداد ابتعاداً عنها، ومع أنه كان يعرف أنه يبتعد عنها تماماً فقد كان يتهيب لقاءها.

ويبدو أنه لا يزال لها موضع فى قلبه، لم تشغله أبداً، ولكنه محجوز لها على أية حال.

(١)

أتاح لها والداها أن تتربى منذ صغرها تربية إنجليزية باردة محافظة لاتؤمن إلا بالعقل وبالتعقل، ولاتفكر إلا بتخطيط طويل المدى، وحين عرفها صاحبنا وجدها لاتنبهر بشئ أبدا حتى وإن أبدت إعجابا تلو إعجاب، ومن جهة أخرى فإنه لم يكن أى شيء بسيط أو عادى أو تافه ليفتقد (هو الآخر) ما يجعلها تجد فيه مادة للتعليق أو الحوار، وكانت باختصار شديد قادرة على الإتيان بوجه جديد لكل وجه متاح، كما كانت قادرة على الإتيان باستثناء لكل قاعدة وبتخصيص كل ما هو عام، وكانت كذلك قادرة على تصوير الخير الكامن فى الشر الظاهر ،وتصور الشر الكامن فى الخير الظاهر، وإدراك العقل فى الجنون واكتشاف الجنون فى العقل، وكانت توازن فى كل هذا بين روح الشك وروح اليقين، كما كانت تعتمد على عقلية واعية، وأفق واسع، ومخيلة صافية، وخبرة ممتدة، وقد ساعدتها التربية التى تلقتها على أن يكون لها عقل متميز هو أبرز ما فيها وإن لم يكن هو كل ما فيها، وقد ساعدها هذا العقل على أن تكون لها شخصية متميزة .. وخلقت شخصيتها منها أنثى لا تتكرر، وكان أبرز ما فى

تفردها أنـها كانت لاتنوى الحـياة إلا منفردة، فقـد كانت تتأبى عـلى أى ارتباط حتى لو كانـت هى التى اكتشفت صـاحبه، وتمت العلاقة معـه دون أدنى تدخل من أحـد غيرها، وقـد تكرر هذا فـى حياتهـا التى يـعرفها الـناس حتى أصبح التكرار نفسه بمثـابة صمام الأمن الذى يجعل مَنْ يعرفونهـا متأكدين من أن هذا هو رأيها وخـلقها وطبعهـا، وأنه ليس عذراً طارئاً أو سـببا عابراً للتـخلص من موقف لحظى.

(٢)

كانت تعـمل كثيرا، وتقـرأ كثيرا، وتتكـلم كثيراً، وتفـكر كثيراً، ولكـنها مع ذلك كلـه كانت تجد الحـياة أقل من أن تسـتحق كل هذا، ولـم يكن عنـدها فى الوقت ذاته طموح ولارغبة ولا اقتناع بأن تصرف اهتماماتها إلى الحياة الآخرة، وإذا سئلـت فى ذلك أجابت بأنـها لاتظن نفـسها إلا أنها أهون عـلى الله من أن تكون قديسة أو راهبة.

وكانت تنتقد كل ما يستحق النقـد فى الناس من حولها دون أن يعطيها هذا شعوراً بـالتفوق عـلى من حولـها، بل كانـت تبحث فـيمن انتـقدتهم عـن سر نعيمهم بما لم تنعم به، وقد كان من السهل على عقلها الفاحص أن يجد أسراراً لا سراً واحداً فحسب، ومع هذا فقد كانت نفسها تأبى أن تخضع لهذه الأسرار التى يـكتشفها عـقلها، وكانت نـفسها بما احـتوته من عناصـر غير عقليـة وغير فكرية قادرة على أن تكـتشف أسبابا حقيقية لايصل إليـها إلا أولو القدرة على استـكشـاف مكـنونات الـنفـس البـشرية مـن حب، ووجـد، وبغـض، وكره، وخوف، ورجاء، وأمل، ويأس.

(٣)

لم تكن تصـرح بما تريده فى حياتها المستقبلة، ومع هذا فقـد كانت لاتكف عن التصريح بما لاتريده، ولكن هذا الذى لاتريـده لم يكن ليكشف أوتوماتيكيا عما تريده، وكـان محدثها إذا حاول أن يستـنتج ما تريده بهذا الأسـلوب يفاجأ بالطيف الواسع للاختيارات التى لا تجعلهـا مجبرة على أن تختار البديل الثانى؛ لأنها رفضت الأول فحسب، وذلك لأنها كانت قادرة على إيجـاد البدائل التى لا نهاية لها.

عاشت هادئة راضية مطـمئنة فى معظم أوقاتها، ولكنها شـأن المهنيين الذين يتعرضون لضغوط الحياة المتسارعة لم تكـن لتمنع نفسها من الانفعال فى بعض اللحظات، ولكن انفعالها فى أقصى صوره لم يكن ليخرج عن إطار العجب أو التعجـب ممزوجا بقدر ضئيـل جداً من الاشمئزاز اللـحظى الذى يسهل تـقبله فضلاً عن الاعتذار عنه.

(٤)

كانت تؤمن بالقـدر إيمانا مطلقا، ومع هذا فقد كانـت تقدس حرية الإنسان بأكثـر مما تقدس أى شـىء آخر، وكانت فـى هذا الجانب مـن تكوينـها العقـلى والخلقى صورة نمـوذجية من بعض فلاسفـة المسلمين الذين اسـتطاعوا الخروج بالفـلسفة من برجـها لتكون جزءاً مـن حياتهم فـحسب، وهكذا نجت كـما نجا هؤلاء مما وقع فـيه كثير من الفـلاسفة ودارسيها حين أصـبحت حياتهم نـفسها جزءاً من الفلسـفة... وعلى هذا النحو كانت صـاحبتنا تعطى الفلسـفة والمنطق وعلم الكلام وعلم النفس جزءا من حياتهـا حين يلجئها الحوار العقلى إلى هذا

الركن فحسب، ولكنها لم تكن لتسمح أبداً للفلسفة بأكثر من هذا الركن المتميز فى حياتها.

(٥)

عرفها صاحبنا فلم يفرط فى معرفتها حتى يومنا هذا، وكان ولا يزال يجد فيها أربع صفات متكاملة لم يجدها فى غيرها ممن عرفهن قبلها ولابعدها، فقد اجتمع له فى معرفتها العقل الواعى، والحب الهادى، والود الصافى، والخلق السامى، وكانت تسعد به وبكل لقاء معه، وبكل حرف تقرؤه له، وبكل حديث تستمع إليه فيه، وكانت فى كل سعاداتها أعقل ما يكون الإنسان المحب، وأعطف ما تكون الأنثى المنتمية، ولكنها على الرغم من هذا كله لم تكن لتسمح لقلبها ولا لقلبه بأكثر من هذا.. كانت تتأبى على قلبها، وتتأبى على قلبه كذلك، وكانت قادرة دوماً على أن تمسك لسانها عن أن يصرح بما ينبغى له أن يصرح به، وكانت كذلك تسد أذنها أن تستمتع إلى ما ينبغى لها أن تجيب عنه.. وعلى الرغم من هذا كله فقد كانت عيناها تفرحان بكل ما كانت تحاول السيطرة عليه والتحكم فيه، ومن حسن حظ صاحبنا أنها لم تكن ترتدى النظارات السوداء أبداً، وهكذا ظلت هذه اللمعة الراضية المشرقة المبتسمة فى عينيها دليلا هادياً لقلبه، ونوراً ساطعاً أمام ناظريه.. ومازال صاحبنا يتمنى الارتباط بها، ولكنه يقنع نفسه بأنه مرتبط بها فعلاً، فإذا ما فكر فى الجانب الآخر من القضية وهو أن ترتبط هى به أخذته الوساوس بعض الشىء، ولكن تفكيره يطمئنه أنها بما عرف منها وعنها لن ترتبط بأى إنسان.. ومع هذا فإنها تعطيه وتمنحه وتغدق عليه بما لا يظن أى إنسان آخر يحظى به.. وكان يقنع نفسه أن هذا الذى بينهما هو حب الروح الباقى مشتعلا إلى أن يتلاشى بحب الجسد... وهكذا يبدو أنه أقنع نفسه بما أقنعته به.. وربما بما اقتنعت هى به من قبل.

هذه خمس رسائل انتقيتها بجهد جهيد ومن بين مجموعة رسائل متفرقة ومتباعدة وحقيقية أيضاً تلقيتها على مدى ٥ سنوات منذ ما قبل صدور كتابى «أوراق القلب» وعلى مدى أربع سنوات بعد صدوره، فى هذه الرسائل كان الطرف الآخر - وهو فتاتى العاقلة - يصوب لى ما أراه، وما كتبته، وما أفكر فيه، وقد رأيت أن دراسة «أوهام الحب» لا تكتمل بدون أن نقرأ هذا النقد والتصويب الذى ترى فيه فتاة عاقلة جداً أن هذه الأحكام الذكورية على الأنثى ينقصها كثير من الصواب.

وسوف نلاحظ فى هذه الرسائل أن المعنى أعمق بكثير من أن يتناوله هذا القلم، كما سوف نلاحظ أن الأفكار التى تبدو لنا كأنها متناقضة مع بعضها تمثل بالفعل ما هو موجود فى الحياة التى نحياها جميعا. ومن ثم يمكن لنا أن نقول إنه ليس هناك صواب مطلق ولاخطأ مطلق ولاحتى فى أوهام الحب.. أما الحب نفسه فهو كما نعلم أبعد الأمور عن الصواب والخطأ، ولعلنا قد قلنا هذا فى أول هذا الكتاب حين كنا نقرأ قصة الفتاة التى تحولت من عشق الذات إلى حب الآخر .. بل من حب الذات إلى عشق الآخر.

ولنقرأ هذه الرسائل على مسئولية صاحبتها فتاتى العاقلة.

أنت تظن أن هناك شخصية ضعيفة وأخرى قوية، وأنا عكسك تماما لا أعتقد بذلك، إنك ترى الضعف فى ذلك الانسياق لأقوال الآخرين وأحكامهم على الأمور إذا ما تمكنوا من عرضها بالصورة المقنعة، عند ذاك ترى فى هذه الفتاة نموذجاً للضعف، وما أدراك ياحبيبى أن التى تصفها بالقوية ليست منساقة هى الأخرى.. إنها تنساق ولكن إلى الجانب الذى تريده هى من حديث نفسها إلى نفسها كما أنها تترك الآخرين يتكلمون فإذا اقتربوا من منطقة رغبتها قالت لهم إن هذا هو ما يعنيها حتى لو كان المتحدث يشير إلى أن هذا هو الخطأ بعينه... إنما هى تنتظر ورود النص فى السياق لتقبض عليه وتتمسك به، وأنت يا حبيبى تظن أنها قوية؛ لأنها تأخذ جانب المعارضة بينما هى فى واقع الأمر منساقة إلى أحد جوانب العرض ليس إلا... ومَنْ ذا الذى يستطيع أن يزعم أن القوة والضعف ينبعان من موقع الموافقة على نص فى سياق طويل من سياقات الحياة، إنى لأربأ بك أن يكون هذا هو ظنك أو تقييمك للأمور.



أراك يا عزيزى تخلط أيضا بين الموضوعيات والذاتيات، وترى أن السعى إلى الإقناع يمثل الموضوعية على حين أن السعى إلى الخصوصية يمثل الذاتية، ولوصح رأيك وتقسيمك لأصبح من السهولة أن نقول إن الموضوعيات هن أولئك اللائى يقتصرن فى فهم الحقيقة على ما يخص الآخرين، لأن كل نساء العالم يتركن الموضوعية جانبا حين يكون الموضوع مختصاً بهن وبحياتهن، ويتحولن فى هذه اللحظات إلى مَنْ تصفهن بالذاتية، وهكذا الذاتيات يتحولن فيما يخص الآخرين إلى مَنْ تصفهن بالموضوعية، لذلك فإنى أحب لك أن تبنى أحكامك لا على أحكام الآخرين أو الأخريات فحسب، ولكن على الظروف التى صدرت فيها أحكامهن، وإنى لواثقة أن كثيرا جداً من اللائى صنفتهن موضوعيات سيصبحن ذاتيات، وأن كثيرا جدا من اللائى صنفتهن ذاتيات سيصبحن موضوعيات حين يخضع حكمك نفسه لظروف أكثر موضوعية.



أنت يا حبيبى فى حيرة هل نفضل اللائى يفاخرن بقدرتهن على العطاء لأزواجهن أم اللائى يفاخرن بإخلاصهن فحسب، وربما لاتعرف ياحبيبى أن الأوليات يعطين من أجل أن يسعدن أنفسهن بسعادة الأزواج، وأن الأخريات يخلصن أيضاً من أجل أن يسعدن أنفسهن بإخلاص الأزواج... كأنى أريد ان أقول لك إن السعادة هى هدف الفريقين، وأنت أو غيرك من الرجال قد تحتارون فى تفضيل أى الفريقين على الآخر، وليس لكم أن تحتاروا إذا كنتم تنشدون السعادة فى النهاية، أما إذا كنتم تنشدون الإخلاص وحده أو الإسعاد وحده فإن لكم أن تختاروا، ولكنى لا أظن العطاء ينفصل عن الإخلاص، ولا أظن الإخلاص ينفصل عن العطاء حتى وإن اختلفت الصور فى ظواهرها.

الرسالة الرابعة

إنى أعتقد يا حبيبى أنه رغم قدرتك الفائقة على التمييز التام بين كل توأمين من التوائم التى مرت بك فى حياتك، فإنك لا تزال غير قادر فى أحيان كثيرة على تضييق دائرة الطيف التى تحرك الناس بتشخيصك لهم فيها، كأنك لاتريد أن تعترف بما عترف به الأولون والآخرون من أن ألوان الطيف سبعة ألوان فحسب، أنت تريد يا حبيبى أن تزيد هذه الألوان إلى عدد لانهائى، والناس وأنا منهم نريدك أن تقتصر على نماذج كبرى يسهل تقريب النماذج الأخرى منها، فليس كل الناس بقادرين مثلك على اكتشاف تباينات كثيرة بين الأحمر والأحمر، وبين الأزرق والأزرق وإنما هم فى حاجة إلى أن تشخص لهم الشخصية التى تقابلك تشخيصا تصنيفياً لتضعها فى خانة من خانات الألوان السبعة فحسب، أما تشخيصك الدقيق الذى قاده إليك ومكنك منه حبك للطب وللفلسفة وللأدب فتشخيص غير توصيفى، وغير وظيفى، بل ربما أتجرأ عليك لأقول لك إنه دقيق ولكنه غير ذى جدوى، ولا أظن له فائدة غير أنه أمتعك وأنت تصل إليه، وكفاك أنه أمتعك حتى وإن كان قد أتعبك.

إنى لأتصورك فى تشخيصك غير قادر على أن تخرج من الدوائر التى يدخلك فيها اهتمامك بالدقة فى التشخيص ، كأنك فى موقفك هذا شبيه بالذى يريد أن يخرج من دائرة مرسومة حوله، وكلما تراءى له أنه وجد طريق الخروج عاد فوجد نفسه فى دهليز لم يسلكه من قبل، ولكن نهايته لا تخرج به عن الدائرة التى عرفها من قبل، إنما الدهليز يقوده إلى دهليز آخر أضيق قطراً أو أوسع، وربما يخرج من الأوسع إلى الأضيق وربما من الأضيق إلى الأوسع، ولكنه فى كل الأحوال لايخرج من الدائرة مع أنه يجتهد فى الالتزام بالصواب إلى أبعد ما يمكنه أن يجتهد، وإنى لأظنك كذلك يا حبيبى يقودك الصواب إلى الصواب الآخر دون أن تخرج من دائرة الصواب إلى دائرة القرار الذى لابد لك من اتخاذه إذا كنت تريد أن تختار بحق ما ينبغى لك أن تمضى فيه حتى تبدأ حياة جديدة تشترك معك فيها أخرى تليق بك وتليق أنت بها.



إنى أعرف للأسف يا حبيبى أن رسائلى هذه إليك لن تزيدك فهما ولكنها قد تزيدك حيرة، ولأنى أعرف هذا عن أكيد فإنى أتمنى لك أن تجد طريقك بعيداً عن مثل هذا الحديث، دعنى أذكرك فقط أنك قد أضعت سنوات طوال فى المعرفة دون أن تجنى الثمار التى جناها مَنْ يفتقدون المعرفة تماماً.

لن أكذبك القول يا حبيبى إذا قلت لك إنك أكثر من عرفت ثقافة، ولن أكذبك أيضاً إذا قلت لك إنك آخر من عرفت قدرة على الإفادة من ثقافتهم.. ولعلك تظن أن الثقافة غاية، ولكنها ياحبيبى وسيلة أيضاً إذا لم تكن تعرف.

إنى لا أتملقك كما تعرف، ولا أسترضيك كما تعرف، ولكنى أيضاً لا أخدعك ولا أريد لك أن تظل مخدوعاً هكذا.

أنت تعرف أننى تجاوزتك؛ لأنك تجاوزتنى، ومهما حاولت بنبلك أن تثبت العكس للناس احتراماً لى وتقديراً فإنى لا أريد لك أن تضيع وقتك فى هذا، وليكن ما تريد الحياة .. أفلا تجد لنفسك عليك حقا بعد كل هذا؟ أما أنا فإنى أريد أن أراك سعيداً، على الأقل لأسعد بسعادتك كما أسعدتنى من قبل، وكما سعدت (بصدق) لسعادتى (الظاهرة) من قبل.



(١)

سأكون أكثر صراحة معك من أى إنسان آخر قابلتَه فى حياتك، وسأكون كذلك أكثر صراحة معك منى مع أى إنسان آخر قابلته فى حياتى، ذلك أنى أحبك، ومع ذلك فإنى لا أكره أحداً ولن أكره أحداً بقدر ما أكرهك أنت لو ظللت على هذه الحال التى أنت عليها.

وأنا أكتب هذه الرسالة لك، لأنى عجزت أكثر من مرة عن أن أوصل لك المعنى الذى فيها، لأنك كنت تقاطعنى فى منتصف الكلام، وقبل أن أصل إلى المعنى الذى أريد أن أبلغك به، وكنت تظن نفسك قد فهمت ما أعنيه مع أنك لم تفهم، ولكننى أعذرك ؛لأننى كنت مترددة جداً، إلى أبعد مما تتصور.

وهكذا كنت أبدأ من مقدمات لاعلاقة لها بالموضوع، وكنت أنت للأسف تظن أن هذه المقدمات هى الموضوع، ولهذا كنت تسارع بالرد على مالاينبغى لك أن ترد عليه، وكنت أحاول أن أثنيك عن ردك، لأنه لم يكن يأتى بجديد فيما أريد أن أتحدث معك بشأنه، وإن كنت لا أنكر أنى كنت استمتع بما كنت أسمعه منك من حديث شائق وشيق، ولكن غيظى منك كان أكبر، لأنك كنت

لا تسمعنى.. ومع هذا فإنك كنت تقنعنى وتقنع نفسك بأنك سمعتنى إلى النهاية.

ألم تكن تسألنى بكل براءة: هل انتهيت؟! ولا تبدأ حديثك إلا بعد أن تحصل منى على الإذن وعلى الإقرار بأننى انتهيت من حديثى.. نعم كان هذا يحدث، وكان هذا يغيظنى أكثر؛ لأنك كنت تظن نفسك بهذا قد أنجزت ما عليك، ووفيت بحقى تجاهك، مع أنك لم تفعل ولا أظنك سوف تفعل.

(٢)

أنت لا تسمعنى جيداً.. هذه هى الحقيقة... ربما تنصت إلىَّ، وتظن أن الانصات أبلغ وأقوى من السماع، ولكنك لا تستمع إلىّ، وربما تستوعب ما أقول، وربما تنفعل بمضمون حديثى، وربما توليه كل اهتمامك، ولكن كل هذا ليس هو ما أشكو منه؛ لأنه لايعنينى فى شىء، إنما أنا أقصد أن أقول لك إنك لاتسمع ما ينبغى عليك أن تسمعه وبالتالى فإنك لا تنتظر حتى أقول ما ينبغى لى أن أقول مكتفيا بسماع ما أقول فحسب، ألا تلاحظ ياحبيبى أننى أكون فى شوق عارم إلى الحديث إليك، وأن هذا الشوق لاينتهى بنهاية لقائنا.

لعلك لاحظت، ولعلك لم تلحظ، ولعلك فهمت الآن ما أريد أن أقوله.. إنك لاتعطينى الفرصة لأعبر عن خلجات كثيرة بالحب أو بالكره، ولكنها خلجات ينبغى لنا أن نتبادل الرأى فيها وحولها.. ولكنك تنشغل عن هذه الخلجات بما أقول من مقدمات.

نعم أنا أعرف ما سوف تقوله فى هذه اللحظة سواء لى أو لنفسك، ستقول إنك مشغول عنى بى.. وليس هذا عذراً مقبولاً عندى فأنا لا أريدك مشغولاً عنى حتى ولو كان انشغالك بى، وبى شخصياً، وفى حالتنا هذه فإننى أرجو أن

تفهم أن حديثى الباكر ليس إلا مقدمات، ويـنبغى عليك أن تصبر على حديثى وعلـىّ حتى أدخل مـن هذه المقـدمات إلى المـوضوع، وعندئـذ فمن حـقك أن تناقشنى.

ولكنك يا حـبيبى بحكم أنك النـموذج البشرى لصندوق الـسرعات تسارع إلى الرد على المقدمات، ومن أدراك أنى أريدك أن تتحدث فيها.. من قال لك يا حبيبى إن هذه المقدمات هى التى تهمنى من لقائك.

من قال إن هذه المقدمـات هى كل ما يعنينى فى الحيـاة.. إنك فى هذه الحالة لاتكون أكثـر تمييزا من الفتى الـذى يظن أن المغنى يغـنى أغنية اسمها «يـاليل يا عين» مع أن هذا المقطع مجرد بداية لكل أغنية من أغانى كل المطربين. ومع هذا فأنت بذكائك لاتناقش إلا فى هذا المقطع «ياليل يا عين» مهما اختلفت اللغات التى أؤديها به فى كل حديث.

(٣)

هذا هـو عيبك الأول يـاسيدى، وهو عـيب يقـع فيه كل الـرجال بعضـاً من الوقت ولكنهم سرعان ما يكتشفونه ويتجاوزونه.

أما أنت بكـل علمك وتحضرك وتمدنـك وثقافتك وفهمـك وذوقك ورقيك وحساسيتك وإرهافك وإخلاصك وعشقك فـمازلت حريصا عليه، وقد ظننت أن من حقك عـلىّ أن أرشدك وأن أوجهك مع أنك تـظن نفسك فوق الـتوجيه وفوق الإرشاد، ولكنهـا على أية حال: مرة واحدة أقولها لك، وفـيما بعد ذلك فأنت المسئول الأوحد عن نفسك.

(٤)

إنى أرجـو أن تحذر أن تكرر الخـطأ الذى أدمنـته بأن تظـن أنى أكتب إلـيك لأنبهك إلى هذا الخطأ بالذات، فإن فعلـت ذلك فإنك لم تستوعب بعد الدرس الذى ألقيته عليك لتوى، ولا أظنك تستوعب أى درس آخر بعد ذلك أبداً.

من حقـك أن تسألنى الآن عـما أنا بصدده مـن شكوى .. ولكنـى لا أظنك ستفعل، لأنك لم تتدرب بعد على أن تصـل إلى خفايا قلبى، وخبايا عقلى، أو فلنكن أكثر احتـياطا ولنقل خفايا قلب المرأة وخبايا عقـلها. ومع هذا فلا أظنك بواصل إلى ما أريد أن أوصلك إليه إلا بأن أبذل بعض الجهد معك مع أنك قد لا تستحق هذا الجهد!

إنى آسفة ... إنك تـستحق كل الجهد الذى فـى الدنيا ولكنك لا تسـتجيب، ولو أنك كنت تستجيب لما كان هناك داع إلى هذا الجهد!

(٥)

تظننى متناقضة مع نفسـى، لك الحق إذا تصورت الأمر كذلك، ولكن أرجو ألا تنسى أن الطـبيب حين ينصح مريضـه بغذاء معين وبدواء معيـن فإنه يكون أقرب إلى الأبـله إذا تصور أن مريـضه سيطيع أوامـره من فوره، وسيكـون أبله بالفـعل إذا جاءه المريض بـعد أسبوع يشكـو فلم يبدأ بـسؤاله: هل استـمع إلى نصائحه أم لا؟.

إن بعض المرضى ياسـيدى الدكتور ـ وأظنك منهم ـ لا يـتعاطون الدواء ولا

يتناولون الغذاء الذى أمرهم به الطبيب، ومع هذا فإنهم حينما يراجعونه بعد أسبوع من زيارتهم الأولى له فإنهم لايجدون حرجا فى أن يكرروا شكواهم مع أنهم لم يلتزموا بتعليمات الطبيب. ولا هم تعاطوا عقاقيره، وكأن هؤلاء يظنون أنه يكفيهم أنهم دفعوا أجر الكشف بعدما ذهبوا إلى الطبيب.

وإنى لأرجوك ألا تكون مثل هؤلاء تظن أنك استمعت إلىّ لمجرد أنك أنصتّ إلى ما أقول بكل جوارحك، بينما أنت فى الواقع لم تستمع إلى ما يريد قلبى أن يقوله لك.

(٦)

إنى لا أستبعد أن يصيبك الملل الآن؛ لأنك بطبعك ملول ، بل إنك أكثر مَنْ عرفت مللا، ولو قلت لك إنك ـ كذلك ـ أكثر من عرفت إملالاً لما ظلمتك، فأنت ممل بالفعل ياحبيبى كما أنك ملول.

لكنى لابد من باب الإنصاف أن أعترف أنك ملول بأكثر مما أنت ممل، فإن الحياة معك لاتخلو من بهجة متجددة متعاقبة، بل إنها ممتعة بالفعل، ولكن متعتها تصل إلى درجة الملل لأن متعتها التى تصنعها تأتى فى نظام، وتنتهى فى نظام، ولعل هذا هو السبب فى أنك لاتعرف الملل فى حياتك، ولكن اللائى يعرفنك يحسسن بالملل معك على الرغم من كل ما تقدمه لهن من إمتاع، ذلك أنه ينقصك أن تترك لهن فرصة اقتناص المتعة، وأنت لاتفعل ذلك، وإنما تظن تقديم المتعة على طبق من فضة نوعاً من أنواع التهذيب، وحقيقة الأمر أن مثل هذا ليس إلا نوعاً من أنواع البروتوكول فحسب.

وفى علاقـات العواطف المشـتعلة، فان الـبروتوكول يـكون بالفعـل هو آخر شيء مطلوب.

هل قـلت لك إنـك لا تعرف الملل فى حيـاتك؟.. نعـم هل تظـننى بـذلك أتراجع عن وصفى لك بأنك ملول؟ إذا ظننـت ذلك فإنك تكون مخطئا، فأنت لا تعرف المـلل فى حيـاتك حقيـقة، ولكنـك لا تكف عن الـبحث عن عـناصر للملل من حياتك.

أنت لا تمل مـا تصنع وتبـدع وتنجز وتقدم، ولـكنك فى الوقـت ذاته لا تمل البحث عمـا يسبب لك الملل فى هذه الحيـاة، لعلك تفهمنى ولـعل أحداً غيرك وغير الأذكياء من الذين عاشروك لا يفهم هذا المعنى الصعب الذى وصلت إليه بعد عذابى معك... وعذابى منك!!

(٧)

هل بلغت روحك الحلقوم ولم تـعد تدرى ما أريد من وراء ثرثرتى هذه؟.. ربما ولكنى لا أظن أننـى وصلت إلى المرحلة التى ينبغى عـلىَّ فيها أن أبوح لك بما يقلقنى منك، أو ما يضايقنى فيك.. وكيف أصل إلى هذه اللحظة؟ ومازلت أحس معك بعدم الاطمئنان، فأنا كما ترانى الآن أخشى ما يكون أن تكون أنت قد وصلـت إلى الحدود التى لاتفـهم عندها الـفرق بين الرفض والـدلال، وبين الحب والوصال، وبين الفن والجمال .

ألست أنت الذى علـمنى الفروق بين كل من هذه الأزواج الـثلاثة، وألست أنت الذى تفشل فى الـلحظة المناسبة فى اكتشاف هذه الفـروق، وبالتالى فإنك فى تلك اللحظة تأخذ القرار الخاطئ، بينما الصواب أقرب ما يكون إليك.

هل تشك فى عاطفتى نحوك؟

هل أصبحت لاتعرف حقيقة مشاعرى تجاهك؟

هل ضاق وقتك عن استماعى؟

هل تعوقك مشاغلك عن فهمى؟

هل تبخل علىَّ ببعض نفسك، وأنا التى وهبتك كل نفسى؟

ربما كان لك الحق فى كل ذلك، لأنك مغرور ، ولكنى مازلت أعتقد أن لى حقوقاً أكثر بكثير مما تتصور، بل أكثر بكثير مما تتذكر.

أتراني أخطأت حين ذكرت لك الآن التذكر بعد التصور؟

لا أظنك ترانى هكذا لأنك تعرف نفسك جيداً ، ولأنك تعرف أنك تتذكر بأكثر مما تتصور... بل ربما إنك لاتعرف!

(٨)

هل ما زال عندك وقت يا حبيبى لتسمع منى كلمة واحدة هى خلاصة ما أردت أن أنبهك إليه طوال عمرى؟.

بل دعنى أسألك: هل فهمت ما أريد أن أقول وقد أوشكت على الانتهاء من حديثى ؟.

لا أظنك تفهم، ولا أظنك تستطيع مع أن عندك القدرة ، ولكنك لاتستخدمها.

هل تذكر آخر عبارة وقفنا عندها؟.. نعم.. تذكر أنى قلت لك إنك تتذكر

بأكثر مما تتصور.. وقد لا تعرف هذا.. وقد لا تعرف يا حبيبى أن هذا هو جوهر علاقتى بك وخوفى منك.. إنك تتذكر بأكثر مما تتصور.. ودون أن تدرى أنك تفعل هذا! هل تظن أننى وصلت إلى مثل هذه الجملة بالمصادفة.. لك أن تظن..

ولكنى كنت أود أن أقول لك منذ الصباح الباكر فى علاقاتنا إن عيبك الوحيد والأساسى والجوهرى والقاتل أيضا هو أنك لاتجيد التغابى ، ولو أنك أجدت التغابى ولو إلى حد بسيط لكنا أسعد مَنْ خلق الله..

ولكنك للأسف لاتجيد التغابى، إذن فدع ذكاءك ينفعك... أو فدعه لاينفعك..

تقبل تحياتى... وحاول التغابى - ولو لمرة واحدة - وساعتها ستكون أسعد الناس!.

(١)

أنت يا حبيبى لاتكف عن وصفى بالغرور مع أنك أكثر غروراً منى بكثير، ولكنك تجيد إخفاء غرورك، تحت غلالة رقيقة من التظاهر بالغرور، وليس فى الدنيا كلها من يستطيع ذلك على النحو الذى تؤديه به فى سلاسة وبساطة وبدون أن يحس أحد أنك مغرور، ولكنى أنا دون الناس جميعا أعرف هذا الخلق فيك، وقد كنت فى بداية معرفتى بك فى حيرة : هل أصارحك به؟ هل أخبرك باكتشافى لحقيقتك أو أن الأفضل أن أتظاهر أنا الأخرى بأنى لا أفهم غرورك؟ وهذا هو ما فعلته طيلة معرفتنا. ولكن يبدو أن الأوان قد حان لكى أنهى إليك فى وضوح وصراحة أنى أعرف حقيقتك التى لايعرفها الآخرون... ولكنك أنت تعرفها حق المعرفة.

(٢)

كنت أعجب طوال معرفتنا لماذا لاتثور علىّ حين أثور عليك؟! لماذا لاتنفعل كما أنفعل؟! لماذا لاتوقف صياحى بصيحة أخرى؟!.. لماذا لاتهاجمنى حين

أهاجمك؟!.. كنت أسائل نفسى هل وصلت بك الحكمة إلى هذا الحد؟!أو هل وصل بك البرود إلى هذا الحد؟!.

كنت أعرف ـ بالطبع ـ أنك حكيم، ولكنى لم أكن لأتصور أبداً أن تصل حكمتك إلى مثل هذا القدر، وكنت أعرف ـ بالخبرة ـ أيضاً أنك لاتتمتع بأى قدر من أقدار البرود التى قد يتمتع بها آخرون.. وكنت حيرى فيما بين هذين الفرضين غير القابلين للصواب إلى أن فتح الله عينىّ على حقيقة غرورك الذى لاحدود له.. هذا الغرور الذى يهيئ لك أن كل ما أنفعل به ليس إلا دخاناً فى الهواء سرعان ما يتلاشى بحكم الطبيعة ويبقى لك الهواء النقى.

هكذا اعترفت لى ذات مرة فى لحظة صفاء كنت فيه شبه غائب عن وعيك المعرفى، وقد سعدتُ يومها بتعليقك هذا، ولكنى وجدت نفسى طيلة الأسبوع التالى، وأنا لا أكاد أصدق نفسى، أكانت حكمتك صورة مضخمة من غرورك، أكان برودك صورة متحولة من غرورك أيضاً.. فياحماقتى التى كانت، وياحكمتى التى وجدتها أخيراً.

(٣)

إنى أعرف أنك ستظل على هذا النهج فى استيعابى، وربما فى استيعاب غيرى، وإنى أظن أنك تعتقد أن هذا الأسلوب الذى تتعامل به معى أو مع أمثالى كفيل بأن ينمى حبى لك وثقتى فيك واعتمادى عليك.. نعم أنت تعتقد فى هذا .. ولكنى أريد أن أزحزحك عن هذه العقيدة؛ لأنى بالفعل أكرهك لهذا السبب الذى تظننى سأحبك من أجله.

إنى أكره صبرك علىّ، وأود لو أنك كنت أكثر حدة معى، إنى أضيق باستماعك إلىّ، فى لحظات غضبى، وأود لو أنك لم تكف عن مقاطعتى

بغضب آخر... إنى أمقت تأويلك لأخطائى، وأتمنى لو أنك ضخمتها وعبرت عن عدم قدرتك على احتمالها، إنى لا أحب تسامحك معى، وكنت أحب لو أنك لم تغفر لى.

إنى أكرهك؛ لأنك تحبنى فى تلك اللحظة، ولو كرهتنى فى لحظتها لأحببتك.

(٤)

نعم يا حبيبى المغرور... إنى لا أستطيع أن أفهم ذلك النبل الذى تتحدث عنه فى مقابلة إساءتى بالإحسان، إنى أفضل أن تسميه النفاق... ومن أنت يا حبيبى حتى تقابل إساءتى بإحسانك؟ وهل أنا ـ بكل ما تعرفه عنى أنا – فى انتظار هذا الإحسان الذى تظن أنك تجود به علىّ.

إنى أرجوك أن تنازلنى على نحو ما يفعل الفرسان، إذا قاتلتك بسلاح، فقاتلنى بسلاح مثله.. إذا جرحتك فاجرحنى.. إذا آلمتك فآلمنى، إذا غزوتك فاغزنى، إذا هزمتك فاهزمنى.. ولكنى أعرف أنك لن تستطيع، لأنك شأن المغرورين يخافون المعارك، ولايخوضونها من أجل الحفاظ على مكاسبهم السابقة، وأرقامهم القياسية التى حققوها من قبل، وهم يظنون أن خسارة المعارك تذهب بالمجد السابق، وفاتهم وفاتك ـ معهم ـ أن مجد الانتصار لايُستبقى دون أن يجدده صاحبه بانتصارات جديدة.

ولكنك ياحبيبى المغرور أجبن من أن تبذل جهداً فى تجديد مجدك القديم، بل تؤثر أن تحتفظ بالماضى كما هو؛ لأنك تعرف أنك لاتستطيع أن تكسب الحاضر، وهكذا فإنك شأن المغرورين تنتصر للجبن على الشجاعة، وللخوف

على الخسارة، وللماضي على الحاضر، وللوهم على الأمل، ولنفسك على الناس!

(٥)

إنك ياحبيبي تظن أنك قد خبرت النفس البشرية إلى الحد الذى لايفوقك فيه أحد، ولقد كدت تصرح بهذا لو لا بقية من تواضع تمثله وتتمثله، وبودى أن أقول لك إنك لا تفهم فى النفس البشرية أكثر مما يفهم الأطفال الصغار! ولو كنت فهمت أكثر من الأطفال ولو بدرجة قليلة لعرفت الحب كما يعرفه الفتيان .. ولكنك حتى هذه اللحظة لم تعرف حتى ذلك النوع الصبيانى من الحب.

أترانى أقسو عليك؟ أم تراك أنت الذى قسوت على نفسك؟ أم ترى نفسك هى التى قست عليك وعلىّ؟ هل جاء ضميرى فى الحديث: هل قلت: وعلىّ؟ إنى آسفة أنى أدخلت نفسى فى حياتك! ما ذنبى بك؟ وما ذنبك بى؟... لا .. بل إنى لن أكون مغرورة مثلك لأنكر الواقع ولأنكر الظلام الموحى والظاهر الذى فى النور الساطع تحت ضوء الشمس.. نعم لقد كنت لك، ولكنك أنت الذى لم تكن لى، لأنك مغرور، ولأن المغرورين من أمثالك لايُحبون ولا يحبون.

هل جرحتك؟ ربما ولكنى أفضل أن أجرحك أنا عن أن يحرجك غيرى! ويلى! ومن تكون بالنسبة لى حتى أجرحك؟ بل من تكون حتى أحرجك؟.. إنى آسفة.. ولكنى وجدتنى حيرى بين جرحى لك وإحراج غيرى لك بينما لا أحب هذا ولاذاك، ولا أظننى قادرة على هذا أو ذاك، ذلك أن حدود غرورك لاتسمح للجرح أن يمسها بسوء، ولو من بعيد، ولاتسمح للإحراج أن يضيق عليها الأفق، أليس غرورك يمتد حتى لكأنه يطاول السماء! أليس غرورك هو

الذى يصور لك أنك تكاد تخرق الأرض! أليس غرورك هو الذى يجعلك تؤمن بهذا حتى من دون أن تمارسه!!

(٦)

أجبنى.. إنك لن تعترف .. لأنك لو اعترفت لعرفت الحقيقة.. ولو عرفت الحقيقة لتغيرت حالك.. ولو تغيرت حالك لأحببتك .. ولكنك لاتريد!!.

ولهذا فإنى لا أريد!! لا أريدك بالتحديد!! لا اليوم ولاغداً ولابعد غد.. ومع ذلك فسوف أجد الشجاعة دوما لأعترف لك ولغيرك أنى أحببتك فى فترة من فترات حياتى.. ربما كنت مخدوعة.. وربما كنت أنت الذى خدعتنى، وربما كنت أنا الذى تمنيت ورغبت فى أن أنخدع فى ذلك الوقت..

ولكنها على كل الأحوال فترة جاءت ثم ذهبت.. وتركت لى أثراً فيه طعم جميل، وفيه مرارة مريرة، ومن حسن حظى أنى كلما تذكرت المرارة استعضت عنها بمشاعر الحب، وكلما تذكرت الحب أوقفته عند حده بفضل الذكرى المتبقية عن هذه المرارة، ولولا هذه المرارة لظللت أحبك إلى أبد الآبدين!. ولا أظنك قادراً على أن تستأصل هذه المرارة. لأنك لست بجراح، مع أنك طبيب.

(١)

أكاد لا أصدق نفسي، فابنتي التي أفنيت عمري في تربيتها وتعليمها في مدارس اللغات ثم في كلية الطب تفاجئني برغبتها في أن تصبح سيدة بيت .. وليت هذا حدث بعد أن عانت من الزواج أو الإنجاب، ولكنها تقول هذا رغم أنها لم تتزوج بعد.. وعلى الرغم من أنها تعيش في بيت أبويها معززة مكرمة كما يقولون.. فهي لاتقوم بأي شيء في البيت الكبير، وليس مطلوباً منها أن تقوم بأي شيء.. ومع هذا فهي لاتكف عن التفكير بصوت عال في أنها سوف تتفرغ تماماً لنفسها.. وما يحيرني هو أنها ليست من ذوات الهوايات اللواتي يتمنين الفراغ حتى يشبعن هذه الهوايات. نعم إن ابنتي ذكية ولكنه الذكاء التقليدي الذي جعلها مع الظروف المواتية تنهي دراستها في الجي سي إي بسرعة، وتلتحق بعدها بكلية الطب.. ولكن معلومات ابنتي الطبية عن أمراض الانسان وعلاجها تكاد تكون متواضعة بالنسبة لمعلوماتي أنا التي لم أدرس

(*) قدمتها بصوتها السيدة نادية صالح في البرنامج الذي يحمل هذا الاسم.

الطب ولا العلوم أصلاً.. وأنا حائرة هل أشجعها على هذا الاتجاه، وأتركها تستقيل لبدء رحلة مع الفراغ المتواصل خاصة أنها لاتندفع على الإطلاق إلى الحب ولا الإعجاب بالرجال على الرغم من أنها تتمنى أن يكون لها بيت فى أسرع فرصة ..

(٢)

إن ما يحيرنى فى ابنتى أنها لاتعرف الحماس.. فهى تمارس كل حياتها فى هدوء.. بل فى برود.. عواطفها باردة... وتفكيرها بارد... وحتى حديثها معى ليس فيه أى قدر من الدفء .. وفى أحيان كثيرة يأخذنى التفكير ساعات طويلة لماذا صارت ابنتى على هذه الصورة على الرغم من أن قواها العقلية والبدنية فى كامل لياقتها؟ وفى لحظات كثيرة أحاول أن أنكر أننى أنا السبب.. فقد عزلتها عن الحياة العامة وعن دفء الصداقات، وعن تجارب الشعب.. هيأت لها الدروس الخصوصية فى كل مرحلة حتى فى الكلية.. جهزتها جيداً للامتحانات فاجتازتها، ولكنى لم أجهزها للحياة نفسها، لم تدرس ابنتى أية صورة من الآداب العربية أو الأجنبية؛ لأنها تخطت مرحلة الدراسة الثانوية بالكامل، وللأسف فان هذا هو حال مجموعة كبيرة من زميلاتها .. لم يكن عندها وقت لتقرأ قصة، لأن السيل الغزير من شرائط الفيديو المتاحة فى البيت كان يدعوها إلى أن تتفرغ لمشاهدته، ثم جاءت القنوات الفضائية اللانهائية لتؤكد على كل معانى السلبية فى حياتها.. ولهذا فانى أعتقد أننى الملومة على هذا المستقبل السلبى الذى ينتظر ابنتى.. وكنت أظن نفسى قد ضيعت نفسى من أجلها .. ولكن يبدو أنها هى التى ضاعت.

(١)

الدنيا لاتكاد تسعنى من الفرحة فأنا اليوم قد أصبحت جدة.. لم أكن أعرف أننى سأمر بهذا القدر من السعادة والنشوة فى حياتى.. حتى عندما أصبحت أما لأول ولثانى مرة لـم أشعر بهذه السعادة ربمـا، لأننى كنت صغيرة، فـقد أنجبت ابنى وابنتى عنـدما كنت لا أزال تحت العشرين.. وعلى الرغـم من أنى تخطيت الخمسين الآن، فإنى أحس أن قلبى يكـاد يقفز من مكانه.. لا أعرف السر وراء هذا الشـعور الذى يلـهب ويدغدغ كـل أحاسيسى مـنذ الصبـاح الباكر عـندما وضعت ابنتى طفلة صغيرة.. ومن العـجيب أن فرحة ابنتى لاتعادل واحداً على عشرة مـن فرحتى.. على الـرغم من أنها بـلغت الثلاثـين من عمرها، وكـنت أظنـها ستطـير مـن الفرحة عندمـا تصبـح أما.. ولكنها طوال الساعات الماضية مازالت مـتحفظة فى إبـداء مشـاعـرهـا تجاه قيامهـا بدور الأمومة.. إنها تـفكر بصورة جديـة فى الاكتفاء بهـذه الابنة.. وزوجهـا هـو الآخـر ليس متـحمسا حتى من قبل الوضع لأكثر من طفل واحد سواء جاء الطفل ذكـرا أم أنثى.

---

*قدمتها بصوتها السيدة نادية صالح فى برنامج «مذكرات أمرأة عصرية».

(٢)

وفى لحظات كثيرة كانا يتوعداننى بأننى أنا الأم الحقيقية مادمت ألح عليهما بالرجاء ولا أكف عن رفع يدى إلى السماء بالدعاء.. أما الآن وقد استجاب الله لدعائى فلابد أن أقوم لهما عن طيب خاطر بالمهام التى كانا يتوعداننى بها.. ومع هذا فأنا سعيدة.. بل أكاد أطير من الفرحة كما حدثتكم فى البداية .. ولكن هل يسمح لى قلبى أن أحرم ابنتى من ابنتها؟ هل أستطيع أن أستعيد ذكرياتى مع ابنتى الأم الجديدة حين كنت لا أفارقها ليلا ونهاراً؟ هل سأشعر أننى أغتصب سعادة ليست من حقى على الرغم من أن أصحاب الحق أنفسهم قد تنازلوا لى؟.

إننى أنظر إلى المسألة من زاوية أخرى وهى أن الله يحبنى، ولهذا فإنه يضاعف لى السعادة.. ويمنحنى السعادة بعد الخمسين كما منحها لى من قبل حين كنت فيما تحت العشرين.

ولا أكذبكم القول إننى أتمنى لو عرفت طبيعة السعادة التى أحست بها الأم الأوروبية التى حملت حفيدتها فى بطنها بالنيابة عن ابنتها التى كانت عاجزة عن الانجاب بسبب مرض فى الرحم.. وكثيرا ما أسال نفسى هل كانت هذه السيدة تشعر بما أشعر به الآن؟ وهل هان عليها أن تترك حفيدتها لابنتها كما تترك ابنتى حفيدتى لى؟!. إنى أسأل فهل من مجيب؟

المحتويات

رقم الايداع ١١٤٦٥/١٩٩٩
الترقيم الدولى ٣-٢٦٤-٢٣٦-٩٧٧ ISBN